

القدس

عربية إسلامية

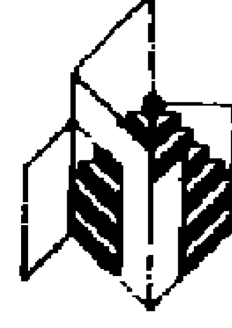
د . سيد فرج راشد

مطبوعات
الهيئة العامة لقصور الثقافة

إهـــــــداء2006

ورثة الكيميائي/ محمد فاروق القران

الإسكندرية



الهيئة العامة لقصور الثقافة

القدس

عربية إسلامية

د. سيد فرج راشد

مطبوعات
الهيئة العامة لقصور الثقافة
٦٥

• القدس.. عربية إسلامية

• د. سيد فرج راشد

• الطبعة الثانية :

الهيئة العامة لقصور الثقافة

• مطبوعات الهيئة (٦٥)

• القاهرة - ٢٠٠٠

شركة الأمل للطباعة والنشر
ت : ٣٩٠٤٠٩٦

• المراسلات :
باسم مدير التحرير على العنوان التالى : ١٦ أ شارع أمين سامى - القصر العينى
القاهرة - رقم بريدى ١١٥٦١



مسقط رأسي للحرم الشريف يحدد موقعه داخل مدينة القدس

فهـرس الموضـوعات

تقديم

بقلم أ.د. عبد الرحمن الطيب الأنصاري ١١

مقدمة

بقلم أ.د. حسن ظاظا ١٧

فاتحة المؤلف ٢١

المختصرات ٢٨

تمهـــيد

أولاً - أسماء المدينة في مختلف أدوارها ٣١

ثانيًا - جغرافية القدس ٣٣

ثالـثًا - المقدسات الإسـلامية في الـقدس (العـهدة العمـرية ، المسجد الأقصى ومسجد قبة الـصخرة ، صلة العرب القديمة جدًا بفلسطين) ٣٨

الفصل الأول

تاريخ القدس قبل الوجود اليهودي الطارئ ٥٣

الفصل الثاني

مرحلة التعايش السلمي بين الفلسطينيين الأصليين وداود ٦١

- استيلاء داود على جبل صهيون والاستعداد لبناء الهيكل ٦١

- موت داود والتعنت الإسرائيلى ٦٥

الفصل الثالث

موجز لتاريخ القدس منذ انقسام مملكة بنى إسرائيل بعد سليمان ٧٣

- الانقسام وانتشار الوثنية بين اليهود ٧٣
- ششنق وغزو فلسطين ٧٧
- يقظة الفلسطينيين وضعف الكيان اليهودي ٨٦
- سياسة سنحاريب مع الفلسطينيين الأصليين ٨٨

الفصل الرابع

تدمير بختنصر للقدس والمعبد اليهودي ٩٥

- تدمير بختنصّر للقدس (٥٨٧ ق.م.) ٩٥
- نحميا والعودة من السبي البابلي ١٠٣
- المعبد السامري على جزيزيم وبداية الصراع بين الطوائف اليهودية ١٠٤

الفصل الخامس

الصراع الديني بين الهيكل في القدس والمعبد الإسرائيلي في الشمال ١١٣

- الديانة الكنعانية وتأثيرها على الطقوس اليهودية ١١٣
- الاختلافات الرئيسية بين المعبد الجنوبي والمعبد الشمالي ١١٨

الفصل السادس

القدس في العصرين اليوناني والروماني ١٢٧

- القدس في العصر اليوناني ١٢٧

● الاسكندر وفلسطين ١٢٨
● الفصائل المتأغرقة والخروج على الشريعة اليهودية ١٣٥
● تسرب الحضارة الهيلينية إلى المجتمع اليهودي ١٣٦
- القدس في العصر الروماني ١٤٣
● جابينيوس وتفتيت الكيان اليهودي ١٤٤
● هيرودس والهيكل الثاني ١٤٥
● الخراب الثاني للقدس ١٥١
● إيليا كابيتولينا ١٥٤

الفصل السابع

يهود الأندلس والحنين إلى القدس ١٦١
- أثر الحضارة الإسلامية على الفكر اليهودي ١٦١
- الشعر العبري الوسيط ١٦٦
- سليمان بن جبيرول وبعض نماذج من أشعاره ١٦٨
- يهوذا اللاوي وبعض نماذج من أشعاره ١٧١
- إسحاق بن غياث وبعض نماذج من أشعاره ١٧٣
- موسى بن عزرا وتأثره بالأدب العربي ١٧٤
- يهوذا الحريزي وبعض نماذج من أدبه ١٧٥

الفصل الثامن

صلاح الدين واسترداد بيت المقدس من الصليبيين ١٨٣
- فلسطين بين الحروب الصليبية ١٨٣
- موقعة حطين نقطة تحول لاسترداد القدس ١٨٩

- القدس في عهد المماليك 195
- القدس في العصر العثماني 197

الفصل التاسع
وعد بلفور وقيام إسرائيل 205
- هرتسل والصهيونية السياسية 205
- وعد بلفور 209
- قرار التقسيم 213
- تقييم للوجود اليهودي في فلسطين 215
أولاً - الروابط الروحية والدينية 215
ثانيًا - الحقوق التاريخية 215

خاتمة 221
المصادر والمراجع 229
أولاً - المراجع العربية 229
ثانيًا - المراجع العبرية 233
ثالثًا - المخطوطات 236
رابعًا - المراجع الأجنبية 237

تقديم

مدينة القدس مدينة يرتبط بها أتباع الأديان السماوية ، فإليها هاجر إبراهيم أبو الأنبياء عليه السلام وقصدها موسى عليه السلام من مصر في رحلة دامت أكثر من أربعين عامًا ولكن لم تنعم عيناه برؤيتها ، ثم داود وسليمان وبقية الأنبياء ثم عيسى عليهم السلام أجمعين مبشرين بمحمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والرسل إلى المسجد الأقصى ليعرج به السماوات حتى سدرة المنتهى . ولذلك فإن ارتباط أتباع اليهودية والنصرانية والإسلام بالقدس ارتباط روحي مقدس . واستمرت القدس مدينة السلام على مر العصور ومن قبل كانت ولا تزال مدينة عربية منذ فجر التاريخ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لأن اسمها القديم كان اسمًا عربيًا ولكن اليهود لم يرعوا هذه القدسية للقدس لأن القدس مدينة التوحيد والتوحيد يعني الاسلام منذ إبراهيم (وما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين ﴾ هذه جمل أذكرها في بداية حديثي عن عمل علمي جليل هو كتاب « القدس . . مدينة عربية إسلامية » للدكتور سيد فرج راشد أستاذ اللغات السامية بقسم الآثار والمتاحف بجامعة الملك سعود . ولا أريد أن أتحدث عن علم الدكتور سيد فهو عالم له نشاط علمي متميز في مجال الدراسات العبرية على وجه الخصوص ، ونشرت له عدة أبحاث تتناول ثقافة العبرانيين وتاريخهم ، وهذا الكتاب يتناول في تسعة فصول عدا المقدمة ، قصة القدس وفي المقدمة يتناول أسماء القدس منذ عصر سكانها الأصليين اليبوسيين وهم عرب في الألف الثالث قبل الميلاد ، وفي العصر الإسلامي ثم يدرس جغرافيتها بتفصيل مناسب ويعرج بعد ذلك على المقدسات الإسلامية فيها ، ومن خلال دراسته للمقدسات الإسلامية يذكر العهدة العمرية وأهميتها لسكان القدس أو إيلياء عند تحرير المسلمين لها ، كما يتحدث عن المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة . ويتضح هنا أن هناك فرقًا

بين المسجد الأقصى وقبة الصخرة يجهله كثير من المسلمين في العصر الحاضر ، فكثير هم أولئك الذين يعتقدون أن المسجد الأقصى وقبة الصخرة شيء واحد ويرجع ذلك إلى جهل المسلمين بتاريخهم وحضارتهم ، وذلك تقصير إعلامي يجب أن نتنبه إليه وواجب الأكاديميين المسلمين أن يقوموا بواجبهم تجاه شعوبهم الإسلامية بالتعاون مع وسائل الإعلام المختلفة ، وهذا الكتاب إنما جاء لسد هذه الثغرة .

ومما يجب أن نلحظه في هذا الكتاب القيم هو أنه اتخذ خطًا واضحًا وهو عروبة القدس ، وهو في سبيل برهنته على هذه الحقيقة في وجه الصهيونية العارمة يعتمد على البراهين الواضحات ، فيبدأ في الفصل الأول بالحديث عن تاريخ القدس قبل الوجود اليهودي الطارىء ، ثم ينتقل إلى الفصل الثاني متحدثًا عن مرحلة التعايش السلمي بين الفلسطينيين الأصليين وداود عليه السلام وفتحه القدس وبناء الهيكل حتى موت سليمان عليه السلام والذي كان موته بداية لانقسام بني إسرائيل .

ورغم أن اليهود التصقوا بفلسطين عامة وبالقدس خاصة إلاّ أن هذا الالتصاق لم يكن تامًا ، لأن سلوكهم وانقساماتهم الدينية والعرقية والسياسية لم ترح الشعوب التي حاولوا أن يعيشوا بينها ؛ لأنهم كانوا جسمًا غريبًا لم يستطع الاندماج مع الشعوب الأصلية في المنطقة ، ولذا حاربتهم شعوب المنطقة الضعيفة منها والقوية ، كما أن انبهارهم بحضارة الشعوب القديمة لم يمكنهم من الالتزام بمبادئ التوحيد التي أتى بها أنبياؤهم ، فتأثروا بوثنية هذه الأقوام فكانوا بذلك متأرجحين بين الوثنية والتوحيد . وهذه صفة الغريب في كل عصر يتقلب بين تراثه وتراث الأمم التي يعيش بينها فهو من جهة يشعر بقوة تراث هذه الأمم ، ومن جهة أخرى يشعر أن تراثه ومعتقداته لا تساعده على الانصهار ، ولذا كان موقفهم من أنبيائهم غير مشرف والقرآن الكريم خير شاهد

على مواقفهم من أنبيائهم ، كما أن التوراة خير شاهد على سلوكهم الدموي مع جيرانهم ، فهو سلوك دموي للدفاع عن النفس ينبع من شعورهم الكاذب بالاستعلاء . وهذا الشعور عاش معهم في كل مجتمع يعيشون فيه في أوروبا وأمريكا حتى الوقت الحاضر وفي البلاد العربية قبل نشأة الكيان الصهيوني . هذا الموقف العدائي لليهود جعلهم عرضة لحملات متعاقبة منذ ملوك آشور وحتى دخول الاسكندر إلى المنطقة ، وقد استطاع المؤلف أن يعرض هذه النكبات في أسلوب علمي مبسط ومقنع مبينًا من خلال ذلك الصراع الديني بين اليهود وبين السكان الأصليين والمحاولات اليائسة لبناء المعبد كرمز لكيانهم الديني ومن ثم السياسي .

ولم يكن دخول اليونان ثم الرومان بأرحم بهم من الدول العظمى السابقة في المنطقة ، بل شهدنا المحاولات اليهودية للبقاء كقوة لها دورها في المنطقة ، إلا أن سلوكهم كان عاملاً مساعدًا على قلقهم وعدم استقرارهم ، وكانت القدس هي قطب الرحى في الصراع الذي يفتعله اليهود وهم الأقلية ، فكم من مرة هدمت القدس وكم من مرة هدم الهيكل حتى قدر لليهود أن يتيهوا من المنطقة في القرون الأولى للميلاد وينتشروا في المنطقة يحملون بين جوانحهم الحقد والكراهية لهذه الشعوب ، فذهبوا إلى اليمن ونجران فكانوا وراء حدث جليل سجله القرآن الكريم ، إذ كانوا وراء حادث الأخدود الذي ذهب ضحيته آلاف من النصارى في نجران ، وكانوا وراء الصراع بين البيزنطيين والفرس في اليمن وتمزق اليمن بسببهم ، وعند ظهور الاسلام كانوا الشوكة المؤلمة في جنب الدعوة الإسلامية في المدينة المنورة عاصمة الإسلام الأولى حين أخرجهم النبي ﷺ منها ، ثم أخرجهم عمر بن الخطاب من بقية أنحاء الجزيرة العربية .

ومع ذلك فقد وجدوا في الحواضر الإسلامية منتجعًا سليمًا يمارسون فيه عقيدتهم كعنصر من عناصر أهل الذمة ولكنهم مع ذلك كانوا يظهرون حقدهم

وصهيونيتهم من خلال أدبهم وفكرهم ، ولعل أبرز مثل على ذلك نشاطهم في الأندلـس . وقد وفق المؤلـف في الفصـل السابع فـي أن يقدم نماذج مـن هذه الصور القـائمة عن فكرهـم وتصوراتهم لما يجـب أن يكون عليه وضـعهم بين الأمم ، لأنهم كانوا يعتقدون أنهم شعب الله المختار فمن الأندلس ظهر فكرهم الصهيوني ويعتبر شعرهم أوضح مثال على ذلك .

وقد كان ظهور الإسلام فترة مشرقة أصبحـت فيها القدس كما كانت مدينة عربية خالصة تحفها روحانية الإسلام الذي أعاد لـها هيبتها ورونقها وقدسيتها ، وأصبحت بذلك المدينـة التي تفتح ذراعيها لكل متعبد . واستـمرت لها نضارتها ونقاؤها حتى أواخر العهد العثماني .

ولكن يهود أوروبا ومنذ عصر نابليـون يعدون العدة لإنشاء كيان جديد لهم وكانت جمعياتهـم وبيعم مجالاً خصبًا لأفكارهم التي ربطـوها بجبل في القدس سموه خطأ بجبل صهيون وسموا حركتهم بالحركة الصهيونية ، وبمنطقة فلسطين التـي أسموها أرض المـيعاد لـكي تجد صدى فـي قلب كـل يهودي علـى وجه الأرض ، فبدأوا يدغدغون عواطف اليهود في العالم ويجمعون قطرات حقدهم الأسود ليصبوه على الأبرياء من سكان فلسطين ، وتجمعت الأحداث العالمية في الحربين العالميتين الأولى والـثانية لتهيئ لهم أسباب التجمع مـستعملين في ذلك كل أسبـاب المكر والحيل والـدهاء ، وساعدتهم أحـداث في أوروبا استغـلوها لمصلحتهم فتحقق لهم ما أرادوا في غفـلة من الزمن كان المسلمون فيه في حالة ضعف بعد أن مـزقهم الاستعمار شر ممـزق ، وكان لهم ما أملوه فأنـشأوا كيانًا بنوه على الدماء والفتك والدمار وأعادوا الكرة مرة أخرى ، فهم يعيشون اليوم في أرض تكرههـم وبين شعب عربي مسـلم يمقتهم لأنهم لـم يعوا فيه إلاً ولا ذمة ، ولأنه أتاح لهم فرصة الحياة الثرية من المحـيط إلى الخليج ولكنهم قابلوا كل ذلـك بالإساءة . لعـلي لا أكون مغـاليًا إذا قلت إن الـتاريخ سيـعيد نفـسه

وسيجد اليهود أنفسهم في مستقبل الأيام في وضع لا يحسدون عليه ، فإن الشقاق الذي نعيش فيه سينقلب بإذن الله إلى وحدة إسلامية شاملة لا يجدون لهم فيها مقامًا .

هذا الكتاب الذي أقدمه يقدم كل هذا الصراع الدامي ممثلاً في القدس الشريف ، وأرجو أن يستمتع القارئ بما استمعت به لأنه يقدم أفكاره ويعرضها بالبرهان والحجة متقيدًا بمصادر عربية وأجنبية بل وعبرية . ولعل في أمثال هذه الدراسة ما يوضح لنا الصورة ويكشف لنا الغمة ويجعلنا أنور على فهم خلفية عدونا الذي يحاربنا بدعاوى من الدين والتاريخ ومن لا حجاجة عليه لا حجة له .

د. عبد الرحمن بن محمد الطيب الأنصاري
أستاذ آثار الجزيرة العربية وتاريخها قبل الإسلام
جامعة الملك سعود - كلية الآداب

مقدمـــة

في هذا الكتاب الذي يضعه مؤلفه الدكتور سيد فرج راشد بين أيدي القراء أمور كثيرة ربما حال تواضعه المعروف دون التصريح بها أو لعله تركها ترسب في ذهن قاريء الكتـاب شيئًا فشيئًا أثناء مسايـرته لتاريخ هذه المدينة عـبر العصور . ولما كانت مديـنة القدس في مجال السيـاسة الدولية المعاصرة قـد أصبحت ورقة تلعب بها الصهيونية على جميع الأشكال ، فإن هذا العالم العربي الذي تقع فيه المدينة المقدسة موقع القلب من الجسد ، لابد أن يعرف تفاصيل المشوار الطويل الذي قطعته علوًا وسفلاً حتى يتبين أن هـذه الصهيونية المغتصبة ليست إلا دوراً صغيراً جدًا من الأدوار لا يكـاد يختلف عن سيطرة الصليبيـين على هذه المدينة في العصور الوسطى .

ولو أننـا تنازلنا لـلحظة عـن النظر إلى الـقدس من خلال انتـمائنا الـديني والقومي والإقليمي ، لتبين لنا أن الإنسانية في بداية التاريخ لم تكن تبني المدن بالصدفة أو تبعًا للـهوى ، فكل مدينة قديمة، قد بدأت حياتهـا مدينة مقدسة : طيبة ومنفيـس في مصر ، بابل ونينوي في العراق ، شـيراز في إيران ، بنارس في الهند ، شنغهاي في الصين ، نارا في اليابان ، لهاسا في التبت ، فضلاً عن أثينـا وروما وبعلـبك في منـطقة البـحر الأبيض المـتوسط ، ويبـدو أن الموقف الجغرافي هو الذي كان يـحدد قدسية المكان وجدارته بأن تقوم فـيه مدينة « بها معبـد » وهيكل للحـج ، وكان يشترط في المـوقع الجغرافي لمثـل هذه المدن أن يكون مما يسهل الدفاع عنه عند العدوان ، وكذلك أن يوجد المكان بجوار مصدر من مصـادر الماء كالأنهار والـبحيرات والينـابيع ، وأخيرًا يـتحتم ارتبـاط المكان المقدر لهذه القدسـية طرق تجلب إليه المؤمنين من كل فـج عميق . والقدس في هذا لا تشبـه طيبة أو بنارس بـقدر ما تشبه مكـة المكرمة ، فالموقـع حصين في المدينتين بما يحيط بهما من جبال أما مصدر المـاء فإنه الينابيع التي تغذيها الشعاب

المنحدرة من تلك الجبال بماء المطر ، وأما الطرق فإنها في الحالتين ليست طرق حج فحسب ، وإنما هي مسالك دولية للسفر والتجارة والانتقال العسكري .

كل هذا أوضحه الأستاذ الباحث في أماكنه من هذا الكتاب ، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد حمى مكة من الاحتلال الأجنبي ودفع عنها غائلة الغزاة ، فإن قدر مدينة القدس لم يكن كذلك لوقوعها في صميم مفترق الطرق بين القارات الثلاث التي تشكل العالم القديم وهي آسيا وأوروبا وإفريقيا ، فإذا أوغلنا في أعماق التاريخ وفيما قبل التاريخ وجدنا القدس بأسمائها المختلفة في مكانها شاهدًا على مسيرة موكب الزمن ، فهي يبوس وشالم وأورشليم وإيليا كابيتولينا ثم إيلياء فقط في العصر المسيحي بعد أن زالت دولة أصنام الكابيتول ثم بيت المقدس وأخيراً القدس الشريف ، وأكاد أستحضر صورة هذه المدينة في الذاكرة بعد السنوات التي عشتها بها وأتذكر هضبة الحرم في وسطها تتوجها قبة الصخرة وأمامها الساحة المكشوفة التي يغطيها بلاط حجري كبير بعضه ينفتح عن آبار مملوءة بالماء العذب الصافي ، وأكاد أري الجبال التي تحتضنها من الشمال (المكبروسكوبوس) ومن الشرق (جبل الزيتون الذي يفصله عن ساحة الحرم وادي يهوشافاط) ثم في الجنوب (نبع سلوان ووادي الجن والقمامة من ورائها جبال الصحراء الممتدة حتى النقب) ، بينما يبدأ السهل الساحلي لفلسطين من الجهة الغربية للمدينة حيث يأخذ طريق يافا اتجاهه نحو المدينة الساحلية الكبيرة مخترقًا من حين إلى حين جبالاً أخرى ومرتفعات كأنها أصداء لجبال القدس ، مثل جبال منطقة أبي غوسن وباب الواد وحطين وراملة وغيرها . وأكاد أرى في الحرم الإسلامي مسجد عمر الذي جدده صلاح الدين الأيوبي بعد ردّ الغزاة الصليبيين عن المدينة . كما أرى كنيسة القيامة بجوار الحرم الإسلامي على مقربة من حائط المبكى اليهودي حيث تشهد الأحجار نفسها أن السلام من صنع الله وأن العدوان من صنع الإنسان .

سنقرأ في هذا البحث الدقيق الذي يقدمه لنا المؤلف كيف كانت هذه المدينة متجهة إلى (الله العلي) تحت حكم ملك ومرشد ديني في آن واحد من أبناء فلسطين الأصليين ، هو « ملكي صادق » وترجمة اسمه للعربية « العادل هو ملكي » رغم أنف ما ارتكبه اليهود قديمًا وحديثًا داخل أسوار هذه المدينة من ظلم وجور وتحدي لهذا العادل الذي دان له أول ملك فلسطيني في هذه البقعة عرفه التاريخ وذكره رواة التوراة أنفسهم ، وسنعرف أن سيدنا إبراهيم عندما مرّ بمدينة شالم عائدًا من بعض وقائعه الحربية صلى الجماعة مع « ملكي صادق » لله العلي ، كل هذا قبل أن يُخلَق اليهود بزمن طويل . وسنعرف بعد ذلك أن الله سبحانه وتعالى يزجر العصاة ويدفع ببعضهم ضد البعض الآخر ، ليكون ذلك انتقامًا منه أحيانًا من الطرفين المعتديين ، لأنه هو (العادل الذي عبده ملكي صادق) فليس عجيبًا أن نجد موسى وهارون يقضيان نحبهما دون أن تطأ أقدامهما أرض فلسطين فضلاً عن القدس ، ثم يدور الزمن دورته فيسير داود وسليمان نحو المدينة المقدسة بأمر الله بعد أن كفر أصحابها وعبدوا أصنامًا مثل بعل وعشتروت وأشيرا وغيرها ، ثم يكفر اليهود بدورهم بشريعة موسى وأخلاقياته وينسون جهاد داود وحكمة سليمان ، فيرسل هذا العادل عليهم بُختنصّر وتتوالى الحوادث متلاحقة إلى أن تهتز قوانين العدل كلها في العصر الحديث في أغلب جهات العالم ، وتقوم الدولتان الأعظم ومن قبلهما الامبراطورية البريطانية التي لا تغرب عنها الشمس ، فتحل عبادة المال محل عبادة الله في وقت كان اليهود على مدى قرون الشتات قد استطاعوا أن يمسكوا بأزمة المال، بحيث راحت هذه الأمم العظيمة تجثوا على الركبتين أمام أثرياء اليهود من أمثال روتشيلد وهيرش ومونتوفيوري وغيرهم ، ولمح المغامرون من اليهود هذه الظاهرة منذ أواسط القرن التاسع عشر فاندفعوا يستغلونها وجمعهم بالأمم الغربية عداء دفين للإسلام منذ جولات الحروب الصليبية ورغبة ملحة في تدمير آخر خلافة إسلامية وهي الخلافة العثمانية ، وكان لابد من شعار ، وهكذا رفعت اليهودية الانتهازية شعار صهيون قلعة داود القديمة التي لم يعد لها

وجود ، بل لم يعد للجبل نفسه وجود بعد أن ردم الجرف الفاصل بينه وبين غرب هضبة بيت المقدس ، فسُوّي بالأرض وعاد (جبل صهيون) اسمًا على غير مسمى ، لكن أقامت الصهيونية مسمًّى على غير اسم ولوّحت بشعار أورشليم - القدس ، ونبشت في صميم الحضارة العربية عن شعراء وأدباء في الأندلس كانوا يحنون إلى أداء الحج في هذه البقعة كما يحن المسلم إلى الحرمين ، فتأوّلوا ذلك على عادتهم وادعوا أن الصهيونية تجري في ثنايا العقل الباطن اليهودي ليس منذ الأندلس الإسلامية فحسب ، بل قبل أن يخلق الله آدم وحواء بل قبل أن يخلق الكرة الأرضية نفسها ، فزعم التلمود أن الله - تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا - قد نزع فصًا من الزمرد من عرشه وطوّح به في الفضاء فكانت منه القدس ، ثم إن هذه الزمردة راحت تتحرك وتدور فخلقت الأرض من حولها فكل ما اقترب من القدس فهو مبارك على قدر قربه منها ، وكل ما ابتعد عنها فقد ابتعدت عنه البركة . ولا أدري ماذا يقول في ذلك سكان طوكيو أو سان فرانسسكو أو سيدني أو بونس ايرس ، لكن الخرافات اليهودية لا تعرف حدودًا تقف عندها ولها تكتيك في غزو العقل البشري يتغير ويتطور بحسب قابلية هذا العقل ، وكم شكا علماء المسلمين الأول من تسرب الخرافات الإسرائيلية إلى الدين الإسلامي ، أما المسيحية فيكفي أن نروي منها ما جاء في رسالة من رسائل القديس بولس في العهد القديم حيث يحذر تلميذًا من تلاميذه (من خرافات اليهود) ويأمره أن يتجنبها في مواعظه وفي تبشيره للكفار بديانة المسيح .

إن تاريخ هذه المدينة هو تاريخ حضارة تخطو من الطفولة إلى الشباب والنضج ثم الكهولة والشيخوخة جامعة في ذلك بين الحرب والسياسة والأدب والدين والبطولة والصمود على النحو الذي حرص على أن يرصده لنا الدكتور سيد فرج في هذه الصفحات العلمية الممتعة .

بقلم الأستاذ الدكتور / حسن ظاظا

أستاذ العلوم اللغوية

فاتحة المؤلف

لم يستطع بنو إسرائيل أن يتخلصوا من دائهم القديم ، وهو التعصب العنصري الذي لم يكتف بالقول بامتياز قومهم على غيرهم من الأمم بالإيمان بالله وتوحيده ، بل قلبوا هذا إلى أحقاد يغذونها باستمرار ضد الأمم الأخرى مدعين أنهم يتربعون على القمة في ترتيب شعوب الأرض ، وأن هذه المكانة كانت بتدبير إلهي ، ومن هنا سمّوا أنفسهم « شعب الله المختار » ، وكان ذلك منطلقًا لتفرقة عنصرية رهيبة حتى أمام القانون ، فمن ليس من بني إسرائيل لا تحميه الشريعة الإسرائيلية ولا تجازي المعتدي عليه من اليهود ، كما أنهم وصلوا في ذلك إلى أن اليهودي بالنسب والعرق يظل هكذا حتى لو ألحد أو ارتد ، بينما المتهود يظل مفصولاً عن الشعب المختار مهما بلغ به الإيمان وامتثال الشريعة . وهذا وحده دليل على ما كان من انحرافهم عن تعاليم موسى الذي أرسل بتكليف إلهي ، لكي يهدم عبادة الأصنام وعبادة الإنسان للإنسان ولكي يجعل العدل أساسًا للتعامل بين الناس كافة ولهذا ثار على فرعون .

وعلى ذلك فهذه الشريعة الموسوية الإصلاحية التي ثارت على التمييز الطبقي والعنصري ، لا يمكن أن تكون هي عصب العنصرية كما يتصورها اليهود فيما نسبوه إلى موسى ، ولأن الحكمة الإلهية ، أرادت أن يفهم هؤلاء الناس أن عرض الدنيا ليس هو المقصود عند اتخاذ الطريق إلى الله ، فإنه أمات موسى وهارون بعيداً عن أرض فلسطين ، والكيانات السياسية المتعاقبة التي قامت في تلك الأرض من بعده لم تكن إلاّ حركات سياسية ضحّوا فيها بكل شيء حتى بالإيمان وبالشريعة .

ومن هنا كان بقاؤهم السياسي في تلك الأرض مهتزاً دائمًا وعرضة للتدمير ، شهد بذلك أنبياؤهم وهم يخطبون فيهم داخل فلسطين ، فنبيهم إشعيا يُذكرهم بأن تصدع كيانهم في تلك الأرض وتسلّط من لا يرحمهم

ولا يخاف الله فيهم ، إنما هوجزاء عادل لما ارتكبوه من موبقات وآثام ، وكان بهذا يبشر بزوال الكيان الشمالي لبني إسرائيل من فلسطين والذي يسميه المؤرخون « مملكة اسرائيل » أو « مملكة السامرة » ، كما كرر نفس الخواطر نبيهم إرميا بجانب جدران المعبد في القدس ، وهو يأمرهم بالاستسلام لنبوخذ نصر « بختنصر » الكلداني لأنه جزاء عادل من الله حل بهم ، وأنهم إذا رفضوا عقوبة الله فإنها ستتضاعف وسيكثر فيهم القتل والتشريد والتدمير فعصوا نبيهم وأرسلوا وراءه من يقتله بعد وقوع الكارثة .

كل هذا يكاد يمر عليه كثير من المؤرخين ببرود الباحث السطحي ، فيكتفون بالإشارة إلى أن هذا الوجود السياسي الإسرائيلي القديم قد ذهب مع الريح شمالاً في القرن السابع قبل الميلاد (٧٢٢ ق.م. على يد الإمبراطور الأشوري سرجون الثاني) ، وجنوبًا بعد ذلك بقرن ونصف من الزمان (٥٨٧ ق.م. على يد الإمبراطور الكلداني بختنصر) ، دون الإشارة إلى أن الذي يقيم حكمًا دينيًا بأمر الله تسقط شرعيته في هذا الحكم بمجرد عصيانه لأمر الله . واليهود عصوا كل أوامر الله بشهادة كتبهم منذ موسى وإلى السبي البابلي ، ثم حروبهم مع اليونان وأخيرًا التشريد الروماني المسمى بالشتات والذي استمر ما يقرب من ألفي عام ، إلى أن سمحت لهم المساومات السياسية البحتة واللا أخلاقية في معظم مظاهرها بتقوية هذه الصهيونية المعاصرة في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وبإقامة دولة إسرائيل المزعومة في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، حيث صب زعماء الصهيونية حركتهم في إطار ديني حشري يتم تحقيقه بالجهود السياسية .

ومؤدى هذا كله أن الكثرة الغالبة من الباحثين في تاريخ اليهود ، يرون أنهم الأمة الوحيدة تقريبًا التي لم تستقر حضارتها على قوائم إنسانية ثابتة ، بل كتبت تاريخها بنفسها أو - إن شئت مزيداً من دقة التعبير - قل كتبته حسب هواها ، ثم زعمت أن ذلك التاريخ صادر من الله بطريق الوحي ، ولكنهم

نقلوا عن المأثـورات الشعبية لأرض الرافدين والكنعـانيين وبعض الأمم الأخرى التي عرفوها وشريعة حمورابي شاهد على صدق هذا الذي نقول .

وحقيقة الأمر أن الإسرائـيليين عندما تسللوا إلى فلـسطين بعد الخروج من مصر بقيادة موسـى عليه السلام - والذي توفي على جبـل « نبو » بالقرب من الضفة الشرقية لنهر الأردن يرى أرض الميعاد من فوق الجبل بعيدة ولايستطيع أن يطأها بقدميه - ثم تولى يوشع ابن نـون قيادتهم من بعده ؛ وجدوا اليبوسيين والأدوميين والموآبيين والعمونيين والكنعـانيين وغيرهم وهؤلاء جميعهم عرب ، اي أن العرق السامـي عربي في أصوله الجغرافـية ، ثم غدت مسيحيـة في عهد الرومان البيزنطيين ولكنها ظلت سامـية من حيث العرق والسلالة البشرية ، ثم أصبحـت إسلامية مـن حيث الديـن وظلت عربيـة سامية مـن حيث التـكوين والسلالة .

وارتكازاً على ذلـك نجد أن زعم اليهود وتحريفـهم للتاريخ بأنه كـانت لهم دولة في فـلسطين فتـرة من الزمن - ازدهرت فـي عهد داود وسليـمان - زعم باطل يقـوم على قراءة غير واعية وغـير أمينة للتـاريخ ، فالصهيونيـة تقيم وزنًا لسبعين عامًا هي فترة حكم داود وسليـمان في القدس ،وهي فترة متأخرة وغير مُجْمَع عليـها من كل طوائـف اليهود ، واعتـبرت القاعدة الحـربية والسيـاسية للمملكة الجديـدة التي ليست لها علاقة سياسية بموسى ، والـعلاقة كلها علاقة دِينية فقط بتكليف آلهي ، لتحقيـق الإيمان به في وجه وثنيات كثيرة كانت قائمة في المنطقة ، وبالتالي ينتهي الأمر الألهي بنهاية حياة داود وسليمان بحيث تكون الأمة مسؤولة عن عقـيدتها أمام الله وليس عن وقائعها الحربـية أمام رحبعام بن سليمان أو أمام يربعام بن نباط ولا عن عدوانها المتكرر على جيرانها الآمنين .

وهذه المسؤوليـة أمام الله هي التي انحرف عنـها اليهود حتى اكتـشفها أحد أحفاذ سليمـان (يوشياهو في عام ٦٢٢ ق.م.) ،ومن مظاهرهـا في معبدهم في القدس :

١ - أنهم أضاعوا الشريعة الموسوية ولم يعد هناك من يقبل على دراستها أو قراءتها .

٢ - أنهم وضعوا الأصنام الوثنية في داخل المعبد وسمحوا لكهنتها بممارسة الكفر لقاء ثمن قليل .

٣ - أنهم سمحوا للنساء باحتراف الدعارة في داخل الهيكل .

٤ - أن كهنتهم كانوا يسرقون الأموال من صندوق النذور الذي كان وقفًا على الهيكل .

واستناداً إلى هذه الانحرافات ،قام الملك يوشياهو بعملية تطهير أحرق فيها كل ما ينافي الأخلاق وعقيدة التوحيد ، ونثر رماده على قبور آبائه تعبيراً منه عن تحميل أولئك الملوك السابقين ، مسئولية هذا الفساد كاملة ،كل هذا موجود بتفاصيله في العهد القديم الذي تقرأه الصهيونية الآن وفي سفر الملوك الثاني بالتحديد .

فنحن إذن أمام دعوة دينية يبدأ تاريخها من قرب نهاية حكم داود وحتى نهاية حكم ابنه سليمان ، الذي بوفاته نشأت المعارضة بجانب القدس في إقليم السامرة وكانت لا تُقر بأي قدسية للقدس ، ومع ذلك في السنوات القليلة التي بقوا فيها هناك تركوا بعض قبور ملوك يهوذا وحائط المبكى .

وأمام هذه الظاهرة نجد أن مدينة القدس منذ ما قبل التاريخ ، وهي آهلة بالسكان ومعرفة الله فيها بالوثائق - ومنها التوراة اليهودية نفسها - ترجع على الأقل إلى عهد إبراهيم وملكي صادق الذي كان يصلي لله العلي قبل موسى بحوالي خمسمائة عام ، كما نجد أن اليهود قد اعتبروا فترة داود وسليمان رمزاً لمجد طائل ، في حين أهدروا ثلاثة آلاف عام عاشها العرب على أرض فلسطين .

وارتكازاً علـى ما قدمت ؛ فهدفي من هـذا البحث هو تجميع وتـركيز كل مايمكـن من معلومات عـن مدينة القدس العربية ثم الإسـلامية وتفنيـد مزاعم اليهود الباطلة تجاه المدينة المقدسة تلك المدينة التاريخية التي تعتبرمن أقدس المدن الإسلامية بـعد مدينتي مكـة المكرمة والمدينة المنـورة ، يقدسها المسلـمون على اختلاف مذاهـبهم وطوائفهـم . وقد خصّها الله بعقـيدة التوحيد لـلاله الواحد لأول مرة في تـاريخ البشريـة ، كما خصّها بـعدد كبير مـن الأنبياء « وما فـيها موضع شبر إلاّ وقدصلى فيه نبي أو قام فيه ملك » [1] .وقد شرفها الله بإسراء رسوله المصـطفى ﷺ ، فجاء في كتابـه العزيز ﴿ سبحان الذي أسـرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الـذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾ [2] .

وهكذا كان الإسلام هو المـرحلة الأخيرة من طريق طويل مـن النبوات إلى معرفة الله وبـصمات الإسلام في القدس كـثيرة ، فالدين الإسلامـي هو الدين الذي جعل الحـج ركنًا من أركانه ، ويهود الـعصور الوسطى عاشـوا في كنف المسلمين ورأوا احتفال المسلمين بموسم الحج حيث اندلعت الحروب الصليبية في هذا الوقت ، فرأوا استماتة المسلمين فـي القدس ، فأيقظ هذا عندهم الاهتمام بالمدينة المـقدسة ، ولقد كان الشتات اليـهودي في العصر المسيحي الـسابق على الإسلام شتات خوف مـن الاقتراب من القدس ، لأن الرومان كانـوا يسيطرون عليها ، فلـما دخلت ضمن ممتلكات المـسلمين أصبح حج اليهود إلـيها ميسوراً خاصة وأنهم كانوا متمركزين في المغرب والأندلس .

يضاف إلى ذلك أن الأدب العربي الذي ظهر فـي هذا العصر اتجه نحو مكة والمدينة ، فـكان مقابله عـند اليهود المغـرمين بتقليـد المسلمين هو الاتجـاه نحو القدس .

---

(١) معجم البلدان لياقوت ١ : ١٢ .

(٢) سورة الاسراء (١) .

وهكذا أسدل الستار على مسلسل الحقوق التاريخية المزيفة لليهود ، والتي تقوم على الدعوة الخاصة بالروابط التي تربط بين اليهود وفلسطين على أساس الوعد الالهي لبني إسرائيل في أرض كنعان ،فالصهيونيةالسياسية تقرأ التوراة بروح متعصبة ونزعة قومية عنصرية ، لتستخرج من نصوص التوراة ما تبرر به ادعاءاتها في إقامة الدولة الصهيونية على أرض فلسطين العربية . وحتى نُفنّد هذه الأكاذيب وجب علينا أن نتناول القدس كبقعة مقدسة قبل الوجود اليهودي في فلسطين من أول ملكي صادق - قبل داود بحوالي ألف سنة - وحتى العصور الوسطى وما تخللها من وجود طاريء لليهود في فترة حكم داود وسليمان كما أسلفنا .

ونرى من الواجب علينا في مستهل هذه الدراسة أن نشير إلى أن استيلاء اليهود القدماء على القدس من الفلسطينيين وتحويلها إلى قاعدة دينية لهم ، كان مقترنًا بعصبية عنصرية ودينية عملت على ألا يبقى في هذه المدينة إلا اليهود فقط ، وهي نفس السياسة التي اتبعتها الصهيونية في المدينة المقدسة في العصر الحديث . وعندما أصبحت القدس مسيحية قضت البطارقة والباباويات المختلفة على ألا يكون هناك أثر ديني يهودي ظاهر للعيان ، بينما افتتح الإمبراطور قسطنطين عصر تنصير القدس بملئها بالكنائس والأديرة .

أما الإسلام فعلى خلاف ذلك اعتبرها بالنسبة للشريعة الإسلامية القبلة الأولى وجعلها حرمًا مساويًا للحرمين الشريفين في الحجاز ، ولكنه مع ذلك وعلى مدى أربعة عشر قرنًا من الزمان لم يمنع المسيحيين ولا اليهود من أن يتلمسوا في هذه المدينة المقدسة طريقهم إلى الله .

كما لا يسعني في هذا المقام إلاّ أن أقدم شكري الخالص وتقديري العميق إلى أستاذي الدكتور حسن ظاظا على ما قدمه لي من النصح المخلص في مراحل البحث المبكرة وأثناء كتابته ، وقد أخذت ملاحظاته الصائبة عند اعدادي هذا البحث .

كما يقتضيني واجب العرفان أن أتقدم بالشكر والتقدير إلى الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الأنصاري عميد كلية الآداب الأسبق بجامعة الملك سعود على ما قدمه لي من عون وتشجيع طوال فترة كتابتي لهذا البحث ، ثم ما تفضل به من النظر فيه جملة وتفصيلاً بغاية الدقة والعناية بعد الفراغ منه .

وللأخوة الزملاء من الأساتذة والفنيين من قسم الآثار والمتاحف بكلية الآداب - جامعة الملك سعود كلمة إعزاز وتقدير ، لما أسهموا به من جهود مختلفة في سبيل إنجاز هذه الدراسة بهيئتها التي يجدها القارئ الآن بين يديه .

والله الموفق

د. سيد فرج راشد

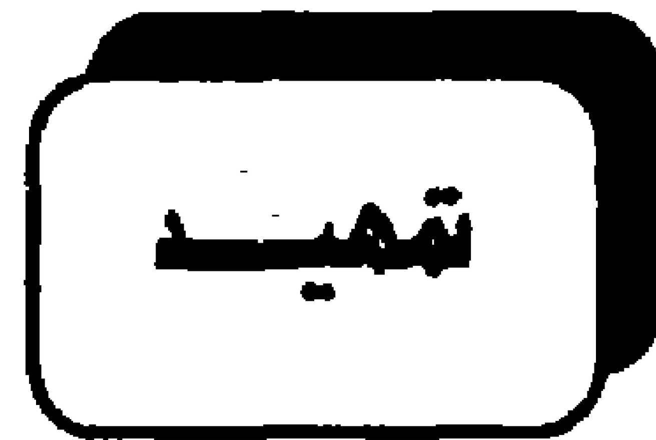
القاهرة العاشر من رمضان ١٤١٥

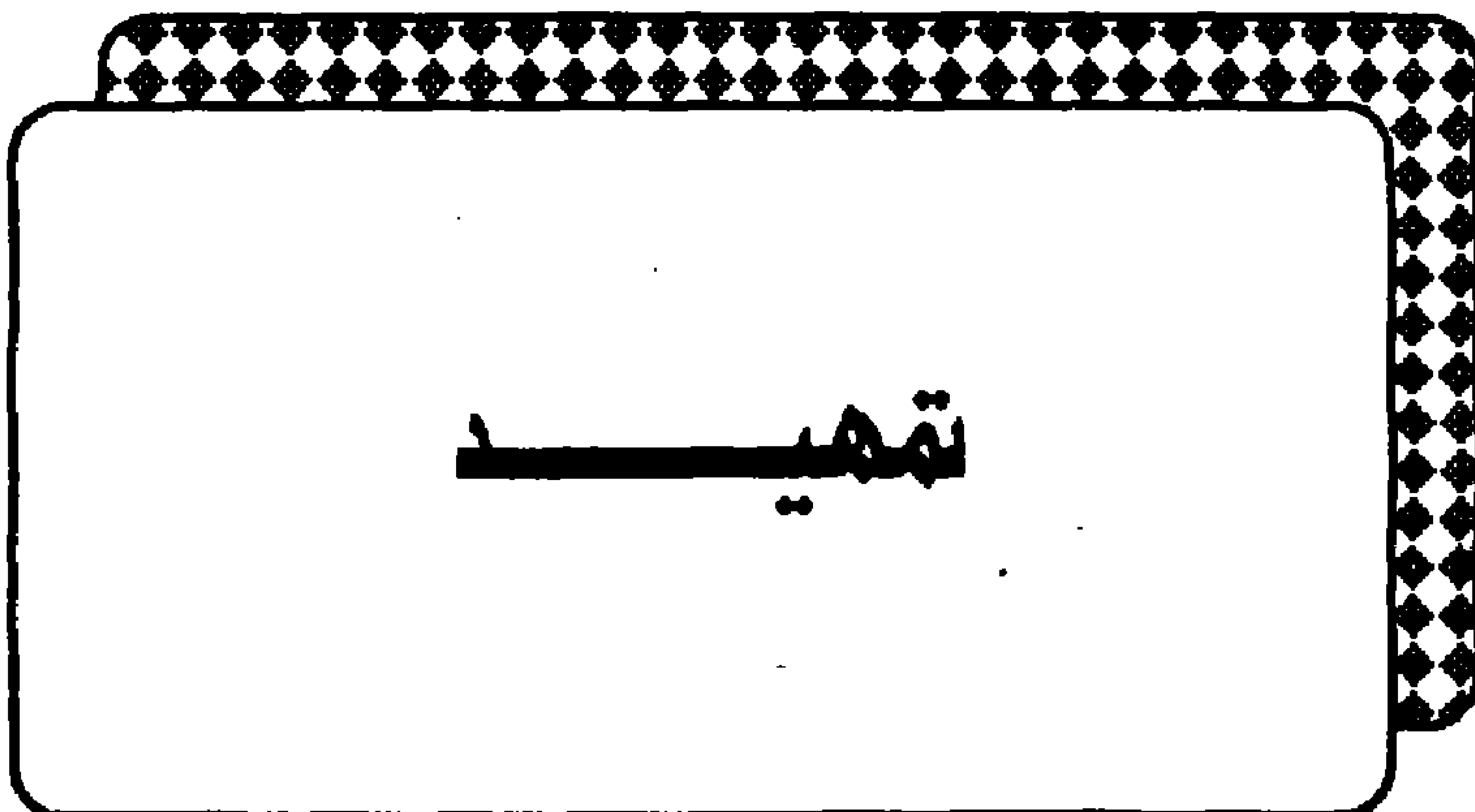
العاشر من فبراير ١٩٩٥

المختصـــرات

اتبعت طريقة اختصار بعض أسماء أسفار العهد القديم وأسفار المكابيين لكثرة الإشارة إليها في البحث وذلك على النحو التالي :

اسم السفر	الاختصار
التكوين	تك
يوشع	يش
صمويل الأول	١ صم
صمويل الثاني	٢ صم
الملوك الأول	١ ملك
الملوك الثاني	٢ ملك
أخبار الأيام الأولى	١ أخ
أخبار الأيام الثاني	٢ أخ
سفر المكابيين الأول	١ مكا
سفر المكابيين الثاني	٢ مكا


تمهيد


تمهيد

تمهيـــد

أولا : أسماء المدينة في مختلف أدوارها

ذكرت أول إشارة إلى مدينة القدس في النصوص المصرية السائدة منذ القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد ، وكان اسمها على الأرجح ينطق « روشاليمم » Rushalimum ووردت بعد ذلك في رسائل تل العمارنة (القرن ١٤ ق.م.) باسم « أوروسالم » كما جاء في رسالة وجهها « عبد يخيبا » حاكمها من قبل فرعون مصر أمينوفيس الثالث (١٤١١ - ١٣٧٥ ق.م.) ، يطلب فيها العون العسكري لصد هجمات أهل البادية « الحبيرو » .

وقد سميت « يبوس » نسبة إلى اليبوسيين ، وهم فرع من الكنعانيين سكنوا القدس وما حولها [(١)] ، وكانوا قد نزحوا إليها من قبل الجزيرة العربية حوالي ٣٠٠٠ ق.م.

وكان المصريون يطلقون عليها اسمها اليبوسي « يابيتي » و « يابتي » وأحيانًا يستخدمون اسمها الكنعاني « أوروسالم » ، ومن المحتمل أن صيغة هذه الكلمة آرامية تتركب من مقطعين : المقطع الأول « أور » بمعنى موضع أو مدينة ، والثاني « سالم » بمعنى السلام وهو غالباً اسم إله وثني لسكان فلسطين الأصليين وهو إله سلامة القوافل ، وعلى ذلك فكلمة « أوروسالم » تعني مدينة السلامة . وظل اسم « يبوس » علمًا على المدينة (قضاة ١٩ : ١٠) حتى استولى عليها داود ، وصار بعد ذلك اسمها « مدينة داود » (١ أخ ١١ : ٧ ، ٢ صم ٥ : ٩) .

---

(١) يشوع ١٥ : ٨ ، ٦٣ - قضاة ١ : ٢١ ، ١٩ : ١٠ .

ويبدو أن اسم يبوس الذي سميّ اليبوسيون باسمه هو أحد أولاد كنعان (راجع سفر التكوين ١٠ : ١٥) .

وقد وجد اليهـود بعد ذلك صعوبة في كـتابة اسمها « أوروسالم » بـاللغة العبرية فوردت في أسفار العهد القديم [١] ست مرات تحت اسم « يـروشاليم » ولكنها وردت بدون ياء ٦٥٦ مرة في هذه الأسفار أيضًا [٢] .

ثم نجـد اسـم القـدس واردًا في نقـوش الإمبراطـور الآشـوري سنحاريب (حوالـي ٧٠٠ ق.م.) تحت اسم « أوروسلـيمو » . وفـي عهد الاسكـندر الأكبر سماها اليونـان « هيروسوليما » ثم صار اسمها « إيليـا كابيتولينا » [٣] في عصر الامبراطور الروماني « إيليوس هدريان » بعد أن قضى على الكيان الديني لليـهود ، وفي أعقاب ذلك أصـدر مرسومًا يتضمـن أمرًا بقتل كل مـن يدخل القدس مـن اليهود ، وظـلت تعرف بهـذا الاسم « إيليـا » حتى أوائل الـفتح الإسلامي ، وسميت كذلك في العهد العمرية .

أما اسم « القدس » فقد عـرفت به المدينة منذ بداية تاريخهـا عندما أقيمت فيها أماكن مقدسـة للعبادة . ومـن الجـلي أن المؤرخ اليـوناني « هـيرودوت » (٤٨٤ - ٤٢٥ ق.م.) لم يذكر اسم أورشـليم ولكنه ذكر كلـمة « قديتس » مرتين ،وقد حاول بعض الباحثين الوصول إلى تفسير العلاقة بين القدس وكلمة « قديتس » ، فجاء التفسير لافتًا للنظـر ، فاسم القدس محرف من اليونانية عن النطـق الآرامي « قديشتا » وممـا يثير في النـفس ريبة أن اليـهود أطلقوا علـيها أحيانًا اسم « مدينة القدس » (إشعيا ٤٨ :٢ ، نحميا ١١ : ١) .

---

(١) هو الكتاب المقدس لليهود ويشتمل على تاريخهم القومي والديني الذي جُمع خلال فترة طويلة (حوالي ١٠٠٠ سنة) ، وكان غرضهم من تصنيفه دينيًا أكثـر منه أدبيًا . والعهد القديم في صورته التي وصل إلينا بـها يحتوي علـى ثلاثة أقسام رئيـسية هي « التوراة » و « أسـفار الأنبياء » و « كتـب الحكمة » .
Ency Judaica : Vol. 9. Jerusalem

(٢) راجع حيث يذكر أن « يروشاليم » وردت بالياء خمس مرات على النحو التالي :
استير ٢ : ٦ ، إرميا ٢٦ : ١٨ ، أخبار الأيام الأولى ٣ : ٥ ، ٣٢ : ٩ أخبار الأيام الثاني ٢٥ : ١ .

(٣) « إيليا » هو الاسم الأول للإمبراطور الروماني هدريان والكابيتول هو اسم معبد جُبْتر الكبير .

أما « بيت المـقدس » فقد أطلق علـى المدينة بدءًا من العـصر الإسلامي ، ومن أسمائـها « الزيتون » وفي ذلك نـزلت الآية الكريمة « والتـين والزيتون ، وطور ، وهذاالبلـد الأمين » . قال ابن عساكر عن ابن عـباس « إن التين بلاد الشام والـزيتون في بلاد المـقـدس ، وطـور هـو الجبل الذي كلـم الله موسى عليه ، وهذا البلد الأمين هو مكة المكرمة » .

ومؤدى هـذا كله أن مديـنة القـدس كانت تحمـل أورشليـم وهي الصيـغة العربـية لاسم أوروسالـم الآرامي ، قبل غزو الإسـرائيليـين لها ، وهذا يـظهر بوضوح في رسائل تل الـعمارنة ، كما كانت تحتل مكانة بـارزة في التاريخ قبل الوجود اليهودي فيها .

ثانيا : جغرافية القدس

تـتمتع مـدينة الـقدس بموقـع استراتـيجي مـتميـز ، فهي تـقع علـى خط عرض٣١° ١٣/ ٤٥" شمال خط الاستـواء ، وعلى خط طول ٣٥° ١٣/ ٢٥" شرق جرينتش ، عـلى هضبة غيرمستوية يتـراوح ارتفاعها بين ٢١٣٠ - ٢٤٦٩ قدمًا .

ومتوسط ارتفاع المدينة فوق سطح الـبحر الأبيض المتوسط من اتجاه الغرب ٢٥٠٠ قدم ، ٣٨٠٠ قدم من سطح البحر الميـت من اتجاه الشرق . وهي تبعد ٣٢ ميلاً عن البحـر الأبيض المتوسط غربًا ، وحوالي ١٨ ميلاً عـن البحرالميت شرقًا و ١٩ ميلاً عن الخليل (حبرون) جنوبًا و ٣٠ ميلاً عن السامرة شمالاً ، وتتميز المدينة بطقسها القاري الصحراوي .

وقد اعتبرت المدينة منذ القدم موقعًا استـراتيجيًا قويًا وهامًا ، بسبب مناعتها الطبيعيـة حيث أنها محمية من الغزو ، فـهي تقع على هضبة مرتفعـة يحيط بها من جميع أطرافها أودية عميقة ، وادي « قدرون » في الشرق ووادي « هنّم »

في الغرب ويلتقي الواديان عند الطرف الجنوبـي تاركين الجهة الشمالية فقط بغير حماية طبيعية .

وادي قدرون (الوادي الشرقي)

يبدأ هذا الوادي من الشـمال الشرقي للمدينة على بـعد ميل ونصف ، ثم يسير أولاً نحو الشرق حتى يصل إلى الزاوية الشمالية الشرقية لسور المدينة ، ثم ينحرف بميل حاد نحو الجنوب - وهو يفصل بين سور المدينة الشرقي وبين جبل الزيتون وجبل بطـن الهوا - حتى يلتقي بوادي هنّم المنـحدر من جهة الغرب ، ويبلغ طول وادي قدرون نحو كيلومترين وهو عميق سريع الانحدار . وقدرون هو اسم جدول الماء الـذي يجري في قاعه عندمـا يسقط المطر ، كما أنـه اشتهر كذلـك باسم « يهـوشافاط » وثمـة اعتقاد لـدى كثيـر من الطوائـف المسيحـية واليهودية أن الحـشر يوم القيامة سيصـبح في هذا الوادي [١] . وقد ورد ذكـر وادي قدرون في أخبار الملك داود حيث عبـره لما هرب من وجه ابنه إبشالوم ، وكذلك مرّ به السيد المسيح [٢] .

وادي سلون (الوادي الغربي)

وهـو اسـم النبـع الموجـود فـي هـذا الوادي ، وكذلك عرف باسـم وادي « هنَّم » أو وادي « بني هنّم » ، وهـنَّم اسم قبيلة كان يسمى بـها الوادي قبل الوجود الـعبري هناك . وقـد عرفت كلمـة الوادي في بعـض اللغات السـامية القـديمة باسـم « جي » ،. فكـان يقال « جِهَيـنَّم » أي وادي هنَّم [٣] هذا ويمتد وادي هنّم حتى يتصل بالطرف الشرقي من جبل صهيون .

---

(١) د. حسن ظاظا ، إسرائيل ركيزة للاستعمار بين المسلمين ، ص ٨٦ .

سفر يوئيل ٣ : ٢ ، ١٢ .

(٢) ٢ صم ١٥ : ٢٣ ، العهد الجديد يوحنا ١٨ : ١ .

(٣) وكانت قبيلة هنّم تقدم ضـحاياها من البشر (القبيلة كانت ذات وثنية متطـرفة) إلى الهها « مولك » بعد ذبحها وإلقائها في النار ولذلك يقال اسم « جهنّم على مكان العذاب في الآخرة » (٢ ملك ٢٣ : ١٠).

راجع ظاظا : اسرائيل ركيزة للاستعمار - ص ٨٦ - ٨٧ .

وادي الجبانة او التيروبيون

يمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الغربي حتى يتصل بوادي سلوان الذي يتصل بدوره بوادي قدرون شرقًا ، وبذلك يقسم أرض مدينة القدس قسمين مكونين من هضبتين مستطيلتين ، الهضبة الغربية يحدها وادي هنوم من الغرب ، والهضبة الشرقية يحدها وادي قدرون من الشرق ، ويسمى وادي الجبانة في الجزء الجنوبي الغربي من القدس وادي « الزبالة » أو وادي «الدمن» أو وادي « القمامات » ، وقد ردم جزء منه في أعمال توسيع لجبل صهيون وللحرم المقدس الواقع على جبل الموريا الذي هو هضبة الحرم الشريف .

وادي الارواح (يوشع ١٥ : ٨)

واشتهر أيضًا باسم وادي العفاريت ويلتف حول جبل صهيون من الغرب وحتى أقصى الجنوب وتوجد به مدافن الموتى .

واهم جبال القدس

١ - جبل الزيتون

ويسميه العرب « جبل الطور » ، وتقع أسوار الحرم في مواجهة الجبل من الجهة الشرقية ، ويفصله عنها وادي قدرون .واشتهر عند اليهود باسم « جبل المسح » أى جبل التتويج ، لأنهم كانوا يستخلصون من زيتونه الزيت المقدس المستخدم في تتويج ملوكهم .

٢- جبل بطن الهوا

ويعتبر امتداداً لجبل الزيتون من الجنوب الشرقي للقدس ويفصله عنها وادي سلوان المتصل بوادي قدرون من نفس النقطة والاتجاه ، واشتهر عند اليهود بالجبل الفاضح ، ويزعمون أن المعابد الوثنية لنساء سليمان الأجنبيات قد أقيمت عليه وذلك حسب ما ورد في سفر الملوك الأول ١١ : ١-٨ .

٣ - جبل صهيون

ويقع في الزاوية الجنوبية الغربية للقدس القديمة وكانت عليه قلعة اليبوسيين التي سميت باسم « مدينة داود » ، وذلك بعد استيلائه عليها حيث أقام قاعدة عسكرية لحكمه هناك . وكان جبل « أكرا » - الأقل ارتفاعًا - يمتد على شكل هلال منحنيًا إلى الشمال الشرقي لصهيون ليفصل بين جبل صهيون وهضبة القدس .

٤ - جبل بيت المقدس

وقد اشتهر باسم « هضبة الحرم » حيث المسجد الأقصى ، ولكنه عرف عند اليهود باسم جبل « الموريا » (تك ٢٢ : ٢) .

٥ - جبل راس المشارف (او سكوبوس)

ويعرف عند اليهود باسم جبل المراقبين وهو امتداد طبيعي لجبل الزيتون من الشمال الشرقي وحتى الشمال ويفصل بينهما منخفض يسمى «عقبة الصوان» .

وعلى هذا الشكل تقوم مدينة القدس على مرتفعين اثنين هما : هضبة الحرم وفي مواجهتها في الجنوب الشرقي « جبل صهيون » ويفصل بينهما وادي الجبانة .

يختلف المؤرخون في أمر بناء المدن ، ولذلك نجد أن موقع المدينة لا يتم اختياره بمحض الصدفة ، بل يكون على عدة أسس : أهمها وجود موارد كافية للمياه ، كما أن موقعها ينبغي أن يكون حصينًا بحيث يضمن حمايتها ضد أية قوى معادية ، وينبغي أن يكون الموقع ذا استراتيجية خاصة تسهّل للمدينة الحركة والتجارة مع جيرانها ، ولذلك كان من الضروري أن نتعرف على الطرق الرئيسية والفرعية التي تربط القدس بالمدن الهامة في فلسطين . وإذا رجعنا إلى المدن القديمة نجد أنها فرضت نفسها على جغرافية المنطقة ، وإن كانت قد

حدثت بعض التغييرات الطفيفة ، إلا أن هذا لم يؤثر على اتجاهات الطرق الرئيسية .

الطرق الرئيسية التي تربط مدن فلسطين

أولاً – الطريق الساحلي : كان يبدأ من مصر ويمتد على ساحل البحر الأبيض ويستمر حتى صور وصيدا ماراً بخان يونس وغزة ويافا وعكا .

ثانيًا – الطريق الأوسط : كان يمتد من بئر سبع حتى القدس والتي كانت محطة مواصلات دولية في الشرق القديم ، بمعنى أن الطرق كانت تؤدي إليها والتي تخرج منها كثيرة أهمها :

أ – طريق القدس – يافا: وهو طريق وعر يمر بمناطق جبلية حتى يصل السهل الساحلي ، ويبلغ طوله حوالي سبعة وستين كيلو متراً ، ويبدأ هذا الطريق من غرب القدس – من الباب الغربي للقدس والمسمى باب يافا – ويستمر على هضبة القدس نفسها ثم يعبر دير ياسين وأبو غوسن ثم الرملة ، ويبدأ الطريق في الانحدار من أبو غوسن إلى الرملة ، ويطلق على الطريق من جهة الرملة حتى السهل الساحلي اسم باب الوادي .

ب– طريق القدس – حيفا : يمر برام الله ونابلس (شكيم) وجنين ثم حيفا .

ج – طريق القدس – الجليل (أو طبرية) : يمر برام الله ونابلس (شكيم) وقلقيلية وطول كرم والسامرة (سبسطية) والعفولة ثم الجليل .

ثالثًا – بقية الطرق الرئيسية في فلسطين :

أ – طريق السامرة – شرق الأردن : ويمر جنوب بحيرة طبرية متجهًا إلى مدينة إربد شمال الأردن ، ثم يستمر في اتجاه دمشق وحلب .

ب– طريق السامرة – صور الساحلي : كانت السامرة ترتبط بالطريق الساحلي– الذي يبدأ من مصر حتى صور – شمال ميناء حيفا ، وعلى هذا فطريق السامرة – صور الساحلي يمر بالكرمل وحيفا وعكا ثم صور .

ج - طريق السامرة - الجلجال : وهو طريق مباشر يمر بجنين والعفولة ثم الناصرة .

د - طريق السامرة - شكيم : يمر بالجلجال وجنين ثم العفولة .

هـ - طريق السامرة - الأردن : يمر بمخاضة الينبوق [1] (على الضفة الغربية للأردن) .

ثالثا : المقدسات الإسلامية في القدس

ليس بغريب أن يفكر المسلمون في فتح « بيت المقدس » ، وهو البيت الذي ورد ذكره في القرآن الكريم وعلى لسان النبي ﷺ وفي أحاديث الصحابة .

إن ثمة حديثًا قدسيًا عن سيدنا رسول الله ﷺ يوضح للمسلمين مكانة القدس عن الله تعالى بقوله (أنت جنتي وقدسي ، وصفوتي من بلادي ، ومن سكنك فبرحمة مني ، ومن خرج منك فبسخط مني عليه) .

ومؤدى هذا الحديث القدسي أننا نستطيع أن نقول إن الله تعالى اختص بسكنى هذا المكان الطاهر من يرضي أمانته واستحقاقه لشرف العيش فيه ، وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن ينزل فيه سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ،وأن يجعل من ذريته كل الأنبياء ، فاختص الله تعالى بيته العتيق ، وهو أول بيت وضع للناس في مكة المكرمة بالرسالة الخاتمة ، حيث أقام فيه سيدنا إسماعيل أول أبناء سيدنا إبراهيم بذريته من العرب ، وفيه وحوله قامت الرسالة الخاتمة للأديان جميعًا بنزول القرآن الكريم على المصطفى عليه الصلاة والسلام .

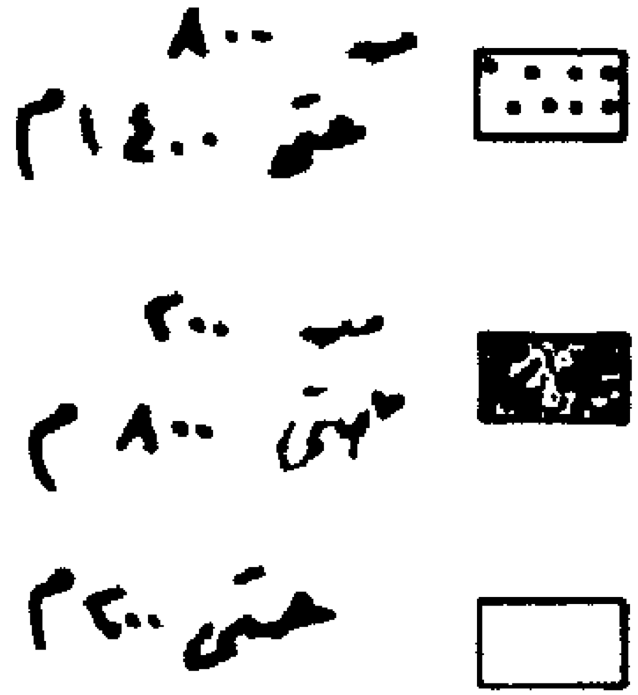
---

(١) D. Baly : Geographical companion to the Bible, p. 152.

راجع الأطلس العربي طبعة ١٩٦٥صفحات ٣٢ ، ٣٣ .

قسطنطين خمار : موسوعة فلسطين الجغرافية ، صفحات ١٧٣ - ١٨٣ .

لوحة رقم (١)

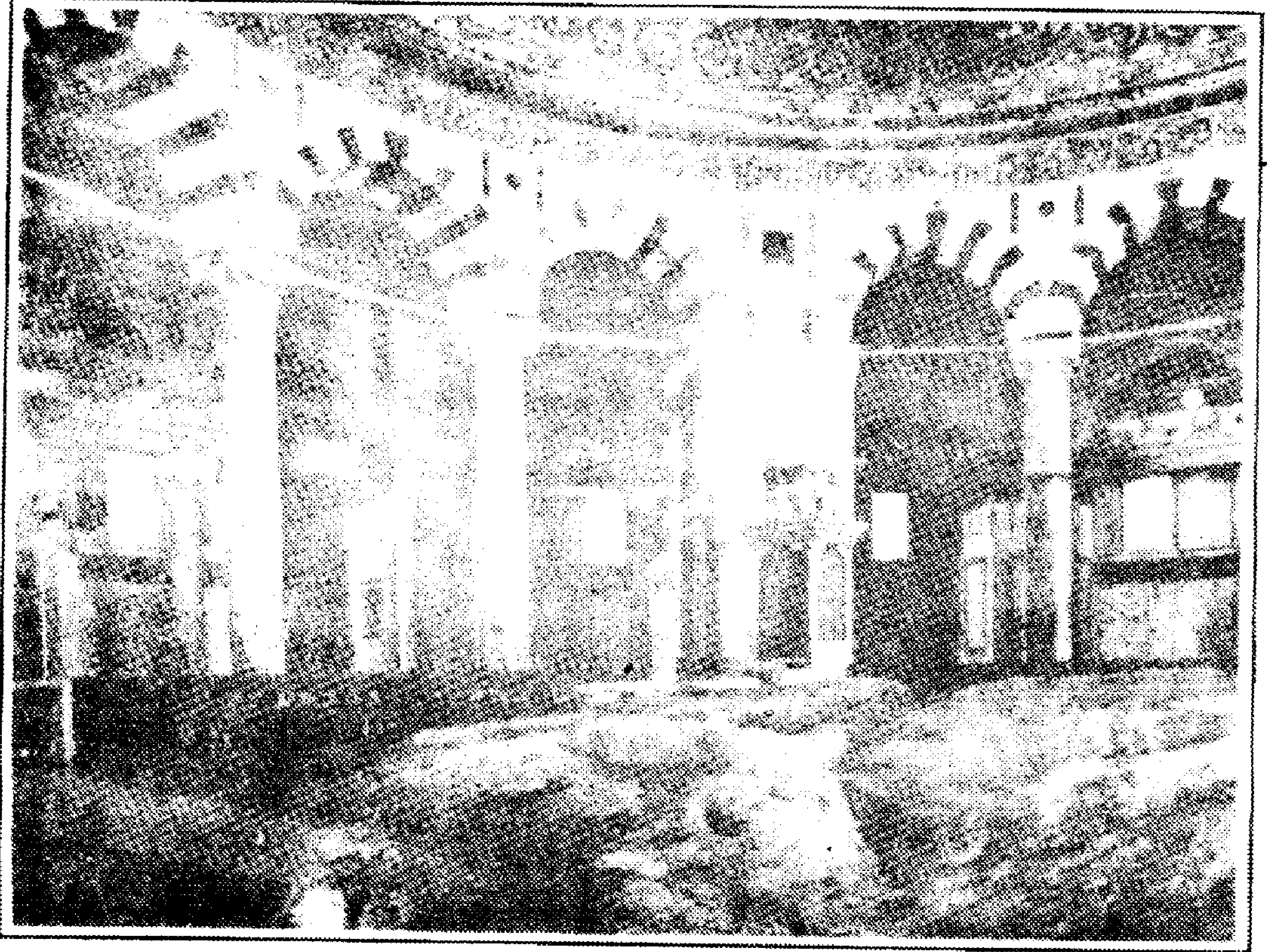

تضاريس فلسطين
من ٨٠٠ حتى ١٤٠٠م
من ٣٠٠ حتى ٨٠٠ م
حتى ٣٠٠م
الجليل الأعلى
الجليل الأسفل
البحر الأبيض المتوسط
مرج ابن عامر
فلسطين

ونحن إذ نتمعن مطلع سورة الإسراء بقول الله تعالى: ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير ﴾ ندرك أن الإسراء كان من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وأنه كان في القدس من قديم الأزل بقعة مطهرة يعبد فيها الله تعالى ، ذلك هو المسجد الأقصى الأول ، أو ما يسمونه بالمسجد الأقصى القديم ، وهذه البقعة الطاهرة صلى فيها سيدنا إبراهيم مع « ملكي صادق » الذي كان أميرًا دينيًا - من أصل عربي - للمدينة ، وهذه القصة هي أصل نسبة المسجد الأقصى إلى سيدنا إبراهيم لأنه سجد فيه - وهو بقعة مطهرة - لله العلي ، أي قبل الوجود اليهودي بحوالي سبعمائة سنة .

وهكذا تجسدت قدسية القدس في إسراء سيدنا محمد ﷺ إلى الصخرة المقدسة ، وبها مصلى الأنبياء والرسل حيث صلى رسولنا بهم إمامًا ، ومنها عرج إلى السماوات العلا ، ثم عاد إلى القدس ومنها إلى مكة المكرمة .

وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع على الأرض ، فقال : المسجد الحرام . قلت ثم أي ؟ قال المسجد الأقصى ، قلت : وكم بينهما ؟ قال : أربعون عامًا .

فالقدس إذن بأنبيائها ورسلها وعبادها تنتمي إلى الإسلام من قديم الحقب. ومن الجدير بالملاحظة أن نذكر أن المسلمين بعد أن هزموا الروم في معركة اليرموك وفتحواالشام ، توجه أبو عبيدة بن الجراح إلى فلسطين وحاصر مدينة إيليا (القدس) فترة أربعة أشهر ، وتم تسليمها في السنة الخامسة عشرة من الهجرة (٦٣٦ ميلادية) في حضور الخليفة عمر بن الخطاب ففتحت له أبوابها ، وعندما دخلها أمّن أهلها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وأعطاهم عهدًا بذلك ، وكتبت لهم وثيقة الأمان التالية وقد عرفت بالعهدة العمرية : [1]



صورة للصخرة المقدسة داخل مسجد قبة الصخرة

بسم الله الرحمن الرحيم

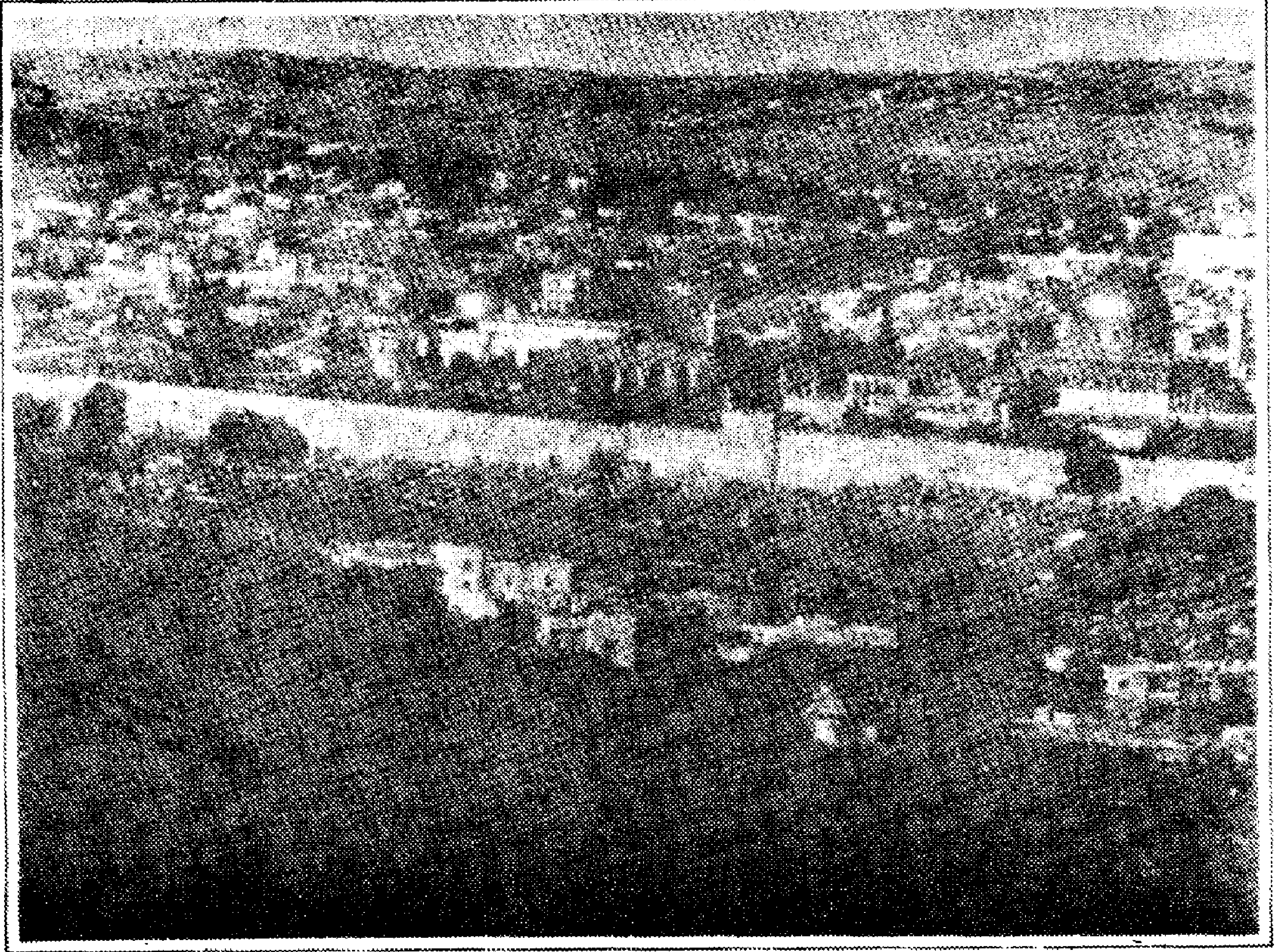
هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان .

أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم . سقيمها وبريئها وسائر ملتها . أنه لاتُسكن كنائسهم ، ولا تُهدم ، ولا يُنتقص منها ولا من خيرها ، ولا من صلبهم ، ولا من شيء من أموالهم . ولا يُكرهون على دينهم ، ولايُضار أحد منهم . ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما تعطي أهل المدائن . وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص . فمن خرج منهم فهو آمن ، وعليه مثلما على أهل إيلياء من الجزية . ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم . فمن شاء منهم قعد ، وعليهم مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصدوا حصادهم .

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء المؤمنين إذا أعطوا الذين عليهم من الجزية .

شهد على ذلك خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان . كُتب سنة خمس عشرة هجرية .

ولما زار عمر بن الخطاب كنيسة القيامة استقبله هناك بطريرك النصارى صفرونيوس ، وصادف أن حان وقت الصلاة ، وهو يزور الكنيسة فأشار عليه البطريرك أن يصلي حيث هو فأبى ذلك خشية أن يتخذها المسلمون فيما بعد حجة يتذرعون بها للمطالبة بحق في الكنيسة ، ويقال أنه أمسك بحجر ورماه بالقدر الذي سمحت له به قوته وصلى في المكان الذي رمى فيه الحجر ، وهو المكان الذي يقوم عليه الجامع المعروف باسمه الآن وهو على بعد خطوات من كنيسة القيامة .

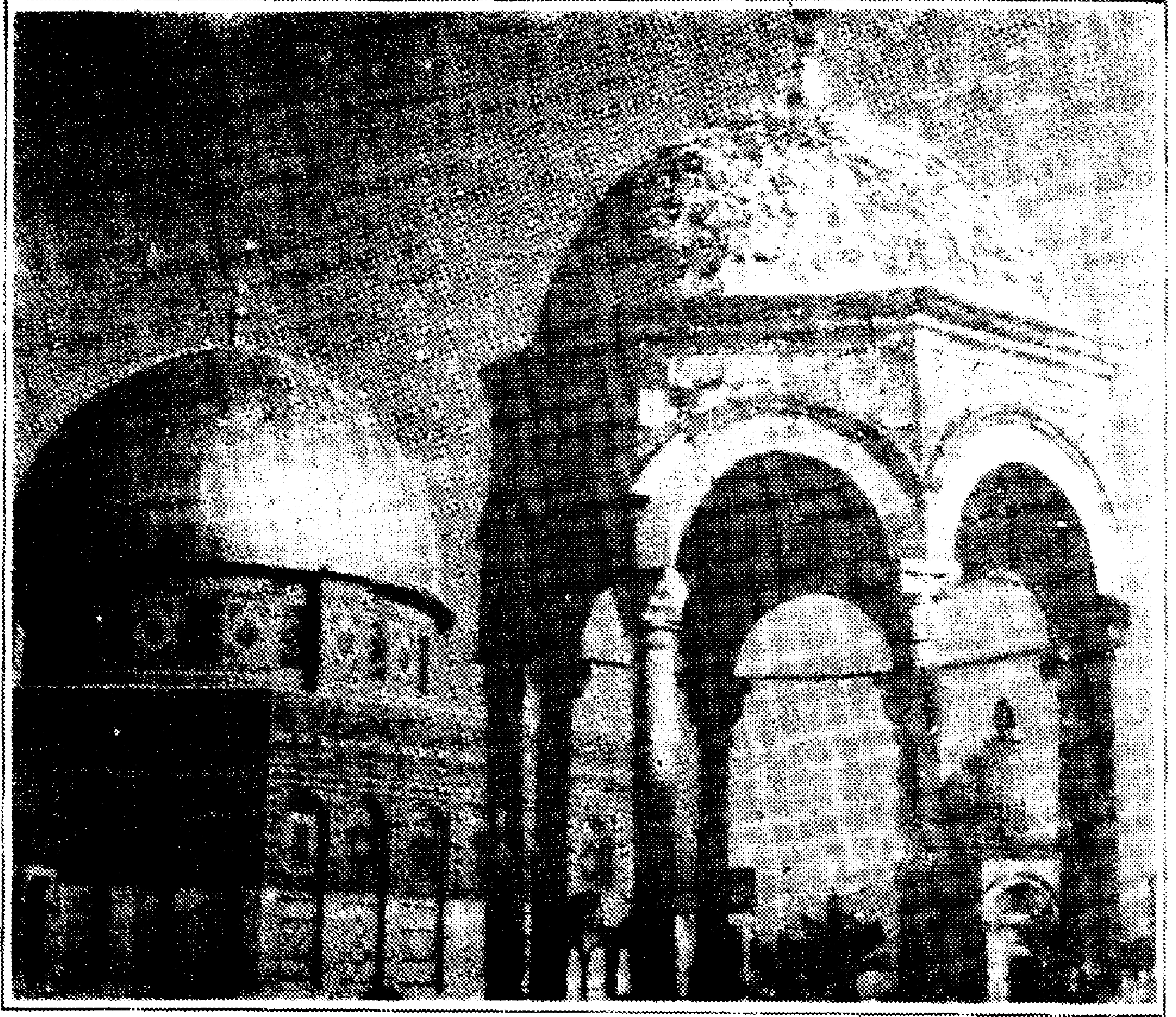


صورة من فوق جبل سكوبوس توضح الأوضاع النسبية لمسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى.

ولم يجرؤ اليهود طوال أيام الخلفاء الراشدين على الإقامة في القدس ، ولما جاء الأمويون أولوا القدس اهتمامهم ، وبنى الخليفة عبد الملك بن مروان مسجد قبة الصخرة المشرفة عام اثنين وسبعين هجرية (٦٩١م) ورصد لبنائه خراج مصر لسبع سنوات كاملة ، ويقع مسجد قبة الصخرة وسط فناء واسع على أرض الحرم ، ويتميز مبناه بقبة هي من أهم المعالم البارزة لمدينة القدس حيث يبلغ ارتفاعها ثلاثين متراً وتتكون من جزئين ، العلوي منها مغطى برقائق الرصاص الذي لا يتغير لونه مع الزمن ، وقد تم تجديده بصفائح الألومنيوم المذهبة بعد أن تعرض للقصف اليهودي الأعمى أيام حرب عام ١٩٤٨م ، أما الجزء السفلي فقد كسي برقائق الرخام الأبيض البديع وفوقه مربعات من القيشاني الأزرق ، وقد كتبت عليه سورة (يس) باللون الأبيض ، وكان السلطان سليمان القانوني قد أمر بتركيبه عام ١٥٦١م .

وتعتبر قبة الصخرة المشرفة أقدم نموذج فريد لفن العمارة الإسلامية وفي طليعة الأعمال الفنية العالمية ، واجماع علماء الآثار وفن العمارة شاهد على صدق هذا الذي نقوله ، فجانب كبير من الفن العربي الإسلامي يتميز به جامع قبة الصخرة فهو مثمن الشكل ، يبلغ طول كل ضلع فيه عشرون متراً وارتفاعه عشرة أمتار وترتفع القبة فوق البناء عشرين متراً ويعلوها هلال طوله أربعة أمتار ، وللمسجد أربعة أبواب مزدوجة ويقوم المسجد على ستة عشر عموداً رخاميًا مختلفة الألوان بالإضافة إلى ثماني دعائم مكسوة بالرخام المعرق ويعلو هذه الدعائم والأعمدة زخارف بأنواع الفسيفساء المختلفة .

وتحت هذه القبة تقوم الصخرة المقدسة التي يتراوح ارتفاعها عن الأرض ما بين متر ومترين ، وشكلها غيرمنتظم وطولها حوالي ثمانية عشر متراً وعرضها نحو ثلاثة عشر متراً وهي محاطة بسياج من الخشب المنقوش ، ومن قمة هذه الصخرة المشرفة عرج سيدنا محمد ﷺ إلى السماء .



صورة لمسجد قبة الصخرة من خلال قبة الأرواح وإلى اليمين قبة الخليلي وإلى اليسار قبة جبريل الصغيرة المواجهة لقبة الصخرة.

وروي عنه ﷺ أنه قال : « صليت ليلة أسري بي إلى بيت المقدس عن يمين الصخرة » وروي عنه أيضًا أنه قال : « صخرة بيت المقدس من صخور الجنة » ، أما المسجد الأقصى فإنه يقع في الجهة الجنوبية من هضبة الحرم الشريف ،ويطلق اسم الحرم الشريف على المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة المشرفة وماحولها من مساحات ومنشآت ، ومنطقة الحرم الشريف محاطة بسور كبير . وللحرم الشريف أحد عشر بابًا هى : باب الأنبياء ، باب الناظر ، باب المطهرة ، باب السلسلة ، باب المغاربة ، باب الأسباط، باب حطة ، باب الغوانمة ، بالإضافة إلى ثلاثة أبواب مغلقة هي: باب الرحمة ، وباب التوبة ، وباب البراق .

وقد شرع في بناء المسجد الأقصى الخليفة عبد الملك بن مروان عام ٧٤ هـ (٦٩٣م) وأكمله ابنه الوليد بن عبد الملك عام ٨٦ هـ (٧٠٥م) . ويبلغ طول المسجد ثمانين مترًا وعرضه خمسة وخمسين مترًا ، ويقوم على ثلاثة وخمسين عمودًا من الرخام وتسع وأربعين دعامة مربعة . وفي داخله عند الزاوية الجنوبية الشرقية يقع مسجد « عمر » الذي أشرنا إليه . وأمام المسجد الأقصى رواق كبير مؤلف من سبع عقود وللحرم القدسي أربع مآذن هي: مئذنة باب المغاربة ، ومئذنة باب العمود ، ومئذنة باب السلسلة ، ومئذنة باب الأسباط وفي خارجه إحدى عشر مئذنة أخرى.

ومن المعالم البارزة لمدينة القدس الكثرة الغالبة من المساجد ، فيوجد بها ستة وثلاثون مسجدًا بالإضافة إلى المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة المشرفة .

ومن الثابت تاريخيًا أن القدس كانت تتمتع بمكانة ممتازة بين مدن العالم لما لها من القدسية والاحترام في نظر أصحاب الديانات السماوية ، وهي معروفة منذ أقدم عهود التاريخ ، ولقد شهدت كثيرًا من المعارك التاريخية وتوالى عليها

الغزاة والفاتحون تارة يحاصرونها ويدكون أسوارها وتارة يفتحونها ويؤمنونها . ومن ذلك أن تيتوس الروماني دمر الهيكل عام ٧٠م وقتل عدداً كبيراً من بقايا اليهود ، وهكذا قضى على الكيان الذاتي لبقايا اليهود في فلسطين .وعندما تولى الإمبراطور الروماني إيليوس هدريان عرش الرومان ، صمم القضاء على بقايا العقيدة اليهودية نهائيًا ودمر المدينة وبقايا الهيكل تدميرًا كاملاً ، وشيد مدينة « إيليا كابيتولينا » على أنقاضها وأقام معبداً لجوبتر كبير آلهة الرومان ، وأصبح اسم المدينة إيليا حتى الفتح الاسلامي لفلسطين ثم صار اسمها بيت المقدس .

ومؤدى هذا كله أن صلة اليهود بالقدس صلة مؤقتة جاءت وليدة غزوة طارئة لايترتب عليها أية حقوق قومية ، ونحن أمام هذه الظاهرة سوف نسرد تاريخ اليهود من قديم الحقب لنثبت أنهم عنصر طارئ على المنطقة ، وأن فلسطين كانت قبل الوجود اليهودي وبعده هي فلسطين وأنهم لم يمثلوا إلاّ مرحلة قصيرة جداً كانوا في معظمها إما تابعين لمصر أو لآشور وبابل ، ولولا هذا ما كان لهم وجود .

صلة العرب القديمة بفلسطين

وبعد تعريفنا الموجز بالقدس ومقدساتها الإسلامية نسارع إلى قدسنا العربية - مع حرصنا الشديد على استخدام « العربية » - حتى لا يتبادر إلى البعض أن صلة العرب بالقدس تبدأ بالإسلام ، وواقع الأمر غير ذلك بالمرة ، وحتى ننفي نفيًا قاطعًا هذا الرأي الذي انتشر على أيدي بعض المستشرقين ، سوف نتتبع التاريخ العربي في إقليم فلسطين وذلك قبل أن نسرد المرحلة القصيرة من الوجود اليهودي الطارىء في فلسطين .

إن صلة العرب بفلسطين قديمة جداً ، فقد ورد ذكرهم في الكتابات المسمارية القديمة ، ففي أوائل الألف الثاني قبل الميلاد عثر على نقش لأحد

ملوك بـابل وهو « نرام سين » يـشير إلى بطـولاته ، وورد فيه ما نـصه « نرام سين ، الملك القوي المسيطر علـى الأقاليم الأربعة . . . أخضع بلاد « مجان » وأخذ « مـانيوم » أمـير « مجـان » أسيراً » . ويرى فـريتز هـومل عالـم الآثار الألماني أن « مجان » ربما كـان تحريفًا لاسم إقليم « معين » في الـيمن ، ولكن عالم اللغويات الدكتور حسن ظاظا يرى أنه من المحتمل أن تكون لفظة «مجان» هي في الأصل « معان » فـي أقصى الشمال من الحجاز شرقي خلـيج العقبة ، ولم يعتمد في تحـليله هذا على قرب هذا المكان من الـعراق ، ولكن على اسم هذا الأمير (مانيوم) الذي كان يحكم الإقليم « مجان » - الذي يبدو أنه نطق آشوري للاسم العربـي « معن » بالضم والتنوين - وهو اسـم شائع في أسماء عرب الشمال نادر في الجنـوب ، لا نجده فيما نعلم في النقوش اليمـنية ، بينما يقابـلنا بكثـرة في الشعر الـعربي الجاهلي وفـي بعض النـقوش الصفويـة في الشمال (١) .

كما ورد ذكر العرب فـي العهد القديم - كتاب اليهـود المقدس - حيث نجد كثيراً من النصوص التي تشير إلى الوجود العربي في شمال الجزيرة العربية وفي فلسـطين على وجـه الخصوص ، وأولئـك العرب هم الـذين فرضوا عـلى كل الجزيرة فأصبح اسمهم عـلمًا عليهاوعلى لغتها وسكانها ، ولـقد كانت اللهجات قديمًا تنسب إلى إقليمها أو إلى أكبـر قبائلها ، ولـم تكن لفظة « عَرَبْ أو عُرْب » تدل على مدلولها المتعارف الآن بل كانت تطلق على نوع خاص من القبائل التي تسكن البـادية ، وهي من النوع المتنقـل الذي لايستقر في مكان واحـد بل يتبع مساقط الغيث ، ففي معاجمنا العربية نجـد لفظة « تَعرَّب» مستخدمة للتعبير عن الإقامة في البادية ، ومن هنا كانت لفظة « عرب » تعني الجفاف والصحراء .

---

(١) د. حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم . ص ١٢٦ .

ويرد ذكر العرب في العهد القديم في أكثر من موضع ، ففي سفر إرميا ٢٥ : ٢٠ « وكل اللفيف وكل أرض عوص وكل ملوك أرض فلسطين . . . » وإرميا ٢٥ : ٢٤ « وكل ملوك العرب وكل ملوك اللفيف الساكنين في البرية . . . » ، ويبدو ذلك واضحًا عندما يخاطب النبي حزقيال مملكة صور الفينيقية ما نصه « العرب وجميع رؤساء قيدار يتجرون معك في الضأن والكباش. . . وبالذهب أقاموا أسواقك » (حزقيال ٢٧ : ٢١ - ٢٢) . وهذا يدل على أن العرب كانت لهم تجارة مزدهرة في هذا التاريخ المبكر .

ومما يجدر ذكره أن بعض النصوص في اللغتين البابلية الآشورية والعبرية تشير إلى استخدام لفظة « عرب » كمدلول جغرافي لإقليم بعينه في منطقة فلسطين ، وورد في سفر إشعيا ٢١ : ١٣ مانصه « في غابة بإقليم عرب تنامون ياقوافل الدادانيين ». ونرى أن استخدام اللغةالعبرية للفظة « عرب » لا ينصرف إلى سائر بلاد العرب أو كل سكانها ولغاتهم وآدابهم ، لأن هذه المعاني لم تكن تدل على مدلولها المتعارف عليه الآن ، بل كانت تطلق على نوع خاص من القبائل يسكن البادية . وهذا ما أثبته العالم « الفريد ارميا » في كتابه « العهد القديم في ضوء الشرق القديم » ، بأن لفظة « عرب » في النصوص العبرية تدل على بعض أجزاء فلسطين وبخاصة الجزء الجنوبي منها والمعروف أحيانًا باسم « يهوذا » والذي كان آهلاً بالعرب (١) .

وكذلك نجد أن صحراء مؤاب تسمى بالعبرية « عربوت مؤاب » بمعنى بادية الأردن .

على أن هناك ظاهرة قوية يدركها الباحث في النقوش الآشورية هو أن الفلسطينيين العرب من أقدم السلالات.التى سكنت كنعان ، لا قبل غزو الإسرائيليين فحسب بل إبان وجودهم الطاريء هناك ، فقد ورد في نقوش

(١) د. فؤاد حسنين : فلسطين العربية . ص ٦٣ .

الإمبراطور الأشوري سلما نصر الثالث (٨٥٩ - ٨٢٥ ق.م.) أن ملكًا عربيًا أسمه « جِنْدبُو » . وبالعبرية « جُنْدُب » ، تحالف ضده مع الآراميين وكما جاء في الحوليات الأشورية أن ملك العرب أرسل إمدادات كبيرة محملة على ألف جمل أثناء موقعة قرقار (٨٥٤ ق.م.) .

كما تمدن المتون الأشورية بمعلومات حول السبي الأشوري لبعض سكان فلسطين والذي جاء في حوليات سرجون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م.) ملك آشور « . . . وتسلمت الجزية من فرعون مصر .وكذلك من شمس (سَمْسِي بالأشورية) ملكة العرب . . . » .

وفي نقش آخر لسرجون الثاني يشير فيه إلى نقله لبعض القبائل العربية مثل ثمود والعباد[1] (أباديدي وهي اسمها باللغة البابلية الآشورية) إلى السامرة بعد أن هزم ودمر إسرائيل (٧٢٢ ق.م.) .

ولاشك أن هذا النص يشير إشارة واضحة إلى الوجود العربي في فلسطين في هذه الفترة .

إلى جانب ذلك كله نجد العرب بقيادة ملكهم جُشَم ، كونوا حلفًا ضد سنبلط الحوراني وطوبيا العموني (نحميا ٢ : ١٩) وذلك في أيام نبي اليهود نحميا (٤٢٤ - ٣٥٨ق.م.) .

وكان نتيجة تتبعنا للنصوص البابلية الأشورية والعبرية في العهد القديم ، أن تأكدت لنا بالبراهين الساطعة انتماء القدس إلى العرب منذ فجر التاريخ . ولابد هنا من إضافة أراها واجبة دفعًا لسوء الفهم ، وهو أن عمر بن الخطاب لم يُدخِل العرب إلى فلسطين - كما يدعي بعض المستشرقين المتعصبين - وإنما أدخل الاسلام ، وهما أمران مختلفان .

---

(١) العباد (أباديدي) وهي قبيلة من ربيعة كانت تعيش على حدود العراق القديم .

الفصل الأول

تاريخ القدس قبل
الوجود اليهودى الطارئ

تاريخ القدس قبل الوجود اليهودي الطارئ

تحتل مدينـــة القدس مكانة بارزة فـي التاريخ وذلك قبل الوجـود اليهودي فيها ، فقدسكنها اليبوسيون - أقـدم سكان القدس- وكانت على عهدهم تدعى « يبوس » ، ويرجع تاريخ وجودهم فـي المدينة إلى حوالي ٣٠٠٠ سنة ق.م. حيث اتخذوهـا عاصمة لهم . ومن المرجـح أنهم كانوا بطنًا من بـطون العرب الأوائل نشأوا في داخل الجزيرة الـعربية ، ثم نزحوا عنها مع القبائـل الكنعانية في الألف الثالث قـبل الميلاد . ومن ملوكهم « ملـكي صادق » وكان أول من خطط لبناء مدينة يبوس (القدس) ثم قام بتحصينها .

وورد في التوراة (تـك ١٤ : ١٨) اسم « ملكي صادق » عـلى أنه كان كاهنًا لله العلـي ، ومن المرجح أنه كان معاصـرًا لسيدنا إبراهيم عـليه السلام . وكان بعـض ملوك البلاد الواقـعة على نهر الـفرات قد أغاروا على مـدن سهل الأردن واستولوا عـلى سدوم بعد أن أسروا لوطـا وقومه ، وعند سمـاع سيدنا إبراهيـم لهذا الخبر قام بـإعداد رجاله وسلـحهم وحارب هؤلاء الملـوك واسترد أملاك لوط وأعـاد الأسرى ، وقام ملك سـدوم باستقبال سـيدنا إبراهيـم عند عودته ، وقدم ملـكي صادق ملك اليبوسـيين خبزًا وماء وبارك سيدنـا إبراهيم قائلاً : « مبارك ابرام من الله العلي مالك السموات والأرض ومبارك الله العلي الذي اسلم أعـداءك في يدك » [1] ، فأعطاه سـيدنا إبراهيم العُشْر ممـا معه من الغنائم .

ومن ملوكهم « سالم اليبوسي » الذي بنـى قلعة على جبل يقع في الزاوية الجنـوبيـة الـغربيـة للدفاع عـن القدس ، والذي عـرف أيام داود باسم جـبل صهيـون . وكانت يبوس « الـقدس» في ذلك الوقت ذات أهـمية من النـاحية التجارية ، فقد كـانت تقع على طريقين من أهم طرق الـتجارة ، الطريق الأول

---

(١) تك ١٤ : ٢٠ - ٢١ .

يربطها بالبحر الأبيض والآخر يربط حبرون (الخليل) ببيت إيل (بيتين) ، ومن بيت إيل كان الطريق يتفرع إلى اتجاهين : واحد نحو شكيم (نابلس) ، والآخر إلى أريحا ووادي الأردن . أما من الناحية الاستراتيجية فهي تقع على تلال مرتفعة يحيط بها سور طبيعي منيع ، وكان بينها وبين البلاد المجاورة معاهدات تحالف قوية .

وبعد أن كان العهد القديم المصدر الأساسي لدراسة تاريخ اليهود ،حدثت تحولات أساسية في طرائق دراسة تاريخهم بعد الوثائق الأثرية - وثائق البحر الميت ، والوثائق الأشورية والبابلية - التي تم اكتشافها في الفترة الأخيرة على ضوء معرفة المستشرقين في العصر الحديث للغات الشرق القديم .

وأقدم النقوش التي ورد فيها ذكر القدس موجودة في مجموعة اللوحات المسمارية المكتوبة باللغة الأكادية - تتخللها تفسيرات قليلة بالكتابة المسمارية الأوجاريتية الكنعانية المبسطة - ، وهذه النقوش عرفت باسم « لوحات تل العمارنة » ، وهي وثائق دبلوماسية ترجع إلى عهد فرعون مصر أمنوفيس الثالث (١٤١١ - ١٣٧٥ ق.م.) وابنه إخناتون (١٣٧٥ - ١٣٥٠ ق.م.) ، وقد ورد اسم القدس في هذه النقوش تحت اسم « أورسالم » وهو اسمها الكنعاني ، وذلك عندما استنجد حاكمها عبد يخيبا - وكان حاكمًا من قبل فرعون مصر - بأمينوفيس الثالث لصد غارات « الحابيرو » [1] .

---

(١) يبدو أن بعض الباحثين اعتقدوا أن اسم العبريين قد ورد في لوحات تل العمارنة تحت اسم « حابيرو » ، ومن المرجح أن هذا الاعتقاد خاطئ ، فمعنى الكلمة مازال يكتنفه بعض الغموض وهو في الغالب كان له مدلول عرقي في تلك الفترة ، فكلمة عبري كانت تشمل الآراميين وجميعهم عرب نزحوا من موطنهم الأصلي في الجزيرة العربية ، قبل أن يكون لليهود وجود ، أي أن مصطلح « عبيرو » كان يطلق على القبائل البدوية التي هاجرت من الجزيرة العربية قبل موسى عليه السلام ، والذي لا شك فيه أن كلمة عبري أو عبراني لم ترد في القرآن الكريم وإنما ورد ذكر « بني إسرائيل ، وقوم موسى ، واليهود » . ولذلك لم يعرف اليهود باسم العبريين في زمن سيدنا محمد ﷺ ، وإنما عرفوا بتسميتهم التي وردت في القرآن الكريم . وصفوة القول في هذا الموضوع إن المصادر الاسرائيلية قد =

ويبدو أنه في عصر الملك رعمسيس الثاني (١٢٥٠ ق.م.) خرج بنو إسرائيل[1] بقيادة موسى وعبروا صحراء سيناء ، وكان هدفهم فلسطين التي أطلقوا عليها أرض الميعاد حسب ما جاء في التوراة .

وفي خلال رحلة الخروج ظهر الرب لموسى باسم « يهوه » وجدّد العهد بينه وبينهم - هذا حسب دعواهم - وأوحى الرب لموسى بالشريعة وأسس

= صمتت عن بعض الأمور ولم تستوعب أموراً أخرى ، وأثبت دليل على صحة ما نقول إن العهد القديم لم يذكر قط أخبار عاد وثمود التي انفرد بذكرها القرآن الكريم .

ويتضح لنا مما تقدم أن تسمية ابرام (سيدنا إبراهيم) بالعبراني كما جاء في التوراة (تك ١٤ : ١٣) ، كان يقصد بها انتساب سيدنا إبراهيم إلى القبائل العربية البائدة ، ولذلك لم يقصد بابرام العبراني معنى الإسرائيلي ، وإنما العابر أو المهاجر ، وعندما وُجد اليهود وانتسبوا لإسرائيل كانوا يتحدثون عن العبرية على أنها لغة كنعان ولم يطلقوا عليها العبرية إلا في وقت متأخر . ويرى البعض الآخر من الباحثين أن كلمة حابيرو يقصد بها كلمة العبريين ، فهي مشتقة من الفعل (عبر) الذي كان شائعًا في اللغات السامية ومنها العربية والعبرية ، واستعمل في العبرية بمعنى « عبر النهر » والمقصود هنا نهر الفرات ، وعلى ذلك فيحتمل أن كلمة عبري كانت تعني الذي يعبر الفرات إلى آرام (سورية) ، وجاء في التوراة (تك ٣١ : ٢١) ما نصه « فهرب هو (يعقوب) وكل ما كان له ، وقام وعبر النهر ، وجعل سمته نحو جبل جلعاد » ، والمقصود هنا عبور يعقوب نهر الفرات ، وكان الساميون قديمًا إذا أقاموا عبر النهر دون أن يشيروا إلى اسم النهر فهم بذلك يقصدون نهر الفرات ، ولذلك يقول بعض العلماء إن اسم العبريين قد أطلق على اليهود اعتباراً من رحلة يعقوب وعبوره الفرات إلى آرام (سورية) ، ولذلك فهم ينتسبون إلى من عبر بهم النهر (يعقوب) ، وهو رأي مبالغ فيه لأنه ليس العبور الوحيد في تاريخهم فهناك عبور موسى البحر ببني إسرائيل من وجه فرعون وهو عبور تاريخي أكثر من عبور يعقوب وهكذا فسّر اللغويون اليهود لفظة عبري تفسيراً عنصريًا لا يقوم على أساس متين .

راجع : عباس العقاد : إبراهيم أبو الأنبياء - صفحات ١١٩ ، ١٣٢ - ١٣٣ .

د. حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ص ٥٤ .

د. حسن ظاظا : الشخصية الإسرائيلية - صفحات ١٩ - ٢١ .

د. أحمد سوسة : العرب واليهود في التاريخ - صفحات ٢٤٥ - ٢٥٣ .

G.R. Driver : Hebrew Language Ency Britannica 1961, Vol. 11.

G.R. Driver : Semetic Writing, pp. 78-79.

(١) يبدو أن كلمة بني اسرائيل أصبحت اسمًا لليهود منذ أيام يعقوب على أساس أنه كان كنية له معناها « قوة الله » .

العقيـدة حول إله واحد أحد ، إلا أن اليـهود اعتبروه إلههم القومي الخاص بهم ، وأنهم « شعبه المختار »[(١)] .

وتحدثنا التوراة على أن موسى قد توفي وأرض الميعاد على مرمى بصره ، فتولى يوشع بن نـون قيادة بني إسرائيل وعبروا نهر الأردن واحـتلوا أريحا بعد تدميـرها وسفكوا دماء أهـلها[(٢)] ، وكذلـك فعلـوا مع مـدن عاي والجلـجال وشيلوح وبقية المدن الكنعانية التي احتلوها أثناء تقدمهم إلى يبوس (القدس) .

وخـلال غزو بني إسرائيل لفلسطـين بـقيادة يوشع ، اتحـد ملك اليبوسيين « أدوني صادق » مع أربعة من الملوك المجاورين (ملك حبرون - ملك يرموت - ملك لخيش - ملك عجلون) وتصدوا ليـوشع بن نون إلا أنهم وقـعوا في الأسر فـأعدمهم ، وبـرغم ذلك لم يـتمكن بـنو إسرائيـل من احتلال يـبوس (القدس) نفسها ، إذ كانت محصنة تحصينًا منيعًا حيث قاومهم اليبوسيون الذين اتحدوا مع مـلك حاصور ضد يوشـع ، إلاأنهم انهزمـوا أيضًا وتشتت شمـلهم (يش ١١ : ١-٩) ومع ذلك لم يتم الاستيلاء على المدينة إلا بعد وفاة يوشع ، حيث حاصروها وقامـوا بتدميرها[(٣)] ولكنهم لم يستطيـعوا الاستيلاء على قلعة اليبوسيين (حصن صهيون فيما بعد) وبقيت في أيديهم مدة عهد القضاة وفترة حكم الملك شاءول أول ملوك بني إسرائيل .

وكان يوشع قـد شرع قبل وفاته في تـقسيم فلسـطين إلى أنصبة قبـلية بين أسباط بني إسرائـيل الاثنى عشر[(٤)] محددًا مكان كل سبـط . وأصبحت مدينة

---

(١) ومن اللافـت للنظر أن الـيهود يقرأون الـتوراة بروح متعصـبة ونزعة عنـصرية قوميـة ليستخـرجوا من نصوصها ما يبرر ادعاءاتهم بأنهم شعب الله المختار .

(٢) يش ٦ : ٢١-٢٥ « وأحرقوا المديـنة بالنار مع كل ما بهـا ، إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة بيت الرب » .

(٣) « وحارب بنو يهوذا أورشليـم (القدس) وأخذوها وضربوها بحد السيف وأشعلوا المـدينة بالنار » (قضاة ١ : ٨) .

(٤) وهـذه الأسـباط هي : راوبين ، شـمعون ، جاد ، يهـوذا ، يسـاكـر ، زبولون ، إفرايم ، منـسا ، =

القدس في قطاع سبطي يهوذا وبنيامين ، وبرغم ذلك التقسيم إلا أن القدس ظلت مدينة يبوسية حتى عصر داود ، وقد وردت هكذا صراحة في الفقرة ٦٣من الإصحاح ١٥ من سفر يوشع وهي ما نصه « وأما اليبوسيون الساكنون في أورشليم (القدس) فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في أورشليم (القدس) إلى هذا اليوم » .

ولذلك استمرت القدس على تسميتها القديمة (يبوس) أي مدينة اليبوسين كماجاء في سفر القضاة الاصحاح ١٩ : ١١ - ١٢ ما نصه « وفيما هم عند يبوس ، وقد أشرف النهار على نهايته ، قال الغلام لسيده : تعال نميل إلى مدينة اليبوسين هذه ونبيت فيها . فقال له سيده : لا نميل إلى مدينة غريبة حيث لا أحد من بني إسرائيل هنا » .

ويتضح مما تقدم أن المدينة المقدسة ظلت إلى عهد داود مدينة لليبوسين - سكانها الأصليين - أكثر من ألفي عام قبل عهد موسى ، كما بقيت بأيدي أهلها ثلاثمائة عام أثناء الوجود اليهودي في فلسطين ثم بعد دخولهم إليها في عهد داود . ومما يؤيد ذلك أنه عندما أراد داود بناء هيكل للرب في القدس ، قام بشراء البيدر الذي كان ملكًا لرجل يبوسي يدعى آرونا (٢ صم ٢٤ : ٢٤ - ٢٥) ، ولذلك عاش اليهود أقلية بين اليبوسيين حتى تم السبي البابلي (٥٨٧ ق.م.) .

وقبل أن ننتقل إلى مناقشة استيلاء داود على القدس ، نود أن نشير إلى حقيقة هامة مؤداها أن بني إسرائيل عندما غزوا فلسطين بقيادة يوشع بن نون ، وجدوا اليبوسيين والأدوميين المؤابين والعمونيين والكنعانيين وغيرهم وهؤلاء

= بنيامين ، دان ، آشر ، نفتالي ، يضاف إلى هذه الأسباط الاثنى عشر سبط لاوي وهم عشيرة موسى وهارون وكانت لهم الزعامة الدينية والاجتماعية على سائر الأسباط ، وكانت عشيرة اللاويين تقوم بالكهانة في مناطق الأسباط .

جميعــهم (تك ١٥ : ١٩) عرب . إذن لم يكـن اليهود هم الشـاغلون الأوائل لفلسـطين بل كانوا بالأحرى ولـفترة محدودة بين كـثيرين غيرهم مـن الشعوب العربية ،ولايستطيعون بحال من الأحوال المطـالبة بوضع استثنائي لهم في سياق هذا الـتاريخ الطـويل ، إلا أن الصـهيونيـة السيـاسية تـخضع أحداث المـاضي للتلاعب والتحريف حيث اعتبروا غـزو فلسطين في عهد يوشع حربًا مقدسة ، وتتذرع بالوعد الالهي الوارد في سفـر التكوين ١٥ : ١٨ ما نصه : « في ذلك اليوم قـطع الرب مع إبراهيـم ميثاقًا قائلاً : لـنسلك أعط هذه الأرض مـن نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات » .

ولا يوجد خارج الـتوراة أي إشارة أو وثيقة تـعود إلى هذه القصـة القديمة عن إسرائيل [1] ، ولذلك يحـق لنا أن نتساءل : أتسـتطيع أي مجموعـة بشرية مهما كان وضعها أن تفرض وجودها على بـقية شعوب المنطقة بمجرد إيمان تلك المجموعة بتقاليدها المتوارثة كقاعدة لوجودها . . . ؟ .

---

(١) أثبت البحث العلـمي أن الجزء الأول من العهد القديم وهو المعروف بالتـوراة - توراة موسى - لم يكن على هذه الحال التي نراها عليه الآن ، إذ يذهب الباحثـون إلى أن الشطر الأكبر منه قد تم تدوينه فيما بين عزرا (٤٢١ ق.م.) والفتح الرومـاني (٦٣ ق.م.) ، ويعتمد العلماء على أدلة كثـيرة منها نصوص من التوراة نفسها « فمات هناك موسى . . ولم يـعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم » (تثنيه ٢٤ : ٥-٦) . ولا يمكن أن يصدر هذا القول عـن موسى عليه السلام ، وهذا يقطع بأنه في الـتوراة بوضعها المعروف لنا حاليًا ما لا يمكن نـسبته إلى موسى .

الفصل الثاني

مرحلة التعايش السلمي
بين الفلسطينيين الأصليين وداود

مرحلة التعايش السلمي بين الفلسطينيين الأصليين وداود

استيلاء داود على جبل صهيون والاستعداد لبناء الهيكل

بعد وفاة يوشع بن نون سادت الفوضى بين بني إسرائيل ، وارتد كثير منهم إلى الوثنية ولذلك تشربوا كثيراً من عادات الكنعانيين وطقوسهم الدينية .

وكان النظام الاجتماعي الإسرائيلي القديم يقوم على القبيلة ، وكانت القبائل بدورها تنقسم إلى عشائر معظمها متجمعة حول هيكل مركزي في « سيلون» [1] . وكما أسلفنا فتقسيم فلسطين إلى أنصبة قبلية جعل مدينة القدس في قطاع سبطي بنيامين ويهوذا (يش ١٥ : ٨-٦٣) وبرغم ذلك التقسيم ظلت القدس مدينة يبوسية حتى عصر داود (قضاة ١٩ : ١٠) ، وقبله لم تكن هناك حكومة ثيوقراطية - دينية - بل كان هناك زعماء محليون يتصدرون للقيادة ، وهؤلاء هم القضاة الذين سميت باسمهم حقبة من تاريخ بني إسرائيل الديني تشمل القرنين اللاحقين لغزو فلسطين على وجه التقريب .

ولم يتسع الوقت للغزاة لتوطيد انتصارهم الأول في فلسطين ، فقد شن الفلسطينيون هجومًا مضادًا بدأ من المنطقة الساحلية وانتهى إلى داخل فلسطين، وحاربوا بكل قوة حتى انهزم الإسرائيليون حيث أخذ الفلسطينيون تابوت العهد وهدموا هيكل سيلون. وفي هذه الفترة أيضًا كان المديانيون والمؤابيون والعمونيون والآراميون يواصلون إغاراتهم على الإسرائيليين وساعدهم على ذلك الفرقة التي كانت تمزق القبائل الإسرائيلية من الداخل . وفي ختام الألف

---

(١) .بتينو موسكاتي : الحضارات السامية القديمة ص ١٤٠ . من الترجمة العربية للدكتور السيد يعقوب بكر .

وسيلون هي الآن خربة سيلون ، كانت في منطقة سبط إفرايم ، ولم تكن لها أهمية كبيرة قبل أن ينقل تابوت العهد إلى هيكلها ، وقد ظل التابوت بها حتى وقع في أيدي الفلسطينيين الذين ربما هدموا المدينة والهيكل معًا (حوالي عام ١٠٠٠ ق.م.) .

الثاني قبل الميلاد وصل بنو إسرائيل إلى حالة من الفوضى والتمزق تكاد تكون تامة ، ولكن أنقذهم من ذلك رد فعل جاء في صورة دعوة لوحدة وطنية قام بها صمويل التشبي [١] ، فقد نجح في أن يجمع مجلسًا من ممثلي أسباط الشمال والجنوب جميعًا ، ورشح لهم شاءول ملكًا على كل بني إسرائيل فبايعوه . وكان شاءول ينتمي إلى بنيامين أصغر سبط وأقربه إلى وسط البلاد ، ونصّب صمويل وبقية بني إسرائيل شاءول (١٠٢٠-١٠٠٠ ق.م.) ملكًا عليهم في الجلجال [٢] (صم ١١ : ١٤-١٥) .

وقد أقيمت هذه الوحدة السياسية في وقت كان الموقف التاريخي مواتيًا على نحو فريد ، فكانت مصر تجتاز فترة تأخر واضمحلال ، أما آشور فكانت مشغولة بتأمين حدودها وتوطيد دولتها في العراق القديم .

وكان نظام الحكم في عهد شاءول قائمًا على أساس غير ثابت إذ أن عجزه عن السيطرة على الفئات المتعارضة داخل فلسطين منعه من توطيد سيطرته عليها ، كما كان نزاعه مع داود زوج ابنته ميخال من الأسباب التي عجلت بسقوطه [٣] . وكان شاءول قد بدأ سلسلة من الحروب ضد أعدائه وفي مقدمتهم شعب فلسطين ولكنه انهزم أمام الفلسطينيين في معركة فاصلة على جبل « جلبوع » وانتهت بمقتله منتحرًا مع أبنائه الثلاثة (١ صم ٣١ : ٦) . ومن هذا السرد التاريخي لسفر صمويل الأول يتبين لنا أن الفلسطينيين كانوا قوة عسكرية لايستهان بها في هذا الوقت [٤] .

وبعدمقتل شاءول حاول داود أن يسيطر على الموقف لصالح بني إسرائيل ، ولكن أسباط الشمال رفضوا مبايعته ، وأقاموا إشبوشت (إشبعل) ابن شاءول

---

(١) هو النبي صمويل من سبط بنيامين وكان آخر القضاة .

(٢) تقع الجلجال في سهل أريحا إلى الشمال الشرقي للقدس .

A. Lods : Israel From Its Beginning, pp. 352-358.

(٣) يوحنان أهاروني : ارتس يسرائيل بتقوفت همقرا (أرض إسرائيل في عصر المقرا) ، ١٩٦٢م

(٤) E. Heaton : The Philistines And Old Testament, pp. 170-171 (1971).

ملكًا عليهم في مدينة محانيم (٢ صم ٢ : ٨-١٠) ، بينما بايعت الأسباط الجنوبية داود ملكًا عليها في حبرون (الخليل) حكم فيها سبع سنوات ونصف (٢ صم ٢ : ١١) ، استمرت أثناءها الحرب دائرة بين الجنوب والشمال وانتهت بموت اشبوشت .

وفي أعقاب ذلك اجتمع ممثلوا بني إسرائيل من الشيوخ وقواد الجيش وعقدوا مجلسًا من حبرون حوالي سنة ١٠٠٠ ق.م. وبايعوا داود ملكًا على كل بني إسرائيل(١) (٢ صم ٥ : ٣) .

ومن الجدير بالذكر أن الكاتب اليهودي أهاروني قد أنكر مساعدة الفلسطينيين لداود ، على الرغم من إشارة العهد القديم لهذه المساعدة والتي ورد فيها أن داود قد لجأ إليهم لمساعدته في نضاله ضد شاءول ، وقد استمرت هذه المساعدة بعد موت شاءول نفسه .وجاء عن ذلك في سفر صمويل الأول ما نصه « وقال داود في قلبه إني سأهلك يومًا بيد شاءول فلا شيءخير لي من أن أفلت إلى أرض الفلسطينيين فييأس شاءول مني » (١ صم ٢٧ : ١) « وكان عدد الأيام التي سكن فيها داود في بلاد الفلسطينيين سنة وأربعة أشهر » (١ صم ٢٧ : ٧) .

وقاوم الفلسطينيون وحدة بني اسرائيل بقيادة داود الذي شعر بخطرهم ولذلك خطط للقضاء عليهم وهزمهم في معركتين فاصلتين في وادي الرفائين (٢ صم ٥ : ١٧-٢٥ ، ٨ : ١٠) جنوب القدس ، حيث طاردهم حتى المنطقة الساحلية ، وبذلك انحسر خطر الفلسطينيين عن بني إسرائيل فترة من الزمن .وفي أعقاب ذلك فكر داود في تغيير عاصمته حبرون في الجنوب ، واتجه نظره إلى مدينة القدس (يبوس) في الشمال وكانت في أيدي اليبوسيين

---

(١) Lods : Israel pp. 359-360.

M.L. Margolis : A History of the Jewish People pp. 45-47 (1969).

العرب ، فخطط للزحف نحوها بجيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل ، إلا أنه واجه مقاومة عنيفة من اليبوسيين ، ولكنه كرر هجومه وانتزع منهم جبل صهيون وبنى عليه قلعة حصينة اتخذها قاعدة لانطلاقه حيث مارس ضغوطًا على سكان المدينة حتى استولى عليها واتخذها عاصمة لملكه ، وكان اختياره للقدس يعد دليلاً واضحًا على حنكته السياسية فهي مدينة محايدة تتمتع بمزايا كثيرة فهي ذات موقع استراتيجي وسط فلسطين على تل يرتفع حتى ٢٦٠٠ قدمًا فوق سطح البحر وتحيط بها وديان عميقة ، ومن ثم تصلح لأن تكون عاصمة حصينة ، ورغم كل هذه الأحداث ، فلم يحدث اندماج حقيقي بين أسباط الشمال والجنوب ، وبقي هذا الانفصال قائمًا في ضمائرهم . ونلاحظ أن مقدرة داود نفسها لم تكن لتحفظ السلام داخل مملكته ، بل إنه في وقت من الأوقات ، حين تزعم ابنه ابشالوم الثورة ضده ، اضطر إلى الفرار إلى ما وراء نهر الأردن ، لينجو بنفسه [١] (٢ صم ١٥ ، ١٩) .

وكان داود قد أقام في البداية في حصن صهيون قبل استيلائه على المدينة، وكانت عليه قلعة أمامية لليبوسيين يدافعون منها عن القدس ، وكانوا يسمون جبل صهيون بكل منشآته « المدينة الفوقانية » ، أما « المدينة التحتانية » فقد أطلقوا هذا الاسم على هضبة الحرم (جبل الموريا) . وقد بدأ داود بزيادة تحصينات قلعة اليبوسيين في « المدينة الفوقانية » وجعلها قاعدة لحكمه ولذلك سميت « مدينة داود » ثم صار الاسم يطلق على المدينة كلها [٢] . وقد ظل اليبوسيون مقيمين بالقدس وأقام الملك قصرًا عليها بمساعدة المهندسين والعمال الفينيقيين [٣] ، ثم نقل تابوت العهد إلى القدس حيث تركزت السلطة الدينية

---

(١) A Sachar : History of the Jews, p. 35 (1973).
A.T. Olmstead : History of Palestine and Syria, pp. 316-317 (1923)
Lods : Israel, p. 360.

(٢) ظاظا : اسرائيل ركيزة للاستعمار – ص ٨٨ .

(٣) Lods : Op.Cit., p. 361.

والسياسية والعسكرية جميعًا واستمر داود في الضغط على اليبوسيين ومضايقتهم في جبلهم (الموريا) ، وخطط لبناء هيكل للرب فبدأ بشراء بيدر آرونا اليبوسي الذي كان يتخذه جرنا ومربضا لماشيته ، فوافق على بيعه لداود بما فيه من المواشي بخمسين شاقلاً من الفضة . ومن اللافت للنظر أن « القدس » (يبوس) قبل إقامة داود بها ، كانت مدينة ذات حضارة حيث اشتملت على منازل كبيرة بها الكثير من أسباب الراحة وكان فيها حكومة وصناعة وتجارة ، بالإضافة إلى أنها كانت آهلة بسكانها اليبوسيين وهم إحدى القبائل العربية السامية ، ومعرفة الله فيها بالوثائق ترجع على الأقل إلى ملكي صادق الذي كان كاهنًا لله العلي قبل موسى بحوالي خمسمائة عام ، ولذلك تشرّب الإسرائيليون هذه الحضارة من اليبوسيين ومن المدن الكنعانية الأخرى التي احتلوها بالغزو ، فغادروا الخيام وسكنوا في منازل كمنازل اليبوسيين والكنعانيين ، وسكنوا الطابق الأرضي على خلاف ما تبعه اليبوسيون والكنعانيون من قبل في استخدامهم للطابق الأرضي كمخازن وكحجرات لإقامة الخدم ، وخلعوا عنهم الجلود ولبسوا ثيابًا منسوجة من الكتان والصوف كثياب الكنعانيين .

ولما كانت عشيرة داود هي سبط يهوذا ، فقد بدأ الاسرائيليون يسمون باليهود أيضًا منذ هذا الوقت ، ويعتقد كثير من المؤرخين أن أهم العوامل التي ساعدت داود على توطيد مملكته أن الأحوال في مصر كانت مضطربة فضعفت سيطرتها على فلسطين وبلاد الشام ، بالإضافة إلى أن الدولة الأشورية كانت في حالة من الضعف جعلت لداود حرية الحركة والنشاط.

موت داود والتعنت الإسرائيلي

بعد موت داود خلفه ابنه سليمان (٩٧٣ ق.م. تقريبًا) وكان على عكس والده يميل إلى حل مشاكله السياسية والاقتصادية حلولاً دبلوماسية . وإذا أردنا

الكشف عن الاهتمامات الحقيقية التي كانت تشغل سليمان ، فإننا نجد أنه أدرك مبكرًا أن مملكته الصغيرة لن تدوم إلا بتدعيم علاقاته الودية مع الدول الكبرى التي تحيط به ،فقام بتوثيق علاقاته مع جيرانه التي كان داود قد بدأها مع ملوك صور ، وتزوج سليمان ابنة فرعون مصر - أحد ملوك الأسرة الحادية والعشرين - الذي أهدى له مدينة جزر ، وكان فرعون مصر قد استولى عليها مؤخرًا من الكنعانيين (١ ملك ٩ : ١٦) .

وقد امتاز عهد سليمان بتقدم تجاري كبير ، كفله الموقع المتميز لفلسطين على طرق التجارة بين مصر وسوريا وسيطرته عليها ، فدخل مع ملك صور شريكًا في الأسطول التجاري ، وأدى ذلك إلى مساعدة حيرام ملك صور لسليمان في بناء الهيكل عن طريق إمداده بالذهب وخشب الأرز وبقية المواد اللازمة لعملية البناء بالإضافة إلى إمداده بالكثير من العمال المهرة .

بدأ سليمان ببناء سور يحيط بجبل الموريا ، ثم أخذ في بناء الهيكل الذي كان داود قد بدأه قبل وفاته ومن المؤكد أن المهندس المعماري الفينيقي الذي صمم هيكل سليمان ، قد استوحاه من الفن المعماري السامي ، فالتصميم العام لمعبد سليمان ، يكاد يماثل تصميم المعبد الكنعاني مع اختلافات غيرجوهرية أهمها أن قدس الأقداس كان في نهاية المعبد . ودليلنا على ذلك أن المعبد الكنعاني الذي تم اكتشافه في بيسان والذي يعود تاريخه إلى عام ١٣٠٠ ق.م، كان نقطة تحول في تصميم المعبد الكنعاني ، فهو يتكون من غرفة خاصة مربعة الشكل تقع في نهاية الغرفة الرئيسية للمعبد ، ويتم الوصول إلى الغرفة العليا بواسطة بعض الدرجات حيث تمثال للاله ،وتمثل الغرفة العليا قدس الأقداس الذي يعتبر صفة مميزة لمعبد سليمان فيما بعد ، وكانت هذه الصفة المميزة موجودة أيضًا في معابد مصر والعراق . كما كان هناك مذبح صغير أمام التمثال المرتفع حيث تقدم البخور في الغرفة العلوية ، وربما كانت توقد أيضًا بعض الشموع وفي الفناء الخارجي للمعبد يوجد المذبح الرئيسي حيث تحرق القرابين .

إذا كان المعبد في عهدي داود وسليمان قد اقتصرعلى أن يكون بيت الله يأتيه بنو إسرائيل لإقامة شعائرهم حيثما كان [١] فإنه مع قيام المملكة قد أصبح يغطي مسئوليتين كبيرتين ، الأولى منها أن يصبح المعبد المركزي ومكان الحج المحدد الذي لايتجه الناس إلى سواه ، ثم إنه في نفس الوقت صار رمزًا على فخامة ملك سليمان وعظمة الجالس على عرش بني إسرائيل .

وإذا كان الباحثون قد قللوا من الأهمية المعمارية لهذا البناء الجديد معتمدين على المأثور الذي جاءتهم به الكتب اليهودية ،فإن الذي لا شك فيه هو أن عمل سليمان لم يكن بناء معبد فحسب ، بل كان مشروعًا هندسيًا معماريًا ضخمًا جدًا لبناء عاصمة جديدة كاملة ، لم يكن داود قد أتم منها إلا القلعة التي شيدها علي جبل صهيون وداره التي بناها بالقرب من القلعة ، أما سليمان فإنه تصورخريطة لعاصمة كاملة بأسوارها ومعبدها المركزي وقصرها الملكي ومبانيها الدينية والإدارية ومساكن زوجاته وما ملكت يمينه ممن دان بالشريعة الموسوية ومن لم يدخلها .وسنرى أنه جعل في عاصمته حيًا دينيًا وآخر ملكيًا وثكنات للحرس وحيًا لغير التابعين للشريعة الموسوية من نسائه وحشمه ، وأقام الأسوار الفاصلة بين هذه الأحياء والتحصينات المحيطة بها والسلالم المؤدية إليها من الأراضي المنخفضة المحيطة بها ، كما أعد خزانات المياه والأحواض والبرك التي يجد فيها المتعبدون والحجاج ما يحتاجون إليه من الماء ، وهو في المدينة المقدسة ما يزال حتى يومنا هذا يشكل معضلة تفاجيء الناس بأزمة من حين إلى حين .

فالأمر كما نرى ليس مشروعًا صغيرًا نفذه سليمان كما اتفق ،وإنما هو شيء يسهل معه تصور ما جاء في القرآن الكريم حول ضخامة الجهد الذي بذله

(١) فقبل ظهور الملكية سياسيًا كان اليهود يعبدون الله في أي مكان وقد عبدوه مع موسى وهارون أربعين عامًا في سيناء وليس في بقعة معينة ، فأينما وصلوا كانت « خيمة الاجتماع » التي بها تابوت العهد وفيها يقيمون الصلاة ، وبعد موسى وهارون وعلى مدى ثلاثمائة عام - عصري يوشع والقضاة - كانت أماكن العبادة متفرقة ، حتى أنها كانت في بعض الأحيان حول المدن الفلسطينية القديمة .

سليمان بن داود لجعل عاصمة ملكه لا تقل دينيًا ولاسياسيًا ولا إداريًا ولا عسكريًا عن أية عاصمة في المنطقة ، فنحن نعلم أن الفناء الخارجي لمعبد سليمان كان يحتوي على حوض ضخم جداً مصبوب من البرنز وقائم على تماثيل لاثني عشر ثوراً تمثل الأسباط الاثنى عشر ، وكان هذا الحوض يسمى « بحر النحاس » ، ولعله المقصود بقوله تعالى «جفان كالجواب » كما جاء في قوله تعالى ﴿ ولسليمان الريح غُدوُّها شهرٌ ورَوَاحُها شهرٌ وأسَلْنا له عين القِطْر ومن الجِنّ من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نُذقهُ من عذاب السعير . يعملون له مايشاءُ من محاريبَ وتماثيلَ وجفان كالجوابِ وقدور راسياتٍ اعملوا آل داوُد شكراً وقليل من عبادي الشكورُ ﴾ (سورة سبأ آية ١١ ، ١٢) .

ورأينا نموذجًا من الجفان والتماثيل ، أما المحاريب فلنا أن نتصور أن هذا المعبد المنقسم إلى ساحة خارجية ثم فناء مكشوف ثم صالة مسقوفة ثم صالة داخلية فيها قدس الأقداس ، كل هذا كان يتضمن عدداً كبيراً من المحاريب حتى يستطيع العامة في الساحة وفي الفناء المكشوف أن يشاركوا في الشعائر مع الخاصة في البهو المسقوف وخاصة الخاصة ومن بينهم الملك وكبار الكهنة في قدس الأقداس .

ومن المفيد أن أذكر للقارئ نص ما جاء في سفر الملوك الأول الإصحاح الخامس فقرة ١٣-١٦ « وسخّر الملك سليمان حشوداً كبيرة من بني إسرائيل تقدر بحوالي ثلاثين ألف رجل ، فأرسلهم إلى لبنان ، عشرة آلاف في الشهر من النوبة ، يكونون شهراً في لبنان وشهرين في بيوتهم ، وكان أدونيرام على التسخير ، وكان لسيمان سبعون ألفًا يحملون أحمالاً وثمانون ألفًا يقطعون في الجبل . . . وأمر الملك أن يقلعوا حجارة كبيرة ، حجارة كريمة لتأثيث البيت ، حجارة مربعة » . ويتضح لنا من نص سفر الملوك أن عدد الصناع الذين اجتمعوا في القدس ضخم جداً ويزيد على مائة وخمسين ألف عامل.

وهكذا يبدو لنا أنه لا تعارض بين ما جاء في القرآن الكريم من أبهة مُلْك سليمان وما ورد في العهد القديم (سفر الملوك الأول) ، ولذلك نشعر أن مُلْك سليمان كان أبعد ما يكون عما أراد الباحثون [١] أن يصفوه به من الصغر والفقر والتقشف ، وإلا لما واجه هذا التمرد الذي تواتر في المأثور أن سببه الظاهر كان الإسراف ، وكذلك تواتر في هذه المأثورات اليهودية أنه بعد الفراغ من البناء واستقبال ملكة سبأ ، أن بني إسرائيل قد تمردوا على سليمان لكثرة نفقات المملكة وإمعانه في توفير وسائل البذخ ،مما أرهقهم بالضرائب لدرجة أنه لكي يقر عدالة التوزيع بينهم جعل الإنفاق على المملكة على كل سبط من الاثني عشر شهراً من السنة ، وهي أشياء مستبعدة تمامًا عن نبيٍ وهي تتعارض تمامًا مع التصور الإسلامي للنبوة .

ولعله من المفيد أن نُذَكِّر اليهود بأن الحرم الإسلامي الشريف أقيم في نفس المنطقة التي كان « ملكي صادق » يدعو فيها باسم الله العلي في زمن سيدنا إبراهيم ، ومن المرجح أن السور الذي كان يحيط بمنطقة الهيكل على عهد سليمان ، كان مربعًا طول ضلعه مائه وثمانون مترًا. ولقد وقفنا على دراسة دقيقة للأثري الفرنسي «دي سولسي» في كتابه «تاريخ الفن اليهودي» ، يشير فيها إلى أن مقاييس الحرم الإسلامي الشريف في نفس المنطقة هي «الضلع الشرقي لسور الحرم طوله ٣٨٤ مترًا » ،والضلع الجنوبي ٢٢٥ مترًا ، ثم يمتد الضلع الغربي في خط مستقيم بزاوية منفرجة ، وبذلك يصبح الضلع الشمالي من السور أطول بكثير من الضلع الجنوبي . وعلى ذلك فمساحة الحرم الشريف

(١) ومن اللافت للنظر أن الأساطير التي نُسجت عن فخامة هذا الهيكل وضخامته لا يمكن أن تكون قد نجت من شطحات الخيال ، ولذلك وصلت إلينا مبالغًا فيها أشد المبالغة ، وليس أدل على ذلك من أقوال الكاتب اليهودي الأمريكي لويس براون في كتابه بعنوان « حياة اليهود » ما نصه « إن انجازات سليمان في القدس ، وفي مقدمتها قصره الملكي كانت تبدو في عين اليهود السذج من رعيته فخمة فخامة تفوق التصور ، مع أنها لو قورنت بالقصور الهائلة في مصر وبابل أو الهند لبدت ضئيلة سمجة الذوق » .
راجع د. حسن ظاظا : اسرائيل ركيزة للاستعمار - ص ٩٢ .

أكبـر من ضعف مسـاحة جـبل الهيـكل داخل أسـوار سليـمان أو نحمـيا أو هيرودس ».

وقد يكون من أبرز المعـالم التي تميز الحرم الإسلامي الشريف أنـه مستطيل ويأخذ الاتجاه من الشمال إلى الجنوب في اتجاه قبلة مكة المكرمة ، على خلاف هيكل سليمان فبرغم استطالته فهو يأخذ الاتجاه من الغرب إلى الشرق (١) .

كل هذا ينفي نفـيًا قاطعًا الرأي القائل بأن هيكل سليـمان يقوم مكان الحرم الإسلامي الشريف ، ولادليل لليهود سوى العـنعنات التي اتخذت في نفوسهم منزلة مقدسة يكررونها عبر الأجيال .

(١) ظاظا : اسرائيل ركيزة للاستعمار - صفحات ١١٦-١١٧ .

الفصل الثالث

موجز لتاريخ القدس منذ إنقسام مملكة بني إسرائيل بعد سليمان

موجز لتاريخ القدس منذ إنقسام مملكة
بني إسرائيل بعد سليمان

الانقسام وانتشار الوثنية بين اليهود

انعكست مظاهر الترف في عهد سليمان على عاتق سكان فلسطين ، حيث أقام نظامًا للضرائب الباهظة من أجل بناء الهيكل وملحقاته وفي سبيل تحقيق هذا قام بتقسيم المملكة - فيما عدا يهوذا - إلى اثنى عشر قسمًا اداريًا لا تتوافق في حدودها مع حدود الأسباط الاثنى عشر (١ ملك ٤ : ٤-١٨) ، وعيّن حكامًا على كل قسم وذلك لتسهيل جباية الضرائب من رعاياه وتجهيز الامدادات الخاصة بالبلاط الملكي شهرًا كل سنة (١ ملك ٤ : ٧) . ومن ناحية أخرى فقد كان هدفه كذلك جمع شملهم ومحاولة القضاء على النزعة الانفصالية بينهم [١] .

وقد اعتبرت الأسباط الشمالية بناء الهيكل في الجنوب على أنه مركز لجباية الضرائب ، وإساءة في حقهم أكثر منه اجتذابًا لهم ، وهكذا كانت الزيادة الكبيرة في الضرائب مع التقسيم الاداري الجديد سببًا في اندلاع الثورة وتفجره الأول مرة أثناء حكم سليمان نفسه والتي تم إخمادها حوالي عام ٩٤٣ ق.م. واضطر زعيمها يربعام بن نباط للهرب إلى ششنق فرعون مصر وأول ملوك الأسرة الثانية والعشرين [٢] .

وبعد موت سليمان انتهى النفوذ اليهودي في فلسطين ، وطفت على السطح مظاهر الانفصال والشقاق القديم بين الأسباط الشمالية والأسباط

---

(١) إشعيا برس : محقريم بيديعت هأرتس وطبوجرافيا مقرائيت .

(بحوث في الجغرافيا والطبوغرافيا التوراتية) .

راجع يوحنان أهاروني : المرجع السابق صفحات ٢٦١-٢٦٢ .

(٢) B. Porten : Archives From Elephantine, p. 7 (1968).

الجنوبية ، فما كاد ابنه « رحبعام » يخلفه على العرش حتى ثارت عليه الأسباط الشمالية ، وذلك عندما أدرك أنه من الحنكة السياسية أن يحضر إليهم في الشمال لكي يبايعوه ملكًا ،ولكنهم رفضوا مبايعته بعد رفضه تخفيض الضرائب عن كاهلهم وهرب إلى القدس (١ ملك ١٢ : ١٨) ، حيث بايعه سبطي يهوذا وبنيامين ملكًا على بني إسرائيل في الجنوب .

وفي الوقت نفسه بايعت الأسباط الشمالية يربعام بن نباط من سبط افرايم - الذي عاد من مصر بعد موت سليمان - ملكًا على بني إسرائيل في الشمال (١ ملك ١٢ : ١٩) ، واتخذ شكيم (نابلس) عاصمة له [١] ، ثم نقل العاصمة إلى فينوئيل على مخاضة اليبوق عبر الأردن ، وربما كان ذلك تفاديًا للتهديد المسلح من جانب مملكة يهوذا ومصر أيضًا ، بالإضافة إلى أنها كانت معرضة دائمًا للهجوم من جانب آشور وبعض الدويلات الآرامية ، في حين أن مملكة يهوذا كانت حدودها آمنة فيما عدا حدودها مع مصر [٢] ، وبعد ذلك نقل يربعام عاصمته من فينوئيل إلى ترصة [٣] ، حيث استقر بها . (١ ملك ١٤ : ١٧) .

ويبدو أن يربعام عمل على توسيع شقة الانفصال بين المملكتين «إسرائيل ويهوذا» ،ولذلك بنى معبدين أحدهما في « دان » في الشمال والآخر في « بيت ايل » (بيتين) الذي اتخذه مزاره الملكي المقدس ، وكان يربعام قد أحاط هذين المعبدين بهالة من القدسية ليعوض الأسباط الشمالية عن نقص « تابوت العهد » وغيره من الأشياء التقليدية المقدسة واليهودية المرتبطة بهيكل

---

(١) The Jewish Quarterly Review, Vol. 58 (1967-1968).

Eva Denelius, The Sine of Jeroboam Ben-Nebat, p. 100.

(٢) A. Olmstead : History of Assyria, p. 131.

(٣) ترصة مدينة كنعانية قديمة هزمت على يد يوشع بن نون (يوشع ١٢ : ٢٤) ، وموقع ترصة غير معروف على وجه الدقة ، وأكثر الافتراضات احتمالاً أنه قريب من مدينة السامرة التي أنشأها عمري بعد ذلك .

سليمان في القدس ، وفي سبيل تحقيق ذلك زوّدهما بعجلين ذهبيين وخصص فريقًا من الكهنة لخدمة المعبدين وأداء الطقوس الدينية ، وربما أن يهوه لم يعد ربًا لإسرائيل لذلك لأنها اعتادت تجسيد يهوه فيشكل عجل ، ولم يكن ذلك جديدًا في إسرائيل ، وربما كان هذا كتقليد للآراميين المجاورين الذين كانوا يُسَرُّون من تمثيل بعل هدد في شكل عجل أو ثور[1] (١ ملك ١٢ : ٢٨-٣٢) .

وهذه الصورة القاتمة تأتينا من المصادر الجنوبية في يهوذا ، ولكن المصادر الشمالية تعطي تقييمًا مختلفًا تمامًا لما قام به يربعام ، فمن الواضح أن يربعام وبقية ملوك إسرائيل لم يلقوا يهوه خلف ظهورهم ، ولم يعتبروا العجول الذهبية آلهة أخرى ، وهذا مخالف لما كتبه المؤرخ الجنوبي (١ ملك ١٤ : ٩) ، فالملك ياهو (كما سيرد فيما بعد) الذي أشارت إليه النبوءات على أنه سيكون محطمًا للآلهة البعلية الكنعانية لم يقم بإزالة العجول الذهبية ، ولم يلفظ النبيان « إلياهو »[2] و « إليشع »[3] بأي كلمة ضد هذه العجول ، واعتبارها تعبّر عن آلهة أخرى كما جاء في سفر الملوك الأول (١٤ : ٩ ، ١٥) ، يعكس وجهة النظر الجنوبية ،وهي على أي حال إدانة جاءت في وقت لاحق . ومن المرجح

---

(١) الامام بن حزم الأندلسي : الفصل في الملل والأهواء والنحل . الجزء الأول صفحات ١٥٢-١٥٣ (١٩٦٤) .

(٢) إلياهو : معنى الاسم « يهوه هو ربي » ويسميه القرآن الكريم إلياس والياسين وقد ذكر مرة في سورة الأنعام آية ٨٤ « وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين » .

(٣) إليشع : هو تلميذ إلياهو وخليفته ومعنى هذا الاسم « الله خلاص » ، ويسميه القرآن الكريم « اليسع » وقد ذكر في سورة الأنعام ٨٥ « وإسماعيل واليسع ويونس ولوطًا وكلا فضلناه على العالمين » .

* ونحن نرى أن الإسرائيليين كانوا دائمًا مرتبطين بتقديس العجول بشكل أو بآخر ولولا الردة التي حدثت في عبادة العجل في سيناء ، لما تراشقوا في الشمال والجنوب بتهمة عبادة العجل ، وربما كانت قد مرت بدون لغط كبير ، فمعروف أن حوض غسل القرابين الموصوف في العهد القديم في هيكل سليمان بالقدس والمعروف باسم « بحر النحاس » ، كان يقوم على اثنى عشر عجلاً من البرونز ، ولو تتبعنا المعتقدات الخاصة بارتباط العجول عند بني إسرائيل بغيبيات دينية ، لطال بنا الحديث وخرجنا به عن المقصود .

أن العجول لم تكن نماذج مجسدة لآلهة إسرائيل ، فمن الواضح أنه للدوافع السياسية التي أسلفناها ، قام يربعام ببناء معابد في مملكة إسرائيل على غرار هيكل سليمان في القدس ، ولذلك كان في حاجة إلى رمز يحل محل تابوت العهد [١] الجنوبي ، فأقام العجلين الذهبيين كما أسلفنا واللذان كانا على الأرجح من النوع المجنح ،ويمكن اعتبار ذلك بمثابة تطوير أو نموذج آخر للكروب [٢] .

إذن فليس هناك فارق بين العجول والكروبين ، وينبغي ألا تضللنا الروايات اليهودية التي تحاول أن تعطي الانطباع بأن الكروبين تنطوي على أفكار دينية أكثر نقاء من العجول . وهكذا كان حال ما يسمى بالمملكة الشمالية والمملكة الجنوبية المزعومتين في وقت مبكر بعد موت سليمان ، فقد كانت الوثنية متفشية في الشمال والجنوب تحت مسميات مختلفة ، كلٌ يدعي لشعبه أحقية معابده بالقداسة ويحيطها بهالة من الاحترام والقدسية ويتهم جاره بالكفر ، فأين إذن الاستقرار الذي عاشه اليهود على أرض فلسطين . . . ؟ إننا على

---

(١) تابوت العهد : أو تابوت الشهادة حيث أودع به لوحا الشهادة اللذان نقشت عليهما الشريعة ، وهو صندوق مصنوع من خشب السنط طوله ذراعان ونصف (حوالي ١,٢٥ متر) وعرضه ذراع ونصف (خروج ٣٧ : ١-٩) .

(٢) الكروب : يوجد في داخل غرفة قدس الأقداس بهيكل سليمان ، حيث يغطى تابوت العهد بتمثالين من الكروبين واحد على يمينه والآخر على يساره وطول جناحي الكروب الواحد عشرة أذرع (خمسة أمتار) وهو مصنوع من خشب الزيتون المطعم بالذهب وارتفاعه عشرة أذرع (١ ملك ٦ : ٢٣-٢٨) ، وكان الرب – حسب أقوال اليهود – يكلم موسى من فوق غطاء تابوت العهد من بين الكروبين اللذين يظللان التابوت . وكلمة كروب ليست عبرية خالصة وأغلب الظن أنها اشتقت من كلمة « جروبس » اليونانية ، وهو اسم كائن خرافي له جسم أسد ورأس طائر (نسر عادة) ، ولكن الرأي السائد أنها أكدية الأصل من مادة « كاريبا » ومادة « كرب » في الأكدية معناها « صلي » ثم تطورت فكرة الكروبين لدى اليهود في العصور اللاحقة .

راجع اسبيتينو موسكاتي : الحضارات السامية القديمة ص ٢٨٦ من الترجمة العربية للدكتور يعقوب بكر .

ضوء مفهومنا الشمولي لتاريخ فلسطين سنوضح بالشواهد والأدلة أن إشعاع اليهودية الروحي لم يرتبط أبدًا بالعودة إلى فلسطين ، وأن تاريخ ملوكهم الهامشي يرتبط دائمًا بالتبعية لملوك مصر أو ملوك آشور .

على أن ما نلحظه اليوم ونخشاه ، هو أن يُفهَم بطريق الخطأ أننا نسرد تاريخ ملوك اليهود في الجنوب والشمال ، والذي نحب أن نؤكده دائمًا أننا نتعرض لهذا التاريخ الهامشي لنوضح دائمًا الانقسام الذي نشأ بين المملكتين في معظم الأحيان والذي أسرع بانهيارهما ، وكذلك كيف استقرت الفتن في داخل كلتا المملكتين ، وكيف استمرت المؤامرات وأعمال الاغتيال والارهاب لأسباب شخصية وأخرى سياسية ودينية ، حيث تفشّت الوثنية والفساد الخلقي بين الجميع ، وجاءت الغزوات من الخارج متكررة ومتلاحقة تضعضع الكيان اليهودي في فلسطين ، فالآراميون من سورية والعمونيون والمؤابيون والأدوميون والفلسطينيون العرب ؛ كل هؤلاء ضيقوا الخناق على مملكتي إسرائيل ويهوذا ثم بدأت قوات مصر وآشور تأخذ طريقها إلى مهاجمة المملكتين المزعومتين .

ششنق وغزو فلسطين

وفي صيف عام ٩٢٤ ق.م. فتح فرعون مصر ششنق فلسطين ، ويظن بعض المؤرخين أن حملة ششنق غير مؤكدة ، إلا أن المصادرالأثرية تصور لنا سير العمليات العسكرية في مملكتي يهوذا وإسرائيل ، وقد بدأ ششنق هجومه باحتلال غزة واتخذها مركزًا لتجميع قواته ، ويبدو أنه قسّم قواته ثلاثة أقسام في ثلاثة اتجاهات ، حملتان في اتجاه النقب ، أما الحملة الثالثة والرئيسية فقد توجهت بقيادة ششنق نفسه لمهاجمة المدن الحصينة في يهوذا مخترقًا سهل فلسطين ، واستولى على عجلون وبيت حران وجبعون حيث انتظر قرار رحبعام ، إما بدفع الجزية أو الاستسلام ،ولكنه فضّل دفع الجزية (١ ملك

١٤ : ٢٥-٢٧) ، ولذلك لم تظهر القدس في قائمة المدن التي استولى عليها ششنق [١] .

وبعد نجاح حملته في يهوذا استمر في تقدمه نحو مملكة إسرائيل في الشمال ، وعندما شعر يربعام بقرب وصوله ترك عاصمته ترصة وتقهقر عبرالأردن إلى فينوئيل ثم محانيم .ووجد ششنق طريقه سهلاً لاحتلال شكيم (نابلس) ثم اتخذ بعد ذلك ترصة قاعدة لعملياته ضد يربعام الذي استسلم ودفع الجزية واعتبر نفسه تابعًا لفرعون مصر ، وتابع ششنق هجومه في الشمال حتى « مجدو » التي اتخذها قاعدة لعملياته في شمال إسرائيل وهناك أقام نصبًا تذكاريًا بارتفاع عشرة أقدام (اكتشف قمته « فيشر » عام ١٩٢٩) ، وبعد أن اطمئن إلى تبعية ملكي يهوذا وإسرائيل ودفعهما للجزية عاد إلى مصر عبر الطريق الساحلي من الكرمل وحتى غزة ، وهناك التقى بالمجموعتين اللتين كانتا في صحراء النقب وعادوا جميعًا عبر سيناء إلى مصر حيث احتفل بالنصر [٢] .

وقدسجل ششنق أعماله الحربية في فلسطين على الحائط الغربي لمعبد آمون في الكرنك ، ومن اللافت للنظر أن اسم مدينة القدس لم يرد ذكره في قائمة الكرنك للمدن التي استولى عليها ششنق ، بينما نجده واضحًا في سرد العهد القديم بهذه الأحداث (١ ملك ١٤ ، ٢ أخ ١٢ : ٢-٤) ، ويبدو أن بعض الأثريين فشلوا في العثور على اسم القدس في هذه القائمة حتى تحت اسم آخر . ويرى بعض الباحثين أن حملة ششنق شملت يهوذا فقط وأنها تمت بطلب من يربعام ملك إسرائيل ، ولكننا نجد أسماء بعض مدن إسرائيل (تعنك ، مجدو ، فينوئيل) ضمن قائمة الكرنك ، ومن غير الممكن كذلك

---

(١) F. Edward : The Biblical Archaeologist Reader, Vol. II, (1964), pp. 272-274.

(٢) يوحانان أهاروني: المرجع السابق صفحات ٢٧٠-٢٧١ .

Olmstead : Op.Cit., pp. 355-356.

لوحة (رقم ٢)

حملة ششنق الأول على فلسطين (٩٢٥ ق.م)

أن يكون الكتبة قد ذكروا كل الأماكن المعادية أو الصديقة التي تدفع الجزية لفرعون مصر .

ولقد وقفنا في حملة ششنق على نتيجة بالغة الأهمية ، وهي أن مملكتي يهوذا وإسرائيل أصبحتا تابعتين لمصر يدفعون الجزية كل عام ، وقد انتقلت العداوة بينهما إلى أحفادهم وظلت لسنوات طويلة وإن تخللها علاقات ودية في بعض الأحيان .

وكانت وفاة يربعام إيذانًا بتغيير واضح في سياسة إسرائيل ، واعتبر ذلك أحد الأسباب الرئيسية التي أدت إلى ضعفها واضمحلالها ، فعلى صعيد العصيان والتمرد نجد أن الخروج على العرف المألوف أصبح السمة الطبيعية في إسرائيل ، - التي لاتتمتع بأي استقرار سياسي أو اجتماعي - فقد أفل نجم ناداب بن يربعام وانتهى الأمر باغتياله في السنة الثانية لحكمه نتيجة مؤامرة نسج خيوطها بعشا بن أخيا (٩١١ - ٨٨٧ ق.م.) من قبيلة يساكر ، وبذلك قضى نهائيًا على أسرة يربعام - الذي كان من سبط إفرايم - (١ ملك ١٥ : ٢٧ - ٢٩) .

ويهمنا في هذا المقام أن نبرز استمرار العداوة بين المملكتين ، حيث ذهب بعشا - ملك إسرائيل - في عدائه لمملكة يهوذا إلى حد التحالف مع «بن هدد» ملك الأراميين في دمشق ، واتجه إلى الجنوب مؤيداً بهذا التحالف ، واستولى على رامة المحصنة - تقع على بعد خمسة أميال من القدس - لكي يغلق الطريق المؤدية إلى يهوذا (١ملك ١٥ : ١٦-١٧) . ولليهود منذ فجر التاريخ أسلوبهم في الدهاء السياسي والذي يتخذونه أساسًا في حل مشاكلهم ، وخير من يمثل هذه السياسة آسا ملك يهوذا الذي نجح في استمالة « بن هدد » إلى جانبه بما قدمه له من العطايا الثمينة ، وبذلك انقلب بن هدد على حليفه ملك إسرائيل . وتتكرر حوادث الاغتيال بقتل ايلاه بن بعشا ثم بإعدام القاتل خلال

أسبوع واحد من اعتلائه العرش ويصبح عمري « قائد الجيش » ملكًا على إسرائيل (٨٨٥-٨٧٤ ق.م.) ، وكان معاصراً لآسا ملك يهوذا (٩١٥-٨٧٦ ق.م.) .

وأقام عمري في ترصة ست سنوات حيث اتخذها عاصمة له ، ولكنه عندما أقام السامرة انتقل إليها متخذًا اياها عاصمة له ، وهنا نقف طويلاً أمام هذا الملك الذي ربما اتخذ سمة التمرد على كل ما هو أكبر منه ، فكان اختياره للسامرة كعاصمة مماثلاً لما فعله داود في اختياره للقدس كمدينة محايدة عاصمة لبني إسرائيل ، ولتكون السامرة منافسة للقدس (١) . فإذا رجعنا إلى الفترة الزمنية منذ عصر يربعام الأول وحتى عمري لنعرف كيف سارت المملكة ، فإننا نرى الأخطار المحدقة بالمجتمع اليهودي في الشمال قد هدأت أيام عمري ، ومن هنا بدأ تفكيره في نقل عاصمته من ترصة بهدف أن يكون لشعبه مكان مقدس للحج مثل الجنوبيين في القدس ، فبنى السامرة في هذا الوقت على طريقة سليمان عند بنائه للمعبد والقصر بملحقاته كما أسلفنا ، وهذا يعني بناء معبد وقصر وحي ملكي بالإضافة إلى سور للمدينة تتخلله بوابات وأبراج (٢) .

وتقع السامرة في وادي « سعير » ولها موقع استراتيجي يسيطر على الطريق الشمالي الجنوبي في مواجهة أي زحف من مملكة يهوذا ، بالإضافة إلى سهولة اتصالها بفينيقيا التي كان يرتبط معها بمعاهدة تحالف وتبعد السامرة عن القدس بحوالي اثنين وأربعين ميلاً إلى الشمال وخمسة وعشرين ميلاً إلى الجنوبي الشرقي من صور . ومن اللافت للنظر أيضًا أن عمري قد استعان بالمهندسين والعمال الفينيقيين في بنا ءقصره وملحقاته كما فعل سليمان من قبل .

---

(١) A. Alt : Essays on O.T., History and Religion, pp. 322-323.

أهاروني - المرجع السابق صفحات ٢٧٧-٢٧٨ .

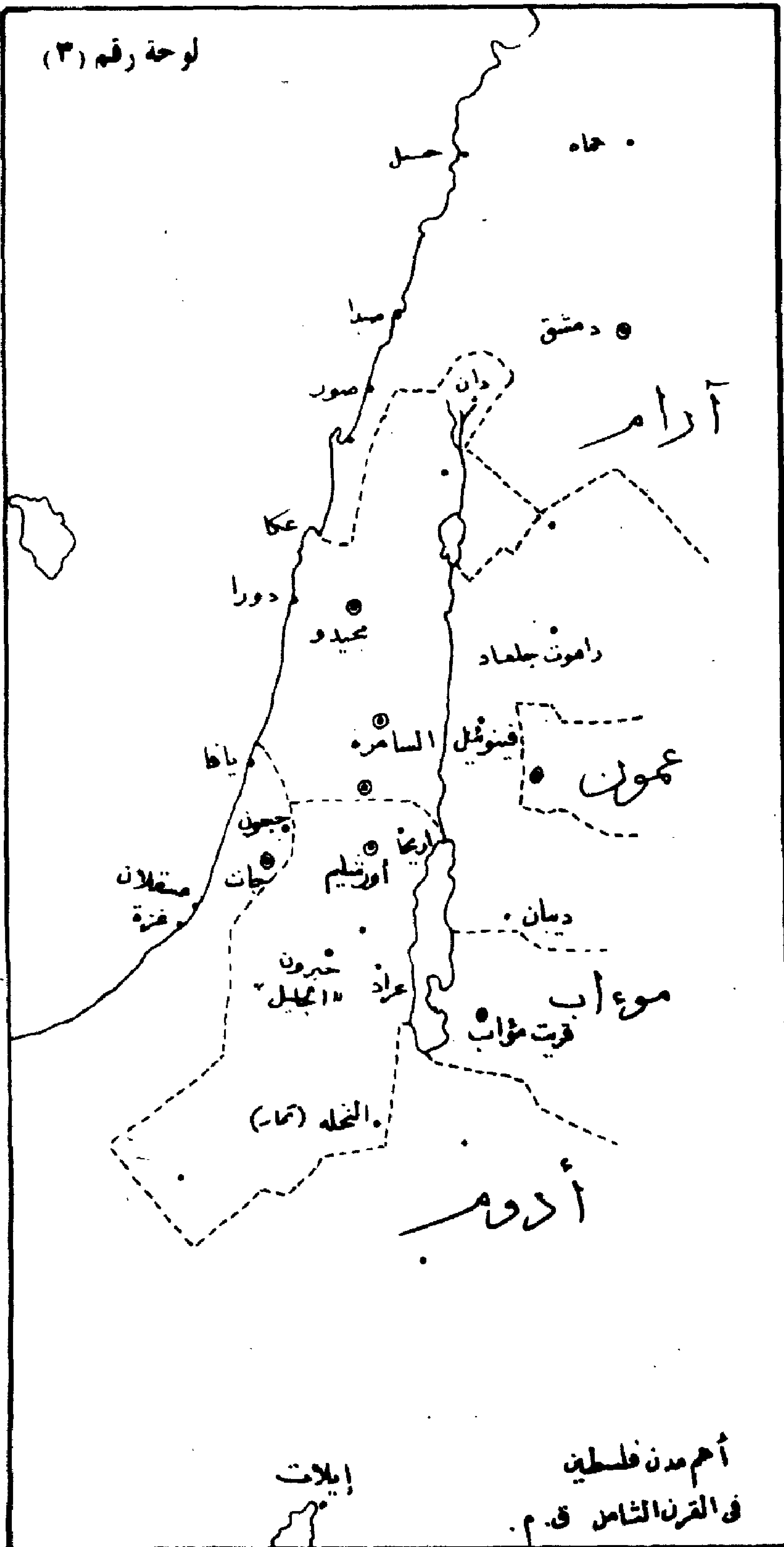
(٢) G.A. Smith : Historical Geography of Holy Land, pp. 227 (1966).

ويبدو أن الكراهية بين الشمال والجنوب قد امتدت آثارها إلى العهد القديم ، الذي كان يتجاهل غالبًا الأحداث التي يرد فيها انتصار المملكة الشمالية على مملكة يهوذا في الجنوب ، وفي ذلك نعتمد على النقوش الآشورية وغيرها في استقاء المعلومات التي يغض العهد القديم عن ذكرها . ويبدو أن عمري قد دفع الجزية لآشور ناصر بال الثالث (٨٨٠-٨٦٠ ق.م.) تفاديًا لصدام مسلح مع آشور ، وهذا يدل على استمرار تبعية إسرائيل لآشور بعد ما كانت تابعة لفرعون مصر ششنق .

واضطر عمري - تحت ضغط بن هدد ملك الأراميين - إلى التنازل عن عدد من المدن التي تقع شرق الأردن ومن بينها راموت جلعاد (١ ملك ٢٠ : ٣٤) ، كما سمح للأراميين مضطرًا بأن يقيموا داخل السامرة أسواقًا خاصة بهم أشبه بالمواني المفتوحة وأعطاهم « حق امتياز التجارة لشعب دمشق » ، ذلك لأن التجار الأراميين اتخذوا من دمشق طريقًا للتجارة ينقلون عبرها تجارتهم إلى ساحل البحر الأبيض ، ولم يحصل عمري للسامريين في دمشق على امتيازات مماثلة [1] (ملك ٢٠ : ٣٥) . وفي مواجهة تهديدات دمشق قام عمري بتوثيق علاقاته مع فينيقيا ، وزوّج ابنه آحاب من ايزابيلا ابنه إتوبعل ملك صور ، وهذا يذكرنا بالتحالف الذي كان قائمًا بين صور وبين داود وسليمان ، وهذا الخط أصبح تقليدًا التزم به ملوك إسرائيل الشمالية بعد ذلك .

وقد تحسنت علاقاته مع مملكة يهوذا - بعد فترة طويلة من التنافس والكراهية تخللتها بعض الحروب - وقد عقد آحاب بن عمري (٨٧٤-٨٥٢ ق.م.) معاهدة تحالف مع يهوشافاط (٨٤٩-٧٦٣ ق.م.) ، ملك يهوذا (٢ ملك ٨ : ١٨) ، وتوثيقًا لتحالف آحاب مع ملك صور فقد سمح بإقامة معبد لبعل صور (ملكارت) في السامرة (١ ملك ١٦ : ٣١-٣٣) ، ومن المرجح أن تكون عبادة الاله الكنعاني أشيرا قد دخلت من قبل إلى السامرة .

(١) Lods : Israel, p. 377.


لوحة رقم (٣)
حماه
دمشق
آرام
دان
صور
عكا
دورا
مجيدو
راموت جلعاد
فينوئيل
السامرة
عمون
يافا
جبعون
جات
أورشليم
أريحا
عسقلان
غزة
ديبان
حبرون
الخليل
عراد
موءاب
قريت مؤاب
النخله (تمار)
أدوم
إيلات
أهم مدن فلسطين
في القرن الثامن ق.م.

ولقد وقفنا في هذا الفصل على دراسة هامة مؤداها أن اليهود ليسوا فقط الشاغلين لفلسطين في القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد ، بل كان المؤابيون والأدوميون والفلسطينيون والآراميون والكنعانيون وغيرهم من العرب يقطنون فلسطين ، وهذا واضح من خلال الصراعات الطويلة في المنطقة ، بالإضافة إلى ذلك فلم تكن المملكتان القائمتان على أسس ضعيفة في وضع يسمح لهما بالاستقرار على الإطلاق ؛ فالصراع بينهما لا يهدأ وكذلك صراعهما مع الآراميين في دمشق ، وهم لا يستطيعون بحال من الأحوال المطالبة بوضع استثنائي لهم في سياق تاريخ منطقة فلسطين ، وجانب كبير من تاريخ اليهود في هذه الفترة يتخذ أشكالاً متكررة ، فالانقلابات العسكرية يكاد يكون طابعها متماثلاً .

وبعد أن انتهى النفوذ السياسي لأسرة عمري بمقتل يورام ملك إسرائيل ، حكمت أسرة ياهو في الفترة الممتدة بين عام ٨٤٢ وعام ٧٤٣ ق.م. ، وكانت السمة الغالبة لهذه الفترة هي سيادة آشور على مملكتي إسرائيل ويهوذا ، ومن ناحية أخرى فقد أطيح بحكم عتاليا [1] (٨٤٢ - ٨٣٧ ق.م.) ملكة يهوذا ،وذلك بإعدامها بعد حكم دام ست سنوات ،ولعل ذلك كان نتيجة لثورة شعبية ضد عبادة بعل (٢ ملك ١١ : ١٥-١٨) . وقصة عتاليا يكتنفها الغموض ، فبعض الروايات يشير إلى أنها بدأت الحكم بذبح كل أمراء الأسرة المالكة - أي جميع أحفادها - ،ويرى لودز أن هذه القصة تبدو كقصة شعبية مشوهة لمذبحة ياهو الذي قتل فيها اثنين وأربعين أميراً من يهوذا (٢ ملك ١٠ : ١٤) ، أو ربما كان مصدرها بعض النبلاء الذين أذلهم حكم ملكة لم تكن من

---

(١) عتاليا هي ابنة آحاب ملك اسرائيل من زوجته الفينيقية ايزابيلا ، وقد تزوجت من يورام بن يهو شافاط ملك يهوذا (٢ ملك ٨ : ١٨) ، ثم تولى العرش بعده ابنه أحازيا الذي قتله ياهو (قائد الجيش الذي اصبح ملكًا لاسرائيل) مع يورام ملك إسرائيل ، وبعد موت أحازيا اعتلت الأم عتاليا عرش يهوذا ست سنوات .

أهل يهوذا ، ولعل ذلك يفسر تفسيراً كافيًا المؤامرة التي أدت إلى الإطاحة بها [١] .

وهكذا استمرت المؤامرات تحاك في الشمال والجنوب مع الاستيلاء على السلطة بكل الوسائل غير المشروعة ، ولكن هكذا عاش اليهود دون أي استقرار على عكس ما يدعون .

وفي فترة حكم يهو آحاز بن ياهو (ملك إسرائيل) خضعت إسرائيل لحزائيل ملك دمشق (٢ ملك ١٣ : ٣) خضوعًا تامًا تحت وطأة السلاح ، وفي نفس الفترة دفع يوآش ملك يهوذا (٨٣٧-٨٠٠ ق.م.) الجزية للملك الآراميين حزائيل .

وفي فترة حكم يوآش بن يهو آحاز (ملك إسرائيل ٨٠١-٧٨٦ ق.م.) - المعاصر لإمصيا ملك يهوذا - هاجم القدس واستولى على كنوز المعبد والقصر ودمر جزءاً من سور المدينة (٢ ملك ١٤ : ١٣-١٤ ، ٢ أخ ٢٥ : ٢٢-٢٣) ولما أكمل انتصاره على يهوذا ، لم يجد بأسًا من ترك أمصيا - بعد هزيمته - ملكًا بلا سلطة تحت نفوذ مملكة إسرائيل ، وهكذا استعادت المملكة الشمالية تفوقها على يهوذا مرة أخرى .

على أن ما نلحظه في هذه الفترة أن أمور الحكم لم تستقر على قوائم ثابتة في إسرائيل بشكل متواصل ، وإن أحوالها لم تهدأ نسبيًا إلاعندما اعتمد يوآش - ملك إسرائيل - على آشور في مساندته ضد آرام ، وذلك بعد أن دفع الجزية إلى الملك الأشوري أدنيراري الثالث (٨١٢-٧٨٢ ق.م.) [٢] .

---

(١) Lods : Israel, p. 385.

(٢) ٢ ملك ١٣ : ٢٤-٢٥ .

راجع : Jos Ant, IX, VIII, 6, 7.

وفي عهد يـربعام الثاني (٧٨٣-٧٤٣ ق.م.) شـهدت مملكة إسرائـيل آخر فترات استقرارها ، وبـعد وفاته عاد التآمر - الذي كان الصفة الـغالبة في الحياة السياسيـة لمملكة إسرائيل - بـاغتيال زكريا بن يربـعام الثاني بعد ستـة أشهر من اعتلائه العرش ، وما لـبث الجاني نفسه أن وقع ضحية مؤامـرة بعد شهر واحد من توليه الحكم ، حيث جـاء مناحم بن جادي (٧٤٥-٧٣٥ ق.م.) من ترصة واستولـى على السامـرة وتولى المُلْك لمدة عشرسـنوات . ويبدو أن هذه الـفترة موضع شك حيث أن ما أورده العهد القديم يـخالف ما جاء في حوليات تغلات فالصـر الأشوري (٧٤٥-٧٢٧ ق.م.) . وهكذا سـادت الفتن داخل إسـرائيل فاستخدم مناحـم النمط الأشوري الوحشي عند استيلائـه على العرش (٢ ملك ١٥ : ١٦) . ونلاحظ أن أول مرة تخترق فيها القوات الآشورية أرض فلسطين كانت في عهد تغلات فالصر الثالث ، ولذلك اضطر مناحم أن يدفع جزية كبيرة حتى يحـتفظ بعرشه ، وعلـــى أثر ذلك غادر الملك الأشـوري أرض إسرائيل (٢ ملك ١٥ : ١٩-٢٠) . وقد عاصـر النبي هوشع هذه الفترة الـتي اتسمت بالاضطـرابات وندد بخضـوع مناحم لآشور (هوشع ٧ : ١١ ، ٨ : ٩) .

يقظة الفلسطينيين وضعف الكيان اليهودي

كان تاريخ يهـوذا كتاريخ إسرائيل يتـحكم فيه التنافـس بين مصر وآشور ، فبـعد فترة قـصيرة من تـولي آحاز ملـك يهوذا (٧٤٢-٧٢٦ ق.م.) اختـرقت قوات آرام وإسرائـيل أرض يهوذا مـن الشمال ، فـي حين ثار الأدوميـون ضد يهوذا في الجـنوب ومن ثم فقدت كل ممتـلكاتها في شرقي الأردن ، واسـتيقظ الفلـسطينيون فـي الغرب وقاموا بغـزو القطاع الشمـالي الغربي ليـهوذا ودمروا المنطقة حتى وادي عجلون ، واستمرت غزواتـهم متكررة متلاحقة تضعضع من كيان يهوذا ، إذ غزا الفلسطينيون المدن الواقعة في سهل فلسطين واستولوا على مدينة بيـت شمش وتمنة وسوكة (٢ أخ ٢٨ : ١٨) ، كل هؤلاء ضـيقوا الخناق

على آحاز الذي هزم واضطر إلى تحصين نفسه داخل القدس ، ومن المحتمل أنه قدم قربانًا بشريًا طبقًا للطقوس الكنعانية القديمة كما فعل ميشع ملك مؤاب من قبل ، ولكن القوات الفلسطينية والأدومية والأرامية أحكمت الحصار (٢ ملك ١٦ : ٥) ، وحتى يتجنب آحاز كل هذه الضغوط أرسل في طلب المساعدة من تغلات فالصر الثالث ودعّم طلبه بإرسال كنوز المعبد وخزائن القصر الملكي ، وفي سبيل تدعيم الصداقة مع آشور أقام آحاز مذبحًا في القدس على الطراز الأشوري وعمل على تشجيع عبادة الكواكب البابلية فى القدس .وقد ندد النبي إشعيا - الذي كان بين المحاصرين في القدس - بالبدع الوثنية وعارض السلطة الملكية معارضة صريحة ، مطالبًا الملك باللجوء إلى الرب بدلاًمن اعتماده على آشور أو تقديمه القرابين البشرية (١ إشعيا ٧ : ٣-٥) .

وطبقًا للمصادر الأشورية فإن تغلات فالصر قد بدأ حملته (عام ٧٣٤ ق.م.) ، والتي أديرت باستراتيجية بارعة بهدف اخضاع آرام وإسرائيل والفلسطينيين حتى يفك الحصار عن يهوذا ، وقد نجح الملك الأشوري في تحقيق هدفه ، حيث سقطت في يده آرام ونفى عددًا كبيرًا من الآراميين إلى آشور ، وبعد سقوط دمشق قامت القوات الأشورية بغزو مملكة إسرائيل التي استسلمت للغزو وفقدت كل أراضيها في الجليل وشرق الأردن . وجاء في حوليات تغلات فالصر عن هذه الحملة ما نصه (قمت بضم جميع مدن بيت عمري (مدن إسرائيل) في حملاتي السابقة ولم أترك سوى مدينة السامرة ... أخذت نفتالي بأسرها وضممتها إلى آشور وعهدت برجالي حكامًا عليها ، وجميع سكان أرض عمري وممتلكاتهم حملت إلى آشور) .

واستمرت إسرائيل تدفع الجزية لأشور حتى اعتلاء سلما نصر الخامس (٧٢٧-٧٢٢ ق.م.) عرش آشور ، وعندئذ رفض هوشع ملك إسرائيل دفع الجزية اعتمادًا على مساندة مصر له ، وفي أعقاب ذلك حاصر سلما نصر

السامرة عدة سنوات توفي خلالها وخلفه سرجون الثاني (٧٢٢- ٧٠٥ ق.م.) على عرش آشور ، وفي السنة الأولى من حكمه - بعد حصار دام ثلاث سنوات - سقطت السامرة (عام ٧٢٢ ق.م.) ، وتبع ذلك سقوط المملكة الشمالية تمامًا في أوائل عام ٧٢١ ق.م. ، وكان التدمير الأشوري لإسرائيل يعتبر تهديدًا مباشرًا للقدس التي تقع على مسافة عشرين ميلاً تقريبًا من الحدود الجنوبية لإسرائيل.

وجاء في حوليات الملك الأشوري سرجون الثاني ما نصه : « في بداية حكم الملك أنا . . . بلد السامريين حاصرتها وفتحتها . . . لأجل الاله . . . الذي جعلني أحرز النصر . . . وقد نفيت ٢٧٢٩٠ شخصًا من سكانها وجهزت من بينهم جنودًا ليقودوا خمسين عربة لأجل حرسي الملكي . . . وقد أعدت بناء المدينة بأحسن مما كانت عليه من قبل وأسكنت فيها أناسًا من ممالك فتحتها (أنا) ونصبت ضابطًا من ضباطي حاكمًا عليهم وفرضت عليهم ضرائب . . » .

وإلى جانب ما تبقى من سكان إسرائيل بعد هزيمتها نقل إليها الأشوريون بعض القبائل العربية : ثمود والعباد (أباديدي وهو اسمها باللغة البابلية) التي هزمها سرجون ، بالإضافة إلى ذلك أحضر ملك آشور عناصر شتى من بابل وكوت وحماة وعوا وأسكنهم مدن السامرة .

سياسة سنحاريب مع الفلسطينيين الأصليين

وعلى هذا النحو ينتهي تاريخ مملكة إسرائيل بسقوط عاصمتها السامرة عام ٧٢٢ ق.م. ، لتصبح مملكة يهوذا الجنوبية معرضة للهجوم الأشوري ، وعندئذ اعتبر ملوك يهوذا أنفسهم خلفاء لملوك إسرائيل ومن ثم حاولوا أن تمتد حمايتهم وتأثيرهم على سكان المملكة الشمالية المنهارة والذين بقوا بعد التغريب الأشوري .

وبعد موت سرجون الثاني خلفه ابنه سنحاريب (٧٢٢-٧٠٥ ق.م.) ، وفي هذه الفترة كان حزقيا ملكًا على يهوذا (٧٢٦-٦٩٨ ق.م.) وقد سار على نهج والده في سياسته المهادنة لآشور ومن ثم فقد استمر في دفع الجزية لها ، بينما حاول التقرب إلى مصر ، ولهذا السبب غضب سنحاريب عليه وصمم على مهاجمة يهوذا ، فلما أحس حزقيا بخطر الحصار الأشوري ، بدأ في تحصين أسوار القدس وشق نفقًا أسفل المدينة انسابت من خلاله مياه جيحون إلى داخلها . وفي تلك الظروف استنجد حزقيا بفرعون مصر الذي لبى نداءه والتقى مع قوات حزقيا في مواجهة سنحاريب شمال عسقلان ، وانتهت موقعة « ايلتكه » بانتصار القوات الأشورية ، ونحن هنا نعتمد على حوليات سنحاريب المنقوشة على جدران قصره في نينوي والتي تشير إلى أنه واصل احتلاله للمدن الحصينة في يهوذا بعد تدميرها ثم سبى من أهلها ٢٠٠,١٥٠ ألفًا من مختلف الأعمار - وهم رقم خيالي مبالغ فيه - بالإضافة إلى الغنائم التي لا تعد ولاتحصى من الجمال والخيول والماشية . ثم قام بتسليم مدن يهوذا إلى ملوك فلسطين في أشدود وعقرون وغزة ، ثم اتخذ لكيش مقرًا لقيادته وقاعدة لانطلاق جيشه لحصار القدس [1] ، ولكن ترك حصارها وسحب قواته إلى نينوي لأسباب وقف عندها المؤرخون بلا إجابة شافية ، ولكن من الواضح أن الأحوال في آشور حتمت عودته ، على أن الأمور أخذت تشير وفقًا لميزان القوى الجديد الذي أحدثته رواية العهد القديم في سرد أحداثه عن مهاجمة سنحاريب لمدن يهوذا واستيلائه عليها (٢ أخ ٣٢ : ١) ، حيث أعقب ذلك اعتذار حزقيا لسنحاريب الذي قام بتحديد قيمة الجزية (٢ ملك ١٨ : ١٣-١٥) ؛ وطبقًا لرواية العهد القديم فقد بعث سنحاريب من مركز قيادته في لكيش جيشًا كبيرًا لحصار القدس ، ولكن ملاك الرب قتل مائة وخمسة وثمانين ألفًا من جيش آشور فكانوا في الصباح جثثًا هامدة ، وقد ترتب على

---

(١) M. Jastrow : The Civilization of Babylonia and Assyria, pp. 177-178.

ذلك فك الحصار عن القدس وعاد سنحاريب إلى نينوي [1] .

وهناك رواية أخرى جاءت على لسان هيرودوت ، أن فرعون مصر أرسل فئرانًا إلي معسكر الأشوريين قطعت أقواسهم ونشرت الطاعون بينهم فلم يجدوا طريقًا سوى فك الحصار والعودة .

ومن الطريف أن تتفق روايتا حوليات سنحاريب والعهد القديم ، على أن حزقيا أرسل في طلب المساعدة من مصر ، وأنه اتخذ لكيش مركزًا وقاعدة لانطلاق قواته لحصار القدس ، وأنه استولى على المدن الحصينة في يهوذا ، ولكن رواية العهد القديم أغفلت المعركة التي انتصر فيها سنحاريب على قوات يهوذا والقوات المصرية وكذلك لم تذكر الأسرى والغنائم التي سباها إلى آشور بينما ذكرت رواية العهد القديم اعتذار حزقيا لسنحاريب ودفعه الجزية المقررة ، كما اعترفت باستيلائه على المدن الحصينة في يهوذا في حين أغفلت عن عمد الإشارة إلى تسليم هذه المدن إلى ملوك فلسطين في أشدود وعقرون وغزة .

وعلى الرغم من عدم سقوط القدس ، إلا أن الجيش الأشوري دمر ما حولها من مدن وسبى أهلها إلى آشور ، وسمح للملك حزقيا بالاحتفاظ بعرشه الهش في القدس فقط مع اعترافه بسيادة آشور وتبعيته لها ودفعه الجزية ، وظل الأمر كذلك حتى انهيار الدولة الأشورية عام ٦١٢ ق.م. وسقوط عاصمتها نينوي ، حيث استغل ملك يهوذا يوشيا (٦٤٠-٦٠٩ ق.م.) الضعف الذي بدأ يدب في آشور في أواخر حكم آشور بانيبال ، فأعلن استقلاله عن آشور وقام بتقوية جيشه ، على أن الأمور أخذت تسير وفقًا لخطته التى بدأها باصلاحه الديني الكبير عام ٦٢٢ ق.م.، وفيه أزال العبادات الوثنية الأشورية وغيرها من العبادات الأجنبية .

---

(١) ٢ ملك ١٩ : ٣٥-٣٦ ، اشعيا ٣٧ : ٣٦ : ٣٧ .

راجع مارينيم : (المجلد الثاني) داود روبنير : بحث بعنوان : « يليشت سنحاريب ليهودا » غزو سنحاريب يهوذا ، ص ١٩٨٣ .

وما أن انحسر سلطان آشور عن سورية وفلسطين حتى زحف فرعون مصر نخاو الثاني (٦٠٩-٥٩٣ ق.م.) شمالاً في محاولة للاستيلاء عليها ، وواجهه يوشيا في مجيدو ولكن ملك يهوذا هزم وقتل في هذه المعركة عام ٦٠٩ ق.م. (٢ ملك ٢٣ : ٢٩) .

ويتضح لنا من تتبعنا لسلسلة ملوك يهوذا وإسرائيل قبل يوشيا ، أن معظمهم سمح بإقامة العبادات الوثنية بجانب طقوس الديانة اليهودية ، وأن الفترة القصيرة منذ منتصف حكم يوشيا ، أصبحت خلالها القدس مركزاً للعبادة الروحية لليهود ، وذلك بعد أن قام بتحطيم عبادة بعل وعشتروت والعبادة النجمية البابلية وقضى على كهنة هذه العبادات وألغى طقوس الدعارة المقدسة التي كانت في المعابد ،وأزال مرتفعات الآلهة عشتروت وكموش ، وكذلك امتد إصلاحه إلى ماوراء القدس ، فأزال المذبح الذي أقامه يربعام بن نباط في بيت إيل . وأغلب الظن أنه في عصر يوشيا تقرر تطبيق الشريعة الموسوية ، وقد ترتب على ذلك الإصلاح الديني أن عثر الكاهن الأعظم حلقيا على كتاب الشريعة المفقود والذي أعطاه ليوشيا للاطلاع عليه ، وما أن قرأه حتى تأكد أن آباءه قد عصوا الرب ، وهو على ما يبدو سفر التثنية - وهو ما يسمى بالشريعة الثانية وهو تلخيص للشريعة الموسوية - وعلى أثر ذلك قام يوشيا بإصلاحاته الدينية سالفة الذكر .

وعلى ذلك فمنذ انقسام المملكة بعد موت سليمان ، والمملكتان في صراع دائم ،حيث نشبت الفتنة واستمرت المؤامرات والاغتيالات واتسعت رقعة النزاع الديني بين الفرق اليهودية بعد أن سمح بإقامة الطقوس الوثنية بجوار المعابد اليهودية المركزية .

الفصل الرابع

تدمير بختنصر للقدس* والمعبد اليهودي

تدمير بختنصر للقدس والمعبد اليهودي

تدمير بختنصر للقدس (٥٨٧ ق.م.)

في ذلك الحين ، أي في الفترة التي تلت وفاة آشور بانيبال بأربع عشرة سنة (سنة ٦١٢ ق.م.) ، شهدت منطقة أرض الرافدين تطورات خطيرة ، كان لها تأثيرها على الصراع داخل منطقة فلسطين ، فقد تحالف أوفاشاترا ملك ميديا (٦٣٣-٥٨٤ ق.م.) مع نبوفالصر ملك بابل (٦٢٦-٦٠٥ ق.م.) ، وهاجما نينوي فدمراها ، وعندما سقطت أمامهما كان الدمار قد لحق بالإمبراطورية الأشورية فاقتسماها وأخذ الميديون أعالي دجلة حتى تخوم آسيا الصغرى ، بينما أصبح ما بقي من الإمبراطورية وسورية وفلسطين تحت سيطرة بنوفالصر وأسرته الكلدانية (البابلية الجديدة) .

وبعد أن تولى نبوخذنصّر [1] (بختنصر ٦٠٥-٥٦٢ ق.م.) الحكم بعد وفاة والده بنوفالصّر ، أراد أن يوطد مركزه في فلسطين - كانت مصر وآرام متحدتين تحت حكم فرعون مصر نخاو الثاني الذي قرر مواجهة القوة البابلية الجديدة - فهزم فرعون في موقعة قرقميش عام ٦٠٥ ق.م.

ومن الواضح أن مصر كانت هدفًا لمطامع بختنصر ، فبدأ بفتح الطريق إليها ، وذلك بإسقاط مملكة يهوذا في القدس ، فعندما شعر ملكها يهوياكين بخطر الهجوم البابلي استسلم في مارس ٥٩٧ ق.م. بعد ثلاثة شهور من توليه الحكم وجنّب المدينة الدمار في ذلك الحين ، وأُخذ أسيراً إلى بابل ، وسبى بختنصر الرؤساء وكل من يصلح للقتال والحرفيين (٢ ملك ٢٤ : ١٣) ، وبعد

---

(١) يعرف بنبوخذ نصر الثاني لأن الأول هو نبوخذ نصر الذي ينتمي إلى السلالة البابلية الرابعة والذي استعاد بابل أيام حكم الأشوريين لها في القرن الثاني عشر قبل الميلاد (١١٢٤-١١٠٣ ق.م.) ، ويعتبر نبوخذ نصر (بختنصر) أشهر ملوك الدولة الكلدانية (البابلية الجديدة) وكلمة نبوخذ نصر أصلها أشوري مكونة من ثلاثة مقاطع معناها « الاله نبوه يحرس الحدود » .

ذلك نكّل بملكهم صدقيا هو (٥٩٧-٥٨٧ ق.م.) ، فذبح أولاده أمامه ثم سمل عينيه ، وذلك بعد أن تمرّد على بختنصر الذي حاصر القدس تسعة عشر شهراً (من يناير ٥٨٨ حتى يوليو ٥٨٧ ق.م.) ، وعلى هذا النحو قام نبوزرادان ، القائد البابلي بتهديم أسوار القدس وتخريب المدينة تمامًا بما في ذلك هدم هيكل سليمان واحراقه (٢ ملك ٢٥) ، كما لحق الدمار بمناطق مختلفة في يهوذا ، منها تل بيت مرسيم وبيت شمش وبيت زور ، أما مدينة صور فقد قاومت الحصار ثلاث عشرة سنة دفعت بعدها الجزية لبابل .

وفي ظل هذا التمزق عيّن بختنصر جداليا بن أحيقام حاكمًا من قِبَل بابل على كل ما بقي من أهل يهوذا وبقية العرب في القدس ، وبعد اغتيال جدايا هرعت أعداد كبيرة من اليهود في الهرب إلى مصر في صحبة النبي إرميا .

وفي عام ٥٨١ ق.م. كرد فعل لقتل جداليا ، سبى بختنصر دفعة ثالثة من اليهود إلى بابل قدرت بحوالي ٧٤٥ فرداً (إرميا ٥٢ : ٣٠) .

وهكذا كانت خاتمة حملة بختنصر ، والتي اقتحم فيها أسوار القدس وحطمها ، ومنذ هذا الوقت لم يقم لليهود كيان سياسي يعتد به في فلسطين إلى ظهور الدولة الصهيونية الحديثة ، فيما عدا كيان صهيوني سمح بإقامته الفرس ودمره الرومان كما سنوضح فيما بعد .

وجاء على لسان لودز تعليقًا على نقش من البرونز يصور مشهداً للرحيل إلى بابل ، إن الرجال ربطوا بعضهم إلى بعض جماعات وذلك لمنعهم من الهرب ، ولكنهم سمحوا للنساء والأطفال بالمسير دون أغلال ، كما سمح لهم باصطحاب ماشيتهم وعربات لنقل احتياجاتهم حتى وصلوا إلى القرى المحددة لهم كمقر لإقامتهم ومعظمها إلى الجنوب من نينوي ، ومن هذه القرى تل أبيب وتل حرشا وتل ملح (عزرا ٢ : ٥٩) ، ويبدو أنهم تملكوا الأراضي التي كانوا يزرعونها في مناطق السبي [١] . وهذا يطابق ما ذكره إرميا في الرسالة

(١) Lods A. : The Prophets.

التي كتبها لهم عقب السبي الأول عام ٥٩٧ ق.م. حيث قال « ابنو بيوتًا واسكنوا واغرسوا جنات وكُلُوا ثمارها » (إرميا ٢٩ : ٥) .

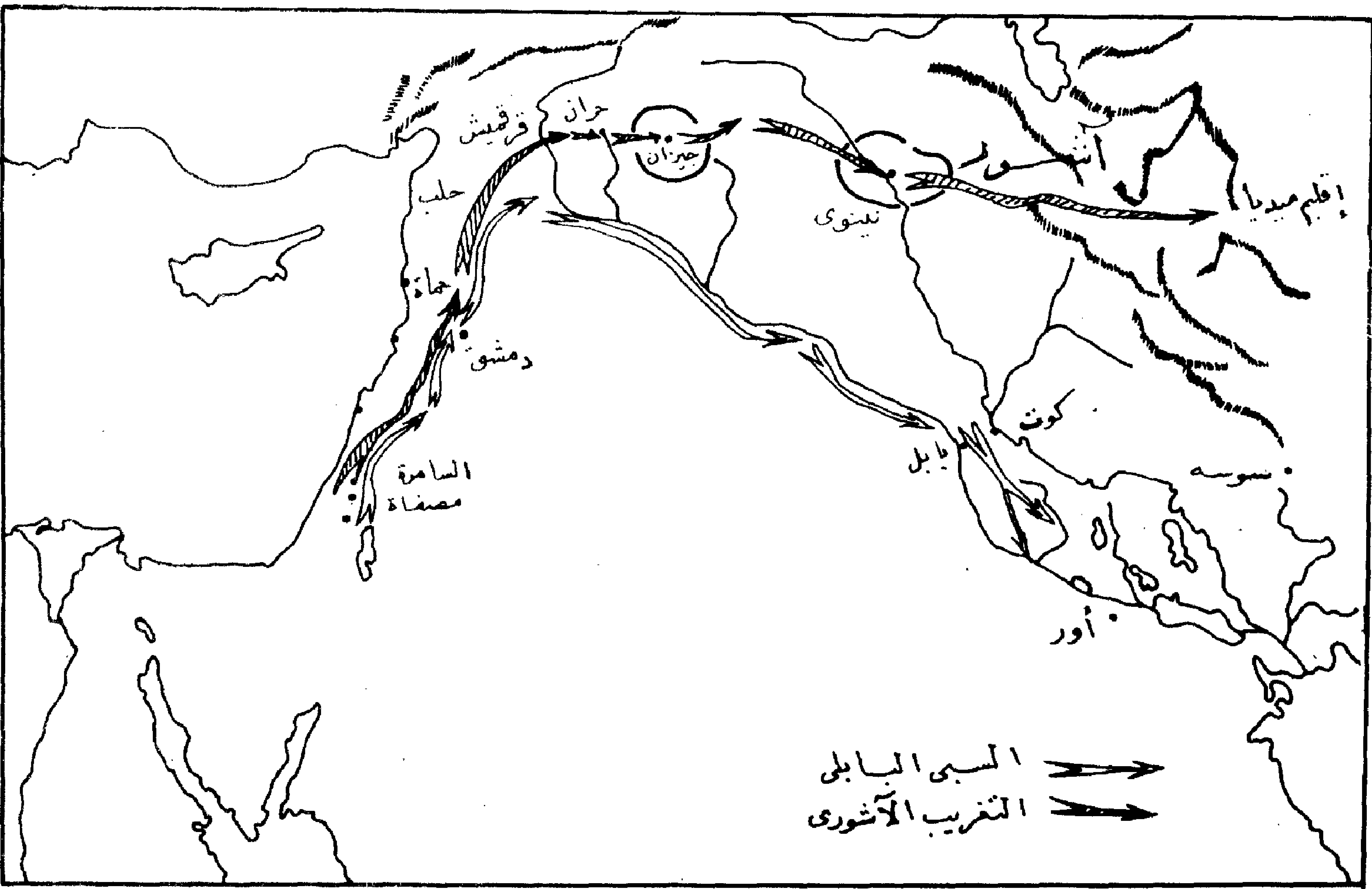
وقد تحسنت أحوال اليهود المادية في السبي البابلي نتيجة اشتغالهم بالتجارة بجانب اهتمامهم بالزراعة ، وهذا هو السبب في أنهم أسهموا في ترميم الهيكل في القدس (عزرا ٢ : ٦٩) .

ومما يجدر ذكره أنه أتيح للفكر الديني اليهودي من زمن السبي أن يدرك أن يهوه هو الاله الواحد للعالم كله ، وأدرك الذين في المنفى أن ما حل بهم من شقاء كان نتيجة مؤكدة لعدم اتباعهم شرائع يهوه ، وتكاثر عدد الأنبياء بينهم في هذه المرحلة وأصبحوا يفكرون في الخلاص على يد يهوه . على أن عدم تمكنهم من إقامة طقوس عبادتهم في المنفى بصورة مكتملة ، يرجع إلى بعدهم عن الهيكل في القدس - حسب ادعاءاتهم - وعدم استطاعتهم تقديم القرابين ، ولذلك غيّروا في طريقتهم لممارسة هذه الطقوس ، فاستبدلوا القربان بالصيام والصلاة ، وتغاضوا عن أداء طقوس السبت من معظم الأحيان .

وفي تلك الأثناء ظهرت فارس كقوة كبرى في الشرق القديم فكوّن قورش - يعرف بـ كورش في اللغة الفارسية - جيشًا ضخمًا تحدى به بابل ، واستولى عليها في عام ٥٣٩ ق.م. دون تنكيل بأهلها ، وجاءت هذه السياسة في البداية صدمة لليهود في السبي الذين كانوا يرحبون بتدمير بابل والتنكيل بأهلها - رغم تمتعهم هناك بحرية العقيدة وثرائهم - وانعكاسًا لسياسة الملك الأخميني قورش ، فقد سمح بعودة اليهود إلى فلسطين وإعادة بناء الهيكل .

ويدعي اليهود كعادتهم أن قورش كان على علم بتنبوءات إشعيا الذي تنبأ له بالنصر ، وكانت رؤية إشعيا أن قورش هو الذي سيعيد اليهود إلى أرضهم ويسمح له بإعادة بناء الهيكل (إشعيا ٤٤ : ٢٨ ، ٤٥ : ١ ، ١٣) ، والواقع أن سياسة قورش تجاه اليهود إنما جاءت تطبيقًا للمبادىء العامة لسياسته ، فيبدو

لوحة رقم (٤)



التغريب الآشوري لمملكة اسرائيل . ٧٢٢ ق.م والسبي البابلي لمملكة يهوذا ومناطق النفي

أن قورش قد أصدر أمرًا بعودة كل الأجناس التي كانت في النفي من بابل بما في ذلك اليهود ، ولكنهم زيفّوا في صيغة المرسوم الملكي حتى يوهموا الجميع بأن مرسوم العودة يخصهم وحدهم ، ولذلك اختفت الصيغة الفارسية من خزائن ميديا في فارس واحتفظوا بالصيغة الآرامية حسبما رأوا .

ومن التناقضات الخطيرة ما أورده سفر الملك الثاني ٢٤ : ١٤ عن قائمة العائدين بأنها تقدر بعشرة آلاف من الرؤساء والحرفيين والصناع ، ثم يذكر في الفقرة ١٧ من نفس الإصحاح ٢٤ أن الذين تم سبيهم ثمانية آلاف ، ولكن سفر إرميا ٥٢ : ٢٨-٣٠ يسرد ثلاث حالات من السبي مجموعها أربعة آلاف وستمائة نسمة . ومن جهة أخرى فإن بعض المؤرخين يجنح نحو الاعتقاد بأن القائمة موضع التساؤل كانت بصيغتها الأصلية إحصاءً شاملاً لليهود المقيمين في يهوذا في عصر نحميا أو بعده ، ولكن كيف يمكن للمرء أن يصدق أن جالية من اليهود المرحلين إلى بابل والتي بلغت حوالي ٤٦٠٠ من الذكور البالغين ؛ استطاعت أن تتزايد وبلغت هذا الحد خلال فترة السبي القصيرة - حوالي ستين عاماً - وكان في مقدورها أن ترسل إلى فلسطين فوجًا مكونًا من ٤٢,٣٦٠ رجلاً ويستثنى من هذا العدد النساء والأطفال ، بالاضافة إلى ٧,٣٣٧ من العبيد إذ لو أضيفوا لبلغ التعداد الكلي حوالي ١٠٠,٠٠٠ وهو رقم مبالغ فيه إلى حد بعيد .

وفي السنة الثانية من حكم الملك دارا - داريوس باللغة الفارسية - (٥١٩-٥٢٠ ق.م.) ، تمّ تعيين زرو بابل بن شالتيل (أحد أعضاء الأسرة المالكة السابقة في المنفى) ، واليًا على يهوذا ومن ثم كان قائدًا لقافلة العائدين من السبي (عزرا ٢ : ٢) ، ويبدو من وراء اختيار زرو بابل كحاكم على يهوذا أن الملك دارا كان يريد بذلك مهادنة أهالي تلك المنطقة خاصة بعد فترة الاضطرابات التي واجهته في بداية حكمه .

ويبدو أن عدد العائدين معه لم يكن كبيراً ، وعند وصولهم وجدوا أسوار القدس مازالت مهدمة ، والقرابين على مذبح أقيم وسط حطام المعبد أيام شيشبصر الذي سبق زروبابل في العودة إلى القدس . واللافت للنظر أنهم وجدوا بقايا اليهود يرفعون شعاراً مؤداه أن الوقت لم يحن بعد لإعادة بناء الهيكل ؛ لكن زروبابل بتعضيد من النبي حجي حث اليهود على إعادة بناء المعبد ، ومع تقدم العمل في إعادة بناء المعبد نادى أيضًا بإعادة بناء أسوار المدينة ولكنه على ما يبدو قد أخفق ، وقد صدق حدسه فقد أثارت عملية بناء الأسوار شكوك السامريين الذي تصوروا أن زروبابل كان يهدف من ذلك أن يجعل من نفسه ملكًا ويخضعهم لسيطرته (عزرا ٤ : ٤-٥) .

ولعل من المهم أن نشير إلى أن كثيراً من اليهود ينكرون على السامريين انتسابهم إلى إسرائيل ، وقد وصل بهم الأمر إلى أن بعض أحبار اليهود اعتماداً على نص سفر الملوك الثاني (٢ ملك ١٧ : ٢٥-٣٣) كانوا يسمونهم « جيران السباع »[(١)] . ولذلك فعندما أعرب أهل السامرة - الذين اعتبروا أنفسم إخوة لليهود العائدين من السبي - إلى زروبابل عن رغبتهم في الاشتراك في بناء الهيكل ، رفض طلبهم على أساس أمر قورش ببناء هيكل يخص فقط أبناء يهوذا العائدين من السبي (عزرا ٤ : ١-٣) . وفي أعقاب ذلك أرسل السامريون إلى الملك الفارسي أكزرسيس الأول (٤٨٥ ق.م.) ، يحذرونه من أن اليهود العائدين من السبي قد شرعوا في إعادة بناء مدينة القدس بعد أن

(١) ويطالعنا أورئيل رفنورط الكاتب اليهودي برأي مخالف تمامًا لوجهة النظر العامة لليهود ، حيث يشير إلى أن السامريين هم من بقي من الشعب ، والذين لم يتم سبيهم من المملكة الشمالية على يد الأشوريين (٧٢٢ ق.م.) ، وكانت لهم توراة تخالف توراة اليهود ، ونضيف إلى ذلك أنه من المحتمل أن جماعات من القبائل الشمالية التي تم سبيها إلى آشور - واستمرت تعيش في السبي مع أبناء يهوذا - عادت مع اليهود العائدين إلى فلسطين خلال فترة الهيكل الثاني ، إلا أنهم لم يتوافقوا مع السامريين الذين كانوا قد بقوا في السامرة والذين كانوا قد كونوا جماعة منفصلة .

راجع أورئيل رفنورط : تولدت يسرائيل بتوفت هبيت هشيني (تاريخ اسرائيل في فترة البيت الثاني) ، صفحات ٢٤-٢٥ .

أكملوا أسوارها ، وبعد استكمال بنائها سيمتنعون عن دفع الجزية ، فأرسل لهم تفويضًا بإيقاف عمليات التشـييد بالقوة (عزرا ٤ : ٢١-٢٤) ، وتوقف العمل في بناء الهيكل حتى السنة الثـانية من حكم الملك دارا ، وبذلك أخفق زروبابل في مهمته .

وبعد بـحث وتنقـيب عثر دارا عـلى مرسوم قـورش الخاص بالعـودة وبناء الهيكل - حسب الروايات اليهودية - مع وصف للهيكل ، وانتهى العائدون من بناء الـهيكل - عـلى حسب نـبوءتي حجـي وزكريا - في شـهر آذار من السـنة السادسة لحكم دارا (عزرا ٦ : ٤-١٦) .

ويبدو أن جنوح خيالهم نحو الإعجاب بهيكل سليمان قد هيأ لهم الظن بأن الهيكل الجـديد أقل فخامة وأبهة مما هـو عليه ، وهذا ما عبّر عنه الـنبي حجي بقوله « من الباقي فيكم الذي رأى هذا البيت في مجده الأول ، وكيف تنظرون الآن ، أما هو في أعينكم كل شيء » (حجي ٢ : ٣) . وكانوا قد أبقوا على المظهـر العام والمغنين وقـدس الأقداس مع بعض الإضافـات المحدودة ، إلا أنه أصبـح خاويًا من تابـوت العهـد الذي ربما احـترق في أيام الخـراب الأول أيام بختـنصر أو توارى في كـهف مجهول عـلى يد النبـي إرميا [(١)] . ورغم ذلـك حدثت ردود فعل عميقة في الديانة اليـهودية ، حيث ارتد عدد كبير من اليهود وتفشى الالحاد بين صفوفهم (ملاخي ٢ : ١٧ ، ١٤-١٥) وامتنعوا عن دفع العـشـور وأخـذوا يطـلقـون زوجاتهـم اليهـوديات ويكـثرون من الارتـباط بالأجنبيات .

ويبدو أن السامريين كانوا يعتبرون أنفسهم عبّادًا ليهوه ، ومن المحتمل أنهم أعطوا يهوه مكانًا مرموقًا في معبدهم في الشمال ، وكان هذا كافيًا لأن يجعلهم ينظـرون إلى الهيكـل في القدس كمعـبدهم كما يـبدو أن عددًا كبيـرًا من أهل

(١) Drops : Israel, p. 234.
Lods : The Prophets, p. 189.

السامرة الذين بقوا بعد التغريب الأشوري ظلوا على ولائهم للهيكل المدمر في القدس ولعبادة يهوه التي كانت هناك ، وأهم ما يعنينا في هذا المقام أن نستدل على ما يمكن اتخاذه قرينة على مدى تمسك السامريين بديانة يهوه - رغم انكار اليهود لهذه الطائفة - فهناك وثيقة هامة تروي قصة من القرن الخامس قبل الميلاد ، مؤداها أن ثمانين حاجًا يتمون إلى شيلوه والسامرة وشيكم (نابلس) عبروا مدينة مصفاة في أكتوبر من عام ٥٨٧ ق.م. - نفس العام الذي دمر فيه بختنصر الهيكل في القدس - حاملين قرابينهم إلى معبد يهوه ، وكانوا حليقي الذقون ممزقي الثياب يملأهم الحزن على خراب القدس ودمار المعبد (إرميا ٤١ : ٥) ، وكان من الطبيعي أن نفترض أن هؤلاء المتعبدين كانوا من أهل السامرة وأن صلتهم الأولى بالهيكل المركزي لم تكن قد قطعت بعد .

هذا من الناحية الدينية ، أما من الناحية السياسية والاقتصادية فيمكننا القول بأن إقليم السامرة كان يتمتع بحالة من الازدهار أكثر من يهوذا فترة من الزمن بعد السبي البابلي وترجع ذلك إلى موقع السامرة المتميز على طريق التجارة بين سورية ومصر .

وتبين لنا مما سبق أن نظرة السامريين لليهود العائدين من السبي على أنهم إخوة لهم ، إذ حاولوا الاشتراك معهم في إعادة بناء الهيكل ؛ إلا أن موقف اليهود كان على العكس يغلب عليه طابع العداء ، ولكن السامريين لم يستسلموا كما أسلفنا وقد نجحت محاولاتهم في وقف العمل في بناء الهيكل بعد أن استبعدهم اليهود من العمل معهم ، وقد استمرت العلاقات بينهم على هذا النحو حتى بعثة نحميا الثانية .

ومن ذلك يتبين لنا أن الشخصية اليهودية هى شخصية معقدة على مر العصور تمتد جذورها إلى أسباب كثيرة متداخلة ومتناقضة ، والتي تتصل اتصالاً مباشراً بواقع الظروف التاريخية التي تعرض لها اليهود ، من اللافت للنظر أن

هذه الشخصية المعقدة قد خضعت لتأثيرات ثقافية متعددة سواء من ناحية اللغة أو المناخ الحضاري الذي يعيشون فيه .

وفي تلك الأثناء استولى الأدوميون على الجزء الجنوبي من يهوذا ، كما تعاون الفلسطينيون والأشدوديون والعمونيون في ضغطهم على يهوذا في القدس .

نحميا والعودة من السبي البابلي

ومرة أخرى جنح خيال أهل يهوذا إلى تصور غريب ، وهو أن نحميا [١] بعد عودته إلى القدس أقام الحراس ليلاً ونهاراً حتى استطاع الانتهاء من إعادة بناء أسوار القدس في اثنين وخمسين يومًا ، وذلك حتى يتجنب غضب العرب والعمونيين والأشدوديين والسامريين ، حتى أن اليهود صوروا نحميا على أنه قام بتوزيع اليهود على المدن المحيطة بالقدس ، وذلك من خلال قوائم أعدها لذلك (نحميا : ٤ : ٧-٩ ، ٦ : ١ ، ١١ : ١) .

ومن الغريب أن يخالف المؤرخ اليهودي يوسيفوس ما ورد في سفر نحميا ، حيث ذكر أن عملية بناء الأسوار استغرقت عامين وأربعة أشهر ، أي في الشهر التاسع من السنة الثامنة والعشرين من حكم أرتاكزرسيس ، ولكنه لم يشر إلى المصدر الذي نقل عنه هذه الرواية . وكذلك يتشكك كثير من المؤرخين في صحة ما جاء في سفر نحميا (٦ : ١) أساسًا عن عملية بناء الأسوار التي تمت بشكل مبالغ فيه ، ويبدو لنا مدى عمق الهوة بين أفكار نحميا والتي كان يشاركه فيها العائدون من السبي ، وبين أفكار وعقائد هؤلاء الذين بقوا في يهوذا بعد السبي ، هذه الخلافات التي بلغت عمقًا جعل الاندماج بين الفريقين

---

(١) استطاع نحميا – الذي كان يعمل ساقيًا للملك أرتاكزرسيس الأول (٤٦٥-٤٢٤ ق.م.) – أن يحصل على إذن من الملك للقيام بزيارة القدس لترميم أسوارها (نحميا ١ : ٢-٣) وكان قد تلقى قبل ذلك بعدة شهور تقريراً عن الحالة السيئة لليهود الذين عادوا مع زروبابل وعن حالة أسوارها المهدمة (منذ تدمير بختنصر للقدس في عام ٥٨٧ ق.م.) .

أمرًا مستحيلاً ، ومن ثم فقد أدرك نحميا تمامًا أن الاصلاحات التي كان يرغب في تنفيذها لايمكن تحقيقها إلا إذا دعمت هذه الأقلية من العائدين ببعثة أخرى تأتي من بابل . وهذه دلالة على أن نحميا لم يتمكن خلال زيارته الأولى للقدس من إنجاز ما جاء من أجله ؛ وقد ترتب على ذلك أنه في عام ٤٣٢ ق.م. نجح نحميا مرة ثانية في إقناع الملك أرتاكزرسيس الأول بتعيينه حاكمًا عى القدس ، وربما عاد إليها في صحبة عزرا ، واستمر نحميا مناهضًا للسامريين على طول الخط ، وكان عداؤه لهم سياسيًا أكثر منه دينيًا .

ومما يجدر الإشارة إليه أنه على الرغم من أن هؤلاء الذين رافقوا عزرا في بعثته الأولى قد تم اختيارهم بحيث يمثلون الأسباط الاثنى عشر ، إلا أن نحميا بعد عودته حاكمًا على يهوذا - برفقة عزرا - تنكّر لممثلي البعثة من القبائل الشمالية ، وفي ظل تلك الظروف أصبح محتمًا وقوع الانفصال بين السامريين واليهود إن عاجلاً أو آجلاً [١] .

المعبد السامري على جريزيم وبداية الصراع بين الطوائف اليهودية

أما بالنسبة للتاريخ والظروف التي مر بها الصدام بين أهل السامرة وأهل يهوذا ، فهناك روايتان مختلفتان إحداهما ما أورده العهد القديم (نحميا ١٣ : ٢٨) ويرتكز على قصة مؤداها أن أحد أبناء يوياداع بن الياشب الكاهن الأعظم قد تزوج من ابنة سنبلط الحاكم السامري ، ولهذا طرده نحميا من الكهنوت ؛ والرواية الثانية تُروى على لسان يوسيفوس المؤرخ اليهودي ، الذي يخبرنا أن النزاع جاء نتيجة زواج منسّا الذي كان أخًا للكاهن الأعظم جادو من امرأة أجنبية تدعى نيكاسو والتي كانت ابنة سنبلط [٢] الحاكم السامري لإقليم السامرة والمعين من قبل الملك الفارسي دارا ، وفي أعقاب هذا الزواج طلب الكاهن

(١) Montgomery : The Samaritans, p. 59.

(٢) سنْبلط اسم بابلي أشوري نطقه بالأشورية سين أو بلّط ، وسين معناها إله القمر والفعل « بلطوا » يعني عاش ، وسين أو بلط معناها « الاله سين يُحيي » .

الأعظم ورجال الكهنوت في القدس ؛ إما طلاق الزوجة أو يتنازل منسّا عن حقوقه الكهنوتية . ونتيجة لهذا الموقف هرع منسّا إلى صهره الطاعن في السن سنبلط طالبًا مساعدته ، فوعده ببناء معبد على جبل جريزيم يماثل المعبد في القدس - بعد تصديق الملك دارا - وأنه سوف يعينه كاهنًا أعظم كما وعده بأن يخلفه في الحكم ، وكان كثير من الكهنة واللاويين قد هاجروا مع منسّا إلى السامرة حيث أكرمهم سنبلط .

وتتفق كلتا الروايتين بالنسبة لزواج أحد أعضاء أسرة الكاهن الأعظم من ابنة سنبلط ، غير أن العهد القديم (نحميا ١٣ : ٢٨) لم يذكر اسم ذلك الكاهن واكتفى بالإشارة إلى أنه أحد أبناء يوياداع وحفيد الكاهن الأعظم الياشب ، في حين رواية يوسيفوس تذكر أن اسمه منسّا وأنه شقيق الكاهن الأعظم جادو الذي كان معاصراً للاسكندر الأكبر ، ولهذا فالحادثة طبقًا لرواية يوسيفوس [١] تقع ما بين عامي ٣٣٢ ، ٣٣١ ق.م. أي بعد نحميا بقرن كامل ؛ والواقع أن نحميا قد قصر حديثه على طرد منسّا واستبعاده من الكهنوت ، في حين أنه لم يشر إلى أن هذا التصرف من جانبه كان من الأسباب الهامة التي أدت إلى إقامة المعبد السامري المنافس على جبل جريزيم .

ويجدر بنا هنا أن نتعرف على رأي كولي [٢] من مناقشته لروايتي العهد القديم ويوسيفوس ، حيث يذكر أن الإشارة إلى سنبلط من سفر نحميا تبدو صعبة جداً حيث يتكلم عنه كخصم لدود (نحميا ٣ : ٣٣-٣٤) « لما سمع سنبلط أننا آخذون في بناء السور غضب واغتاظ كثيراً وهزأ وتكلم أمام إخوته وجيش السامرة وقال ماذا يعمل اليهود الضعفاء . . . » ، وهذه إشارة واضحة إلى أن سنبلط قد حظي بنصيب من السلطة في السامرة ، حيث كان حاكمًا عليها حوالي عام ٤٠٨ ق.م. ، وإذا دققنا النظر فيما جاء برواية يوسيفوس

---

(١) Ant. XI, 7, 2.

(٢) A. Cowely : Aramaic Papyri of the Fifth Century. B.C. (1923), pp. 109-110.

فإننا نجد أنها تختلف عن رواية نحميا ، فهو يذكر أن سنبلط قد أُرسِل إلى السامرة حاكمًا عليها في عهد دارا ، وربما كان رأيه صحيحًا إذا كان يقصد دارا الثاني ، ولكنه بكل تأكيد يطلق عليه دارا الأخير فهو لذلك يخلط بين دارا الثاني ودارا الثالث (٣٣٦-٣٣١ ق.م.) ، ونتيجة لهذا الخلط فهو يؤخر الحوادث حوالي مائة سنة ، حيث يذكر أن ابنة سنبلط تزوجت من منسًا شقيق جادو الكاهن الأعظم الذي كان معاصراً للاسكندر الأكبر ، ويجعل بذلك سنبلط على علاقة بالاسكندر الأكبر بعد أن هزم دارا الثالث في معركة إيسوس عام ٣٣٣ ق.م.

ونتيجة لذلك نجد صعوبة في أن نوفق بين رواية يوسيفوس والروايات الأخرى ، فإذا كان سنبلط حاكمًا للسامرة في عهد ٤٠٨ وقد كبر أبناؤه ، فربما كان عمره على الأقل أربعين عامًا ، وهي حقيقة من الصعب تصديقها ، ولذلك يجب أن يكون قد عاش ٧٦ عامًا بعد ذلك حيث أن يوسيفوس حدد وفاته في عام ٣٣٢ ق.م. (١) .

والرأي القائل أنه كان هناك شخصان باسم سنبلط كل منهما حكم السامرة ولكل منهما ابنة تزوجت شقيق الكاهن الأعظم في القدس ، فإن هذا الحل يبدو غير مقنع ، وعلى هذا فنحن مجبرين إلى أن نقرر بأن رواية سنبلط المعاصر لنحميا تقف على أساس متين مع الحقائق الأخرى ، وأن يوسيفوس قد أخطأ بخلطه بين دارا الثاني والثالث ، وربما توالت الأحداث في روايته بعد ذلك ولكنها ليست متعاصرة تعاصراً سليمًا (٢) .

وهكذا نجد أن قصة سنبلط لا تتقيد بخط مستقيم من تسلسل الأحداث ، فروايتا العهد القديم ويوسيفوس هما حالتان تتعاقبان على كثير من المؤرخين ، ففي كلتا الروايتين نجد أنفسنا أمام سؤال بالغ الأهمية يحتاج إلى إجابة . . .

---

(١) Ant. XI, 8, 4.

(٢) A. Cowely : Aramaic Papyri of the Fifth Century. B.C. (1923), pp. 109-110.

وهو متى بدأ الشقاق بين أهل يهوذا وأهل السامرة وهل كان بناء المعبد السامري على جبل جريزيم تأكيداً لهذا الشقاق أم أنه كان بداية ؟؟. وسوف نحاول هنا دراسة الآراء المختلفة حول بداية هذا الشقاق بعد أن تبينا طرفًا من التاريخ والظروف التي مر بها الصدام بين أهل السامرة وأهل يهوذا بعد العودة من السبي البابلي .

ويبدو في رأي بعض المؤرخين أن إصلاحات نحميا الصارمة فيما يختص بالزواج كانت من الأسباب المباشرة لهذا الشقاق ، غير أن أولمستد يرى أن بداية الشقاق الحقيقي إنما يرجع إلى إقامة المعبد السامري على جبل جريزيم ، على أن الانفصال تم في وقت لاحق [١] . في حين يرى جاستر أن الشقاق قد بدأ منذ عمليات التغريب الأشوري واستيطان بعض القبائل العربية (ثمود والعباد) في إقليم السامرة ، وقد وصف جاستر هذا الشقاق بأنه كان دينيًا في حقيقة الأمر أكثر من كونه سياسيًا [٢] . بينما يرى مونتجمري أن الشقاق ربما قد حدث في وقت متأخر عن العصر اليوناني مخالفًا بذلك يوسيفوس الذي أعاده إلى عصر الاسكندر الأكبر [٣] .

ورغم تباين هذه الآراء فإنه لا يوجد دليل واضح لبيان البداية الحقيقية لهذا الشقاق ، وسوف نحاول أن نمسك الخيط من بدايته .

قبل العودة من السبي البابلي كانت كل من يهوذا والسامرة متقاربتان من حيث الأوضاع الاجتماعية التي سادت كلا منهما ، فكانت يهوذا يشغلها كل من الفلسطينيين (اليبوسين) والأدوميين والعمونيين ، وهم الذين لقبوا في سفري نحميا عزرا « شعب الأرض » ، مما دفع مركز الثقل لأهل يهوذا إلى الاتجاه شمالاً نحو السامرة ، ولذلك تواجد جداليًا الحاكم اليهودي على المتبقين

---

(١) Olmstead : History of Assyria, p. 595.

(٢) Gaster : The Samaritans, p. 35.

(٣) Montgomery : Op.Cit., p. 68.

في يهوذا - بعد سقوط القدس على يد بختنصر - في مصفاة التي تقع شمال القدس (إرميا ٤١ : ١) ، وهكذا نجد أن أهل يهوذا وأهل السامرة كانوا واقعين تحت ظروف واحدة تقريبًا في عصر السبي في القرن السادس ق.م. ، ومن المرجح أن الحكام البابليين والفرس كانوا يتخذون من إقليم السامرة مركزاً لهم ، ولذلك فإننا نفترض أن أرض فلسطين في الجنوب والتي كان يشغل جزءاً منها أهل يهوذا - بعد سقوط القدس - قد أصبحت تحت سيطرة حكام السامرة ، ومن هنا يرى مونتجمري أن خصومه أهل يهوذا وأهل السامرة قد تميزت بطابع سياسي قبل أن يكون دينيًا (١) .

والواقع أننا لا نستطيع الجزم برأي قاطع في هذه المسألة الهامة ، إلا أننا يجب أن نميز بدقة بين عنصرين أساسيين أولهما هروب منسّا إلى السامرة ، وهذا واضح في سلسلة أحداث نحميا والتي ربما تحولت بطريق الخطأ في رواية يوسيفوس إلى عصر الاسكندر الأكبر كما أسلفنا ، والثاني هو بناء المعبد السامري والذي نُسب أيضًا إلى عصر الاسكندر ، وبينما العبارة التي تتناول منسّا يشوبها كثير من الشك إلا أن الأخرى والتي تتعلق ببناء المعبد السامري في عهد الاسكندر أقرب إلى الصواب وتؤيدها عدة حقائق هامة ؛ أولها اتفاق أهل السامرة وأهل يهوذا في قبول الأسفار الخمسة التي تمت مراجعتها وتطويرها كاملة ، ولو كان الانفصال حدث حوالي عام ٤٣٠ ق.م. - وهذا التاريخ متقدم قرابة قرن من التاريخ الذي حدده يوسيفوس قبل أن تأخذ الأسفار الخمسة شكلها الحالي ، فإنه من البديهي أن نُقرّ بأن التوراة الكاملة لا يمكن أن تكون قد جمعت وصُنِّفت في ظل هذا العداء بين أهل يهوذا وأهل السامرة ، ولأثبتت التوراة السامرية (٢) انتمائها إلى فترة سابقة على ذلك ، وإذا فرضنا أن

---

(١) Montgomery : Op.Cit., pp. 58-60.

(٢) التوراة السامرية : يبدو أن التوراة السامرية هي أقدم آثار الأدب السامري إذ أنها قديمة قدم الطائفة نفسها ، وتتفق مع النص العبري (المسورت وهو الكتاب المقدس الموجود بين أيدي اليهود) في كثير من =

التوراة في هذا الوقف فقط (٤٣٠ ق.م.) كانت موجودة وأنها قبلت بشكل عام ، وأن الكاهن المطرود منسّا قد حملها معه إلى السامرة !! إذن من المسؤول عن هذا التجديد والتصنيف ؟ والإجابة كما جاءت من التراث الرباني بأن التوراة فُقدت وأن عزرا قد استعادها وجمعها وهي لم تكن موجودة على هذه الصورة التي بين أيدينا ، فقد قام عزرا بتجميعها وتصنيفها من مصادر مختلفة بترجمة ما جمعه من هذه المصادر إلى اللغة العبرية بعد صياغتها وإكمالها حيث جاء في سفر عزرا أنه كاتب توراة موسى (عزرا ٧ : ٦) ، وهناك مغزى على قدر كبير من الدلالة ، ألا وهو تشابه العبادة السامرية وطقوسها مع طقوس العبادة اليهودية ، وقد ظهر هذا التأثير اليهودي جليًا في الفترة التي تلت نحميا .

ومن المدهش أننا لا نجد أي إشارة عن العبادة الوثنية لدى السامريين بعد تشييد معبدهم على جبل جريزيم ، ويبدو أن اختفاء هذه العبادات من السامرة خلال هذه الفترة إنما يعود إلى ما قام به منسّا والكهنة الذين عادوا معه إلى السامرة حاملين الأسفار الخمسة .

= الوجوه ، كما أنها تتألف من خمسة أسفار ، هم التكوين والخروج واللاوين والعدد والتثنية . وينسب السامريون واليهود التوراة إلى موسى ، حيث أنها أنزلت عليه في طور سيناء (ولكنها حرفت بعد ذلك لأنها لم تجمع وتصنف إلا بعد موسى بحوالي ألف عام) ، وتغطي هذه الأسفار الخمسة فترة من التاريخ تبدأ من بدء الخليقة ، وتنتهي بوفاة موسى على جبل نبو في شرق الأردن حوالي ١٣٠٠ ق.م. ، ومما يجدر ملاحظته أن نص التوراة السامرية يختلف عن النص العبري الحالي (الموروث) في نقاط عديدة ، إلا أن الاختلافات الجوهرية قليلة . ومن المرجح أن يكون اليهود أنفسهم هم الذين حرّفوا في النسخة الأصلية أكثر من السامريين .

ويشير رشيوني إلى أن اختلافات النص السامري عن النص العبري يصل عددها حوالي ٦,٠٠٠ ستة آلاف معظمها على ما يبدو اختلافات كتابية ونحوية باستثناء أمثلة قليلة حرّفها السامريون لصالحهم .

Ricciotti : Israel, p. 127.

ومن هذا يتبين لنا أن مجتمع اليهود في السامرة كان يميل إلى التشبه بحضارة العنصر الغالب في البيئة التي يعيشون فيها ، مثلهم في ذلك مثل المجتمع اليهودي في القدس الذي عاش هناك في دهاليز الإهمال وزوايا النسيان أو ما يشبه ذلك .

الفصل الخامس

الصراع الديني بين الهيكل في القدس والمعبد الإسرائيلي في الشمال

الصراع الديني بين الهيكل في القدس والمعبد الإسرائيلي في الشمال

سنحاول في هذا الفصل عمل دراسة مقارنة بين المعبد الإسرائيلي في الشمال والمعبد اليهودي الجنوبي المركزي في القدس ، لكي نصل إلى حقيقة الصراع الديني الدائم بين قبائل الشمال والجنوب ، بعد أن تتبعنا الصراع السياسي الدائم وعدم الاستقرار والفتن وأساليب المؤامرات وأعمال الاغتيال بين الملوك في داخل كلتا المملكتين ، كما أسلفنا . وقد ترتب على ذلك أن كثرت المشاحنات والمعارك الدينية بين المتزمتين والمنحلين الذين سمحوا بإقامة طقوس وثنية من الديانة الكنعانية ، وقد انتهى ذلك بتضعضع الكيان اليهودي والوجود السياسي لهم في فلسطين بعد أن دمره سرجون الأشوري في السامرة عام ٧٢٢ ق.م ونبختنصر البابلي في القدس عام ٥٨٧ ق . م .

الديانة الكنعانية وتأثيرها على الطقوس اليهودية

لم يمض وقت طويل على اقتحام بني إسرائيل أرض كنعان ، حتى كان الغزاة الإسرائيليون باستثناء بعض القبائل مثل الركابيين[١] قد اندمجوا تمامًا مع أهل كنعان حيث تشربوا كثيراً من عاداتهم وطقوسهم الدينية [٢] .

ولقد استمرت المعابد الكنعانية تخدم الكنعانيين والإسرائيليين نتيجة الاندماج بين الغزاة والمقهورين ، ومن هنا بدأ الإسرائيليون في التعرف على الطقوس الكهنوتية الكنعانية ، وكان أمراً محتمًا أن تتأثر الديانة اليهودية بالديانة

---

(١) كانت قبائل الركابيين تدين بالولاء في عبادتهم بإله إسرائيل القومي ومن المحتمل أن يكون هؤلاء القوم كان ينظر إليهم على أنهم المثلين الحقيقيين لشعب إسرائيل كشعب متميز عن الكنعانيين .

(٢) حزقيال قويفمان : تاريخ العقيدة اليهودية في العصور القديمة وحتى نهاية البيت الثاني - المجلد الثاني ص ٣٠٢ .

الكنعانية وخاصة فيما يتصل بطقوس الزراعة ، حيث أنه من المعروف أن الزراعة كانت ترتبط دائمًا بالديانة في العصور البدائية ، وكانت أوجه النشاط الزراعي المختلفة (من حصاد . . . الخ) تعتبر جميعها طقوسًا دينية ، فعندما يقوم شعب رعوي بالتكيف مع مجتمع زراعي فإنه من المحتم أن يتشرب ديانة المجتمع الزراعي ، ومن هنا أصبحت الأعياد الكنعانية أعيادًا إسرائيلية .

أما فيما يتصل بمسألة الكهنوت فإنه من الصعب أن نحدد ما إذا كان عنصرًا أساسيًا في المعابد الكنعانية أم لا ، ذلك أن الضحية كانت فيما يبدو تذبح بواسطة مقدم القربان نفسه ، ولذلك من الصعب أن نقرر ما إذا كان من الممكن للشخص العادي أن يقوم بحرق الدهن ثم صب الدم على المذبح . وعلى أي حال فقد كان هناك كهنوت منظم في المعابد الكبيرة العامة ، لكن يبدو أن مهمة الكهنوت لم تكن وراثية لأن الكاهن كان هو الوسيلة للحفاظ على التراث الديني والحارس على الأيقونات . والأهم من ذلك كله كان الكاهن هو الشخص الوحيد الذي يعرف أفضل الطرق لاظهار المعجزات عن طريق تقديم القرابين ، وقد أصبح للكاهن تدريجيًا دور آخر في المجتمع ، وهو تسوية المنازعات وتطبيق القانون [1] .

ومن الصعب تحديد مدى التداخل بين عمل الكاهن وعمل القديسين لأن هؤلاء القديسين ، فيما يبدو ، كانوا من أصل كنعاني فهم رسل الرب الذين بعث بهم لتنمية القدرات الإنتاجية للطبيعة ، ومن ثم يمكن إرجاع فكرة التضحية بالابن الأول إلى هؤلاء القديسين ، فمع انتفاخ الرحم يكون الزواج قد أثمر ، ويرجع ذلك الاثمار إلى الاتحاد مع روح الرب التي تمثلت في جسد الزوج ، ولذلك فإن أول مولود يجب أن يكون ملكًا للرب . وقياسًا على ذلك فإن وظيفة ما كان يعرف بالمرأة المقدسة يعتبر امتدادًا لهذه الطقوس وتلك

---

(١) J. Gray : The Canaanites pp. 135 - 138

العبادات الوثنية ، كما أن القديسين - بخلاف الكهنة - كانوا لايقيمون في المعبد حيث أن قدسيتهم لاتتطلب الإقامة فيه أو تقديم الذبائح .

أما بالنسبة للقديس إبان عصر الملكية ، فقد كان يمثل شخصية بارزة في المجتمع الإسرائيلى (إشعيا : ٣ : ٢ ، ميخا ٣ : ٧) ، وقد انقسمت طبقة القديسين إلى طبقتين رئيسيتين ، الرائى والنبى وكانت هاتين الطبقتين في البداية منفصلتين ولكنهما في نهاية الأمر أصبحتا متماثلتين [١] .

المعبد الكنعاني وطقوسه

من المهم أن نوضح أنه أثناء الفترات التي كان فيها حكومات مركزية قوية في مصر وبابل ، كان هناك معبد مركزي لكبير الألهة بالإضافة إلى معابد للآلهة الأخرى ، لكن المعابد التي كانت موجودة في كنعان لم يكن من بينها معبد يمكن أن يطلق عليه المعبد الرئيسي لبعل ، وذلك لعدم وجود حكومة مركزية قوية في كنعان ، فالإله بعل الكنعاني كان واحدًا من الناحية النظرية إلا أنه من الناحية الواقعية كان له حرم في كل مكان ، ومن المحتمل أن يكون نفس الشيء بالنسبة لبقية الألهة الكنعانية وخاصة الأشيراه (أم الآلهة) وعشتروت (آلهة الخصوبة) .

وقد تم اكتشاف أول المعابد الكنعانية في أريحا وآخر في مجيدو ، ويرجع تاريخها على وجه التقريب إلى عام ٣٠٠٠ ق . م ، واكتشفت كذلك ثلاثة معابد أخرى في مجيدو يرجع تاريخها إلى عام ١٩٠٠ ق. م ، وكانت معظم هذه المعابد عبارة عن غرفة واحدة مستطيلة الشكل لها باب واحد على أحد جوانبها الطويلة . كما تم اكتشاف بعض المعابد الكنعانية التي يرجع تاريخها إلى

(١) Ency. Religion : Israel, p 442 .

G. E. Wright and D.N . Freedman : The Biblical Archaeologist Reader 1 (1961) p. 174 G. Gray : Op Cit., p. 70 .

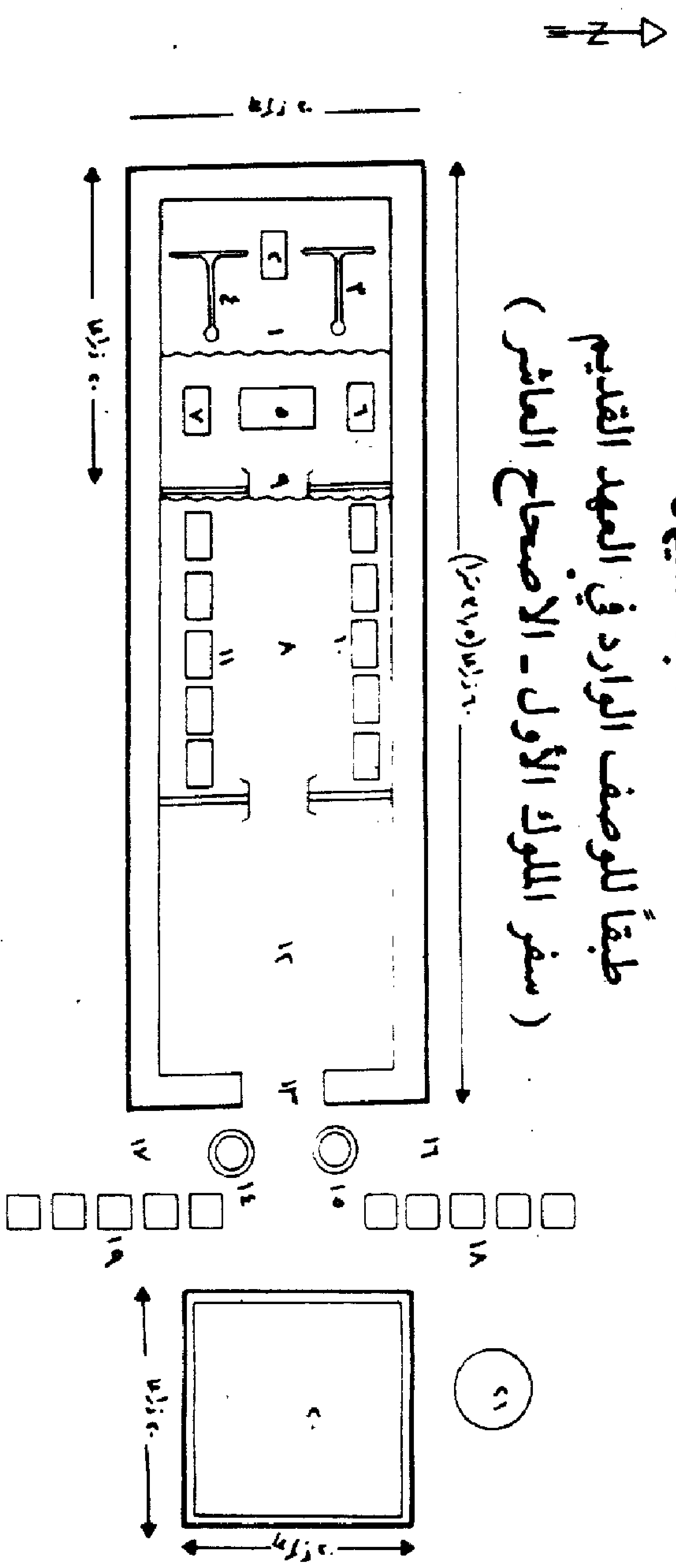
حـوالي عام ١٥٠٠ ق . م ، وهـي تـتميز بـأنها ذو شكـل مربـع لـه مدخل خاص .

وقد تم اكتشـاف معبد كنعـاني في بيت شان حـوالي عام ١٣٠٠ ق . م ، وكان نقـطة تحول في تصمـيم المعبد الكـنعاني ، فهـو يتكون من غرفـة خاصة مربعة الشـكل تقع في نهاية الـغرفة الرئيسية لـلمعبد ويتم الوصـول إلى الغرفة العليا بواسطة بـعض المدرجات حيث يوضع تمثال للإله ، وتمثل الـغرفة العلوية قدس الأقداس الذي كان يعتبر صفة مميزة لمعـبد سليمان فيما بعد ، وكانت هذه الصفة المميزة موجودة أيضًا في معابد مصر والعراق . وقد بنيت في غرفة المعبد الرئيسية مدرجات لكي توضع عليهـا القرابين ، كما كان هناك مذبح صغير أمام التمثـال المرتفع حيث تقـدم البخور فـي الغرفـة العلوية وربما كانـت توقد أيضًا بعض الشموع . وفي الفناء الخارجى للمـعبد يوجد المذبح الرئيسي حيث تحرق القرابين .

والتصميم العام للهيكل في القدس يكـاد يماثل تصميم المعبد الكنعاني على هذه الصـورة مع اختلافات غـير جوهريـة ، أهمها أن قدس الأقـداس كان في نهاية المعبـد . كما أنه تم اكتشاف معبد لبعـل في رأس شمرة أبعاده ٤٠ × ٢٠ مترًا وهو يعتـبر أحسن تخطيط للمعبـد الكنعاني قبل بناء الهـيكل في القدس . ويتجه معبد رأس شـمرة من الشمال إلى الجنوب وهو يتكـون من فناء خارجى يحتوي عـلى المذبح (٢,٢ × ٢ م) ، ثم يليـه فناء ضيق إلا أنه أكـثر طولاً ويحتوى على تمثال للإله ، ويوجد للمعبد مدخل غير مباشر من الجانب الغربي وهذا المدخل في مواجهة المذبح .

ومن المهم أن نوضح أن المتعبدين في إسرائيل كانوا مثل جيرانهم الكنعانيين عندما اعـتقدوا في أن العبادة يجـب أن تكون في أماكن مقدسـة وليس في أي مكان يختاره المتعبد ، ولكن نقطة الخلاف الرئيسية كانت في اعتقاد بني إسرائيل

لوحة رقم (٥)



١- قدس الأقداس (المحراب)
٢- تابوت العهد المقدس (تابوت الشهادة)
٣، ٤- تمثالان من الكروبيم يظللان تابوت العهد
٥- المذبح الذهبي للقرابين
٦- منضدة تحمل الشمعدانات السباعي
٧- منضدة مصنوعة من الذهب لخبز التقدمة
٨- البهو المقدس (القاعة الوسطى)
٩- باب يفصل قدس الأقداس عن القاعة الوسطى أسدل عليه ستارة مطرزة بالأرجوان
١٠، ١١- على كل جانب خمس مناضد للمسارج والشرع من الذهب
١٢- قاعة المدخل وليس بها أثاث ديني معين
١٣- باب المعبد الخارجي
١٤- عامود من النحاس على الجانب الأيمن لباب المعبد ويسمى ياقين
١٥- عامود من النحاس على الجانب الأيسر لباب المعبد ويسمى بوعز
١٦، ١٧- سلالم يوصلان إلى الطابق العلوي حيث غرف الكهنة وباقي مرافق الهيكل
١٨، ١٩- أحواض لغسل الذبائح خمس على اليمين وخمس على اليسار لغسل المحرقات
٢٠- مذبح من النحاس لتصعيد القرابين التي تحرق بالنار
٢١- بحر النحاس لكي يغتسل فيه الكهنة

في الأماكن المقدسة ، على أنها ديار الرب حيث يتجلى فيها ، ولذلك فلم يكن هناك تحديد لمكان الرب في المعابد المختلفة كما كان يظهر في الديانة الكنعانية (١) .

الاختلافات الرئيسية بين المعبد الجنوبي والمعبد الشمالي

يمكننا أن نجمل الاختلافات الرئيسية بين المعبد الجنوبي والمعبد الشمالي في النقاط التالية :

أولاً : كان المعبد الجنوبي معبداً رعوياً بينما كان المعبد الشمالي معبداً زراعياً ، وهذا يعني أن النشاط الرئيسي اليومي يبدأ في المعبد الجنوبي في الصباح المبكر ، بينما يبدأ في المعبد الشمالي الزراعي ليلاً بعد العودة من الحقول .

ثانياً : كان المعبد الجنوبي يخضع لسلطة دينية متشددة جداً ، بينما غلب روح التسامح على المعبد الشمالي ، وذلك لأن مجتمع الزراعيين في الشمال كان مستقراً ومنفتحاً على فينيقيا ، وهذا يبين لماذا لم تظهر الدعارة المقدسة إلا في وقت متأخر جداً في أيام يوشياهو وكانت هذه الظاهرة بالطبع عدوى من الشمال (٢) (عاموس ٢ : ٧ - ٨ ، هوشع ٤ : ١٤ - ١٩) .

ثالثاً : كانت تسود المجتمع الرعوى في الجنوب روح القبيلة لأنه ينقسم إلى مجتمعات صغيرة ، مما يجعل انتشار الفسوق به أمراً صعباً ، وذلك على عكس المجتمع الزراعي في الشمال الذي كان يخضع لمؤثرات خارجية كثيرة منها انفتاحه على المجتمعات الأخرى .

---

(١) G.E Wright and D.N. Freedman : Op . Cit., pp. 174 - 175

J. Gray : Op . Cit., p 71.

(٢) E.W. Heaton : The Hebrew Kingdoms pp. 24, 25

راجع : W.R. Smith : The Prophets p. 99

رابعًا : كانت أعياد المجتمع الرعوي المهمة هي الربيع لأنه عيد نتاج الغنم (عيد الجز الذي يبيعون فيه الصوف) ، بينما كانت أعياد الزراعة هي أعياد المطر والحصاد وربما تداخلت مع الأعياد اليهودية ، ومع ذلك فربما أخذ عيد الربيع في القدس شكلاً من المؤكد أنه كان أكثر مما أخذه في السامرة على الأقل ، لأن عندهم عيدين ، عيد البوريم (الكرنفال) وعيد الفصح ، وربما تداخلت هذه الأعياد نظرًا لوجود مجتمعات بعضها رعوى وبعضها زراعي يجمعها دين واحد ، ومن هنا كانت ازدواجية المجتمع الإسرائيلي . فهو زراعي على السهول الزراعية ، ورعوى على سفوح الجبال والهضاب وفي بعض الأقاليم الصحراوية كصحراء يهوذا من أريحا إلى القدس إلى المجدل جنوبًا ، وصحراء النقب من القدس إلى بئر سبع ، ويفسر هذا التعبير العبري الذي يرد في العهد القديم أكثر من مرة من دان إلى بئر سبع (١ صم ٣ : ٢٠) ، دان في سهل الحولة وبئر سبع في صحراء النقب أي من الشمال إلى الجنوب ، (من الحضر إلى البدو - من الفلاحين إلى الرعاة) ولذلك استعمل للشمال اسم مبسط وهو دان وللجنوب اسم مدينة بئر سبع .

خامسًا : كان المعبد في المجتمع الزراعي أميل إلى الاعتماد على الخطباء والمنشدين والشعراء ، أما في المعابد الرعوية فكانت تميل إلى استعمال الآلات الموسيقية أي آلات النقر « الدف » (قضاه ١١ : ٣٤ ، ١ صم ١٨ : ٦ ، مزامير ٦٨ : ٢٥) ، آلات النفخ (الأرغول) والآلات الوترية (القيثارة) [أنشودة ديبورة - قضاة: ٥]، وقد كان داود من الجنوب مشهوراً بالإنشاد على نغمات الآلات الموسيقية (١ أخ ٢٥ : ٦) ، وفي كثير من المزامير التي أعدت للطقوس يذكر في أولها اسم أو أسماء الآلات الموسيقية المصاحبة ، وذلك لأن البدوي كان أميل لأن يكون المعبد الديني مرحًا لأن حياته نفسها ليست مرحة ، أما الاحتفال الديني في

المجتمع الزراعي فكان فخمًا مؤثرًا ، لأن المرح كان ظاهرة يومية ؛ ولذلك نظمت أماكن للموسيقيين والمنشدين في هيكل أورشليم على عكس معبد السامرة الذي لم يشتهر عنه ذلك [١] ، فعلى سبيل المثال نجد في الشمال أنبياء مثل الياهو أو هوشع أو عاموس خطباء وشعراء من الطراز الأول وكلامهم ووعظهم كله زجر ووعيد وتحذير ، ولذلك اكتسبوا هيبة كبيرة ضد ملوك الشمال ، بينما لقى أمثالهم الإهانة في يهوذا وخصوصًا النبي إرميا الذي واجه الاعتداء عليه في الطريق ومات قتيلاً .

سادسًا : من المهم أن نوضح أن المسائل اختلطت في أواخر عصر اليهودية في فلسطين قبل السبى البابلي . حيث ظهر خطباء في الجنوب مثل إرميا كما تقاربت الطقوس مع بعضها البعض ، فعلى الرغم من كل ما عمله ملوك إسرائيل لمنافسة الهيكل في القدس ، لم يستطع معبد السامرة وبيت إيل أن يمنع الحجاج الشماليين من الاتجاه إلى الجنوب .

سابعًا : كانت تقسيمات المعبد الجنوبي مريحة حيث كان يتم الدخول إليه من أبواب معينة للمدينة المقدسة ، وبعض هذه الأبواب كانت توجد بجانبها محكمة ، وبعضها كانت توجد بجانبها سوق مخصصة (سوق للخيل ، سوق للسمك) . وتحت البعض منها كانت توجد مساكن الخصيان الذين يعملون حرسًا للحريم في القصور . كما كانت هناك أسواق تؤدي إلى المعبد ، حيث يكون الشخص الذي اشترى الضحية قد وجد في الثلث الأول من المعبد - وهو الفناء المكشوف - مائدة القرابين التي يذبح عليها

(١) Albright : Archeology of Religion of Israel pp . 166 - 167.

حيث يشير إلى أن موسيقي المعبد ومغنيه الأوائل كانوا كنعانيّ الأصل أو تعلموا على يد الكنعانيين ، وعندما وضع داود موسيقى الإنشاد الديني وهي التي تبعها سليمان من بعده ، لم يكن لديهما نموذج يسيران على هديه إلاَّ النماذج الكنعانية . ومما يؤكد ذلك أن طوائف الموسيقيين المتأخرين كانوا يفخرون بنسبهم إلى أسر تحمل أسماء كنعانية .

الذبيحة ويغسلها في بحر النحاس (حوض ماء) ، وهناك جماعة لحرق القرابين ، وحول كل هذا تصدح فرق المنشدين ، وبعد ذلك يدخل الفرد لبهو الصلاة بلا فرق موسيقية حيث يؤم الكاهن الأعظم الصلاة ويقيم الطقوس . ويوجد حول المبنى كله بعض أحواش مخصصة « للجوييم » لايتجاوزونها . نجد بعد ذلك على الروابي وفي الضواحي القريبة وحتى تخوم المعبد دور الخمر وأسواق لبيع كل شيء من البضائع المحلية والمستوردة (مثل الكتان المصري والأحجار الكريمة من آسيا الصغرى وفارس) ، كل هذا كان لايمكن تهيئته للمعبد الشمالي بنفس الطريقة ، حيث كان أساس الطقوس في الشمال هو الموعظة .

ومما يجدر بالملاحظة أنه عند إعادة بناء المعبد الثاني على يد نحميا ، كان عزرا ونحميا والكهنة قرّاءً للكتاب المقدس حيث لم يكن يوجد منشدون مثلما كان الأمر في أيام داود وذلك لأنهم تربوا في مجتمع ديني زراعي في بابل ، ولايمكن مقارنة حفل تدشين الهيكل أيام داود بحفل تدشينه أيام عزرا الذي جرى بطريقة بسيطة .

ثامنًا : من المرجح أن المملكة الشمالية عاشت لمدة طويلة نسبيًا دون كاهن أعظم ودون هيكل مثل هيكل سليمان ودون سلطة دينية ضخمة ، ولذلك تعرضت لهذا التأثير من الوثنية الذي أسلفنا الحديث عنه ، بينما كان الكاهن الأعظم والنبي في الجنوب يستطيع أن يوجه اللوم إلى الملك .

فالوازع الديني في الشمال لم يكن نابعًا من سلطة كهنوتية (الياهو) ، وذلك لأن القصر الملكي في الشمال كان وليد انقلاب ، ولذلك فإن الملك لم يكن يريد أن تشاركه سلطة كهنوتية . بينما تشكل الوازع الديني في الجنوب ببطء وعلى مهل ، وكان الكاهن الأعظم مساعداً للسلطة الحاكمة على توطيد

نفوذها ، ولذلك كانت السلطة الحاكمة لها احترامها [١] ، وهذا يفسر لنا أن الرجل الإسرائيلي في الشمال استمر في الاعتقاد في نقاء الديانة الموسوية في الجنوب . فكان يذهب إلى الحج إلى القدس (أورشليم) رغم أنف السلطة الحاكمة ؛ حتى بعد إقامة معبد جريزيم . فبعضهم كان يذهب إلى جريزيم وبعضهم إلى بيت إيل والجلجال والمصفاة (عاموس ٥ : ٥ هوشع ٥ : ١ ، ٦ : ٩) وبعضهم إلى القدس وبعضهم إلى جبل الكرمل وبعضهم إلى شكيم ، وهذا يعني أنهم في الشمال كانوا في ضياع [٢] ، بينما كانت السلطة الدينية في الجنوب مركزية وكانت القبلة بمثابة المعبد المركزي والحرم وكان للمعبد آداب وتقاليد ، أي كانت فيه أحواش معينة لايدخلها إلا النساء وأخرى لايدخلها إلاّ الملك والكهنة (قدس الأقداس) .

إذن لماذا فشل معبد الشمال ؟ . . في الغالب لأن معبد أورشليم كان أكثر شعبية . فالمعبد الشمالي كان أشبه بالمعبد الفينيقي . كما أسلفنا القول ، حيث كانت الطقوس تقام حوله في الهواء الطلق أما دخول المعبد فكان للزيارة والتبرك . ومن الواضح أن المعبد في الشمال مثل المعبد الفينيقي ، كان مبنى ليس فيه الأقسام المورقة مثل المعبد المصري أو المعبد في القدس ، فالطقوس التي كان يقوم بها كهنة البعل كانت في معابد صغيرة الحجم وكان لكل كاهن معبد (كان عدد كهنة البعل ٤٠٠ كاهن) ، فعندما أقيمت المباراة الكبيرة بين النبي الياهو وكهنة البعل . أقام الياهو مذبحًا في الهواء الطلق ، وهذا يؤكد أن معظم الطقوس كانت تقام حول المعبد في الهواء الطلق [٣] .

---

(١) E.W. Heaton : The Hebrew Kingdoms (1968) p. 143.

(٢) W.R. Smith : Op . Cit., pp 98 - 99.

(٣) G.E. Wright Op. Cit. Reader 1 pp. 174 - 175.

راجع : K. Kenyon : Digging Up . Jerusalem pp. 125 , 127 , 128 .

ومما يجدر ذكـره أن اسم يهوه كان بمثابة سـور منيع ضد دخول الوثـنية في الجنوب ، حيث أن يهوه أكثر إيغالاً في الـعالمية وهو الإله الواحد الذي اتخذته يهوذا عن يعقوب .

كان للمعبد الذي أقيم في السـامرة وصف في كتب الآثار وليس له وصف في العهد القديم ، يضاف إلى ذلك أن السامرة كانت محطة مواصلات محلية ، بينما الـقدس كانت محطة مواصـلات دولية . فهي طريق العـرب القادمين من أرض مدين ، وطـريق الآشوريين والبابـليين والحيثـيين إلى مصر ، كمـا كانت معبراً لموانىء البحر الأبيض مثل يافا وحيفا .

الفصل السادس

القدس في العصرين اليوناني والرّوماني

القدس في العصرين اليوناني والرّوماني

القدس في العصرين اليوناني

فقد اليهود استقلالهم السياسي منذ الغزو الأشوري والكلداني ، حيث أطاح الأشوريون بمملكة إسرائيل عام ٧٢٢ ق . م ، كما أطاح الكلدانيون بمملكة يهوذا عام ٥٨٧ ق . م ، وانتقلت السيادة من الكلدانيين إلى الفرس عام ٥٣٩ ق . م ، ومن الفرس إلى الاسكندر الأكبر عام ٣٣٣ ق . م ، بعد سيادة الفرس التي دامت حوالي قرنين [١] . وقد استمرت فلسطين تحت سيادة البطالمة حوالي قرن (٣١٩ - ٢٢١ ق . م) في عهد البطالمة الثلاثة الأوائل ، ولكن في عام ٢٢٠ ق . م نجح انطيوخوس الثالث الملك السلوقي في السيطرة على فينيقيا وفلسطين [٢] ، وبذلك أصبحتا تحت سيطرة السلوقيين فترة من الزمن (٢٢٠ - ١٨٧ ق . م) ، عادت بعدها فلسطين إلى سيادة البطالمة حتى عام ١٦٤ ق . م ، ثم عادت مرة ثانية إلى سيطرة السلوقيين التي استمرت حتى الفتح الروماني لفلسطين عام ٦٣ ق . م على يد بومبي [٣] .

قرر اليهود - منذ سيادة الفرس على فلسطين - أن ينظموا أنفسهم ليكونوا مجتمعًا سياسيًا دينيًا جديدًا ، ولكن الشكل الجديد للمجتمع اليهودي بعد العودة من السبي كان يختلف اختلافًا جوهريًا عن ذي قبل ، فمنذ هذا الوقت أصبح الحكم ثيوقراطيًا تحت سيطرة الكهنوت ، بمعنى أن أصبح الشكل الجديد للمجتمع اليهودي دينيًا أكثر منه سياسيًا فقد كان تأثير الكهنة سائدًا ربما منذ عصر عزرا ، والواقع أن تسمية الكاهن الأعظم لم تأت من كونه الموجه

---

(١) E. Schurer : A History of Jewish people in the time of Jesus (1978) , p . 13

(٢) د. إبراهيم نصحي : تاريخ مصر في عصر البطالمة (١٩٧٦ - الطبعة الرابعة) جـ ١ صفحات ٧١ ، ١٤٣ .

(٣) إبراهيم نصحي : المرجع السابق جـ ١ ص ٢٧٢ .

الأعظم للعبادة فقط ، ولكن لكونه علـى رأس التنظيم السياسى ، وهى سلطة طائفـية بمعنى أن تجـمع الزكاة من الـيهود وتتـولى إدارة القضاء بـينهم وتنـفيذ الأحكام الشرعية فيهم ، واستمر منـصب الكاهن الأعظم وراثيًا بحيث أنه كان يرأس مـجلسا لـلسنهـدرين كجهـار تنفـيذي ، ويبدو أن هـذا الشكل الجـديد للمجتمع اليهـودي الذي أسفلناه قد استمر أثناء فترة السيـادة الفارسية والسيادة الاغريقية [١] .

الاسكندر وفلسطين

بعد أن دحـر الاسكندر الأكـبر داريوس الثـالث ملك الـفرس في موقـعة إسوس في خريف عام ٣٣٣ ق . م ، توقع المجتمـع اليهودي في فلسطين قدراً من الحرية أكثر من التي منحهم إياها ، وحسب رواية يوسيفوس فإن الاسكندر عنـد حصاره لمديـنة صور أرسل إلـى الكاهن الأعـظم في القـدس يطلب مـنه المساعدة في حصارها بإرساله جنـوداً من اليهود ، فرفض الكاهن الأعظم ولاء منه للـملك الفارسي دارا الـثالث . ونتيجة لـذلك ثار الاسكندر وصـمم على الانتقام من الـكاهن الأعظم اليهودي بعـد أن ينتهي من السيـطرة على صور ، وقد انتهز هـذه الفرصةسنبلط حاكـم السامرة الذي سار ومعه سـتة آلاف مقاتل من السامريين لمساعدة الإسكندر في حصاره لصور . ونتيجة لهذه المساعدة طلب سنبلـط موافقة الإسكندر عـلى بناء المعبد السـامري على جبل جريـزيم لصهره الكاهن منسًا الـذي انشق عن المجتمع اليهودي في القـدس ، فوافق الإسكندر على طلـبه . وبعد استيـلاء الاسكندر على صـور بمساعدة السـامـريين سار إلى القدس ليـنتقم من الكـاهن الأعظم الذي خرج لاستـقباله خارج المديـنة ومعه الكهـنة في ملابسـهم البيضـاء ، وعند رؤية الإسكـندر الكاهن الأعـظم هب لتحيته ، وقـد أوضح الإسكندر لقواده سبب تصرفه هـذا الذى أدهشهم ، بأن

---

(١) E. Schurer : Op . Cit., p . 14

الكاهن الأعظم قد تـراءى له في الحلم مبشراً إياه بالنصـر على الفرس ، وبعد ذلك ذهب معه الإسـكندر إلى الهيكل فـي القدس حيث قدم القرابـين ليهوه ، وهناك عرض عليه الكاهن سفر دانيال الذي تنبأ له بأن أحد قواد الاغريق سوف ينتـصر على الإمبـراطورية الفارسيـة ، وعلى أثر ذلك قـبل اليهود الخـدمة في جيش الإسـكندر [١] كمـا ذكر يوسـيفوس أن جـنود سـنبلـط الذين سـاعدوا الإسكنـدر عند حصاره لصـور ، أحضرهم معـه إلى مصر وأقطعـهم أرضًا في طيبة وعينهم حـراسًا على هذا الإقليم[٢] ، ومن المهـم أن نشير إلـى أن رواية يوسيفوس عن تواجد السامريين في طيبة في عصر الإسكندر لا تستند على أدلة واضحة ؛ وإذا سلـمنا جدلاً بصدق دعواه علـى أنه كان في إقليم الفـيوم قرية تسمى السامرة إلا أن إقليم الفيوم لم يكن جزءاً من منطقة طيبة ، ومن المحتمل أن يكون سكان هذه القرية من السامريين الذين أحضرهم بطليموس الأول على نحو ما أورده يوسيفوس نفسه ، ومن المرجح أنهم جاءوا مع توافد اليهود على مصر منذ بداية عصر البطالمة [٣] .

ومما يجدر ذكـره أن كثيراً من المؤرخـين رفضوا رواية يوسيـفوس عن زيارة الإسكندر للقدس التي انفرد بذكرها ، ومن بينهم تشركوفر حيث ذكر أن روايته فيمـا يتعلق بتـقديم الكاهن الأعظـم لسفر دانيـال إلى الإسكندر لا تقـوم على أساس تاريخى سليـم ، حيث أن السفر حتى عصر الإسكنـدر لم يكن قد وجد بعد . وإنما تم جـمعه بعد الإسكنـدر بحوالي خمسـين سنـة وبالتالـي فإن قصة زيارة الإسكنـدر للقدس وتقديمه القـرابين إلـى يهوه لاتقوم أيـضًا على أساس متين [٤] .

---

(١) Jos : Ant, XI , VIII , 4

راجع مصطفى عبد العليم : المرجع السابق ص ٣٠ .

(٢) Jos.: ant . XI, VIII, 6

(٣) مصطفى عبد العليم : المرجع السابق ص ٣١ .

(٤) Victor tcherikover : Hellenistic Civilization and the Jews (1979) p . 45

ومن المهم هنا أن نورد رواية أبي الفتح الكاتب السامري الشهير في القرن الرابع عشر الميلادي عن زيارة الإسكندر للسامرة ومقابلته للكاهن الأعظم السامري ، والتي تبدو واقعية إلى حد بعيد لارتباطها بوقائع تاريخية . حيث أشار إلى أن الإسكندر عندما حاصر صور طلب مساعدة السامريين فلم يطيعوه وذلك لتحالفهم مع صور . ومن ثم فقد سخط عليهم الإسكندر سخطا شديدًا ، فبعد أن هزم صور تحول إلى السامرة وكان قد عقد العزم على معاقبتها ، وعندما سمع أهل السامرة بحضوره خرجوا لملاقاته حاملين توراتهم وعلى رأسهم كاهنهم الأعظم ، فلما نظر الإسكندر إليه أسرع في النزول عن فرسه وقبل الأرض بين يديه وطلب مباركته ، فاندهش قواده لما فعله الإسكندر ثم فعلوا كما فعل وقالوا له أن أهل السامرة قد سحروك ، ولكي يفسر موقفه هذا ذكر أن الملاك الذي تراءى له في الحلم - أثناء حصاره لدارا الملك الفارسي - هو نفسه الكاهن الأعظم وقد هبط عليه من السماء ، وقال له لاتخف فإن الله معك وجميع أهل الأرض في طاعتك وأنت عليهم منتصر ، ومن ثم فقد أعطى أهل السامرة عطايا كثيرة وقال لهم إن إلهكم أعظم من كل الآلهة . وعند عودته من مصر مرة ثانية قال للكاهن الأعظم أن يبني له على جبل جريزيم مكانًا يضم صورته مثل بقية الشعوب ، فتضايق أهل السامرة وصعدوا إلى الجبل وصاموا وصلوا للرب ليرشدهم إلى حل يتخلصون به مما امرهم الإسكندر . فأرشدهم الرب - حسب أقوال أبي الفتح - بأن يسموا كل ولد من ذكر وأنثى باسم الإسكندر ، وعندما عاد إلى السامرة ولم يجد منصة ولا صورة ثارت ثائرته وقال للكاهن خالفتموني ، فأخبره بأنهم أقاموا له صوراً ومناصب لها عقول تتكلم ، وطلب من رزق في تلك المدة بأولاد فحضروا فزعق عليهم باسم الإسكندر فأجابوا جميعًا بنعم فاستحسن الإسكندر ذلك ، وعندما عرف الكاهن الأعظم بشأن الحلم قال للإسكندر ما أريدك أن تفعله هو أن تؤمن بالله ولا تشرك به أحدًا ، وصعد مع الإسكندر على جبل جريزيم

حيث سجد « لله عز وجل » وقال إله هذا المكان هو إله الآلهة القادر الذي جعل الممالك بيدي ، وسمح لهم ببناء مكان للعبادة على جبل جريزيم [١] .

وبينما كان الإسكندر في مصر ، أحرق السامريون أندروماخوس الذي كان الإسكندر قد عينه حاكمًا على جوف سوريا [٢] وهربوا من السامرة ، فأثار هذا الحادث حفيظة الإسكندر الذي قرر الانتقام بأن دمر مدينة السامرة ، وكانت هذه أولى علامات الثورة في سورية وفلسطين ومن المحتمل أن الإسكندر بعد تدميره للمدينة أسرع إلى بابل بعد أن كلف بيرديكاس (٣٢٣ - ٣٢ ق . م) بإعادة بنائها وتوطين المقدونيين بها .

وقد تصدى تشركوفر لهذا الرأي حيث افترض أن الإسكندر وهو في طريقه من مصر إلى صور - عندما علم بحرق السامريين لأندروماخوس - قد كلف بيرديكاس بمعاقبة السامريين ولم يكن الإسكندر نفسه هو الذي قام بهذا العمل ، كما أنه أمر بيرديكاس بتوطين جالية مقدونية في السامرة بعد ذلك[٣] . كما أشار الكاتب اليهودي أوريل رففورط إلى أن الإسكندر قد أعطى إقليم السامرة إلى اليهود وأعفاهم من الجزية بعد حرقهم أندروماخوس ، ونتيجة لذلك أصبحت شكيم مركزًا لتجمعهم [٤] . وأضاف جاستر أنه في أعقاب ذلك صحب الإسكندر عددًا كبيرًا من اليهود والسامريين حيث استقروا في مصر

---

(١) أبو الفتح بن أبي الحسن السامري الدنفي : تاريخ السامريين (١٣٥٢ م) صفحات من ٤٦ - ٤٨ .

(٢) جوف سورية كان إقليمًا يشمل فلسطين وجنوب سوريا ويحده شمالاً جبل حرمون (الشيخ) وشرقًا نهر الأردن وغربًا البحر الأبيض - غير أن سوريا البطلمية تشمل جوف سوريا وفينيقيا . راجع إبراهيم نصحي جـ ١ ص ٧١ .

(٣) Tcherikover : op . Cit . p 84

(٤) Montgomery : op . Cit . p 79

وقد اعتمد مونتجمري على ما جاء في يوسيفوس . Jos : Contra Opionem II 4.

راجع أوريل رفغوط تولدوت يسرائيل بتقوفت هبيت هشيني (تاريخ إسرائيل في فترة البيت الثاني) ، ص ٥٦ .

وبذلك حملوا نزاعهم العنيف من فلسطين إلى مصر [١] .

ومما يثير دهشتنا أننا نلاحظ أن أبي الفتح في روايته التي أسلفناها لم يشر إلى قتل السامريين لأندروماخوس حاكم جوف سوريا ، ولا إلى تدمير الإسكندر للسامرة نتيجة لذلك ، ولا إلى إعادة بنائه للسامرة .

وبناء الأحداث على هذه الصورة له الآن ما يؤيده من المعلومات الأثرية . فلقد أثبت العالم جـ. أرنست رايت أنه من خلال الأبراج الهيلينية التي ظهرت في ذلك الوقت في السامرة والتي بنيت على الطراز الاغريقي ، بالإضافة إلى المعلومات التي وردت في أوراق البردي التي عثر عليها في كهف وادي الداليا والتي تعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد ؛ إن الإسكندر قد قام بتدمير السامرة وكلف بيرديكاس بإعادة بنائها وتوطين جالية مقدونية فيها ، ومن المحتمل أن قادة السامرة الذين تورطوا في الأعمال الثورية التي أدت إلى مقتل الوالي قد هربوا من السامرة عندما علموا بمسيرة الإسكندر العاجلة إلى المدينة ، ويبدو أنهم سلكوا الطريق الرئيسي خلف وادي الفرعة إلى الصحراء ووجدوا ملجأ مؤقتًا في كهف وادي داليا ، كما هرب عدد كبير من العائلات السامرية وكان معهم ما يكفيهم من الزاد وقد اكتشف مكانهم المقدونيون ، إما عن طريق البحث الدؤوب أو عن طريق الخيانة من جانب زملائهم الذين ظلوا في السامرة وقد ذبحوا بقسوة عن آخرهم [٢] .

وبوفاة الإسكندر الأكبر في عام ٣٢٣ ق . م يبدأ في العالم الاغريقي العصر الذي أطلق عليه « العصر الهليني » والذي ينتهي بموقعة أكتيوم عام ٣١ ق . م وهي التي بعدها بسط الرمان سلطانهم على مصر [٣] ، وقد

(١) Gaster Op . Cit . p 33

(٢) D. Noel and F . Edward : the Biblical Archaologist Reader 3 pp 236 - 237

(٣) إبراهيم نصحي : المرجع السابق جـ ١ ص ٣٩ .

راجع د. فؤاد حسنين : فلسطين العربية صفحات ٨٠ - ٨١ .

قسمت الدولة المقدونية بين قواده إلى دويلات ، وكانت مصر من نصيب بطليموس الأول « سوتر = المنقذ » (٣٢٣ - ٢٨٣ ق. م) وفي عام ٣١٩ - ٣١٨ ق . م استولى على فينيقيا وجوف سوريا ، وفي هذه الفترة كان قد هاجم القدس واستولى عليها ، وكانت الظروف تضطره أحيانًا إلى الانسحاب من جوف سوريا ثم العودة إلى احتلالها مثلما حدث في عامي ٣١٢ ، ٣٠٢ ق . م [١] ، ثم استقرت أوضاع البطالمة في فلسطين ٣٠١ ق . م ، وكان من الطبيعي أن ينقل بطليموس الأول معه إلى مصر نتيجة لهذه الحملات عددًا كبيرًا من الأسرى من يهوذا ومن السامرة ، أي أنه نقل معه أسرى من اليهود والسامريين وقام بتوزيعهم في مصر وأعطاهم فى الاسكندرية امتيازات مساوية للمقدونيين أنفسهم [٢] .

وقد اتفقت أقوال كثير من المؤرخين على أن عدد الأسرى من اليهود والسامرين الذين أحضرهم بطليموس الأول كان مبالغًا فيه إلى حد كبير ، وحتى في أوائل العصر الروماني كان اسم سوريا ما يزال يطلق أيضًا على فلسطين ، ولما لم تكن لدينا وسيلة للتمييز بين اليهود والسوريين في الوثائق ، فإنه لاجدوى في السعي إلى تحديد دقيق لعدد اليهود الذين حضروا مع بطليموس الأول إلى مصر [٣] .

---

(١) إبراهيم نصحي : المرجع السابق جـ ١ صفحات ٧١ ، ٧٨ - ٧٩ .
راجع مصطفى عبد العليم : المرجع السابق ص ٣٣ .

(٢) Jos : Ant, XII , 1,I
Ricciotti : vol . II, p 154
راجع : Ency . Britanica : vol . 19 , p . 918
ويذكر د. مصطفى عبد العليم أن بطليموس الأول قد نقل أسرى اليهود إلى مصر خاصة بعد موقعة غزة عام ٣١٢ ق . م . راجع مصطفى عبد العليم : المرجع السابق ص ٣٣ .

(٣) E. Schurer : op . Cit., p. 14
راجع سليم حسن : مصر القديمة ج ١٤ صفحات ٧٣٤ - ٧٣٥ .
مصطفى عبد العليم : المرجع الساق صفحات ٣٤ - ٣٥ .

وقد تعرضت يهوذا وما جاورها من البلاد لحروب دائمة بين الملوك السلوقيين (الثاني والثالث والرابع) وبين الملوك البطالمة (الثاني والثالث) بغرض السيطرة على إقليم جوف سوريا ، إلا أن إقليمي فينيقيا وجوف سوريا ظلتا تابعتين لمصر ، وحاول سليوقس الثاني استمالة سكان فينيقيا وجوف سوريا لكي يفصلهما عن مصر ، وكان قد نجح في استمالة الكاهن الأعظم أونياس الثاني إلى جانبه (١) الذي امتنع عن تسليم الجزية التي كان يقوم بجبايتها لمصر سنويًا ، وعلى أثر ذلك حذر بطليموس الثالث (يورجيتس Euergetes - الخَيِّر) اليهود من النتائج المترتبة على هذا العصيان لكي يعدل الكاهن الأعظم عن موقفه إلا أنه رفض (٢) . وفي هذه الفترة ظهر رجل قوي يدعى يوسف بن طوبياس الذي عارض خاله الكاهن الأعظم ، ولذلك عينه بطليموس الثالث مسئولاً عن جباية الجزية من فينيقيا وجوف سوريا بعد أن أمده بقوات من الجيش لتساعده في مهمته ، وقد استمر يوسف في هذا المنصب حوالي اثنين وعشرين عامًا (٣) .

وبعد وفاة بطليموس الثالث خلفة بطليموس الرابع (فيلوباتور = المحب لأبيه) ، وأثناء فترة حكمه دب الضعف في مصر ، فانتهز الملك السلوقي انطويوخوس الثالث المسمى الأكبر (٢٢٢ - ١٨٧ ق . م) ، هذه الفرصة واستولى عام ٢١٨ ق . م على جوف سوريا بما فيها السامرة ولم يستطع السيطرة على إقليم يهوذا ومنطقة القدس وظلتا تابعتين لمصر (٤) .

---

(١) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٨٤ . .

(٢) Jos : ant, XII , lv, 1 - 4

لكن دكتور راسل أشار أن بطليموس الرابع هو الذي امتنع في عهده الكاهن الأعظم أونياس الثاني عن دفع الجزية وليس بطليموس الثالث .

راجع : D.S . Russell : Between the Testaments p 26

(٣) Jos : Ant, XII , lv, 5 - 6

(٤) JOS : Ant, XII , lv , 6 - 10

الفصائل المتأغرقة والخروج على الشريعة اليهودية

وبعد وفاة بطليموس الرابع في عام ٢٠٣ ق . م انتهز أنطيوخوس الثالث ملك سوريا وفيليب ملك مقدونيا ، الفرصة لتقسيم مصر والأقاليم التابعة لها فيما بينهما ، وقد تعاون أبناء يوسف بن طوبياس مع أنطيوخوس بدافع من حقدهم على البطالمة ، حتى أنهم ساعدوا ملك سوريا على دخول القدس ، وهكذا سقطت يهوذا والقدس من قبضة السلوقيين عام ٢٠٢ ق . م [(١)] . وفي ظل هذا التوتر حدث صراع بين السلطة الدينية اليهودية المحافظة وبين السلوقيين الذين خططوا لإدخال الحضارة الهيلينية في المجتمع اليهودي وإبعاد هذا المجتمع عن التقاليد الموروثة بقد الإمكان ونتج عن ذلك :

١ - تساهل في التقاليد الدينية المفروضة على الشباب اليهودي واشتراكهم في الألعاب الاولمبية .

٢ - الجانب الثقافي : وهو أن الفكر اليوناني بدأ يتسلسل إلى المعتقدات الدينية اليهودية ، ومن ثم فقد ظهرت الفرق اليهودية الأخرى مثل الأسينيين والصدوقيين .

كل هذا كان يعتمد على أخذ ورد من داخل الفلسفة اليونانية ، فعلى سبيل المثال نجد أن الصدوقيين كانوا ينكرون الثواب والعقاب في الآخرة متأثرين بالفكر اليوناني الأبيقوري بالذات .

وعلى ذلك نشأ فريقان متنافسان ، وكان ياسون (اسمه العبري يوشيا وغير اسمه إلى الاسم اليوناني ياسون) قد نجح في تولى منصب الكاهن الأعظم متحمسًا للحضارة الهيلينية ، ومن ثم فقد أصبح زعيمًا للفريق المتأغرق بمساعدة السلوقيين . وقد تحول الصراع بين الفريقين المتنافسين إلى صراع

---

(١) د. إبراهيم نصحي : المرجع السابق جـ ١ صفحات ١٦٩ - ١٧٠ .
راجع فؤاد حسنين : المرجع السابق - ص ٨٩ .

ديني ، وبلغ من تطرف أعضاء الفريق المتأغرق ، أنهم تنكروا للعادات والشريعة اليهودية ، وفي ظل هذا الصراع ظهرت جماعة دينية من اليهود المحافظين الذين عرفوا في التاريخ اليهودي باسم « الحسيديم »(١) ، أعلنوا معارضتهم لتلك الوثنية الهيلينية . وفضلاً عن ذلك فقد سمح في عهد الكاهن الأعظم ياسون بتأسيس الجومنازيوم (٢) بالقرب من الهيكل في القدس ، وقد اشترك بعض الكهنة من صغار السن في ممارسة الألعاب الاغريقية داخله كما أن التمادي في الانحراف عن الشريعة اليهودية أدى إلى اشتراك بعض اليهود في تقديم القرابين للإله هرقل (٣) .

تسرب الحضارة الهيلينية إلى المجتمع اليهودي

وقد جعلت العوامل السابقة الانفجار الثوري قاب قوسين أو أدنى ضد السلوقيين ، وكذلك سارع الملك السلوقي أنطيوخوس الرابع (١٧٥ - ١٦٤ ق . م) (أبيفانس) بمهاجمة القدس لمزيد من النكاية في اليهود وشريعتهم حيث اقتحم المعبد واستولى على كنوزه ، وكان الكاهن الأعظم منيلاوس - الذي عينه الملك السلوقي - هو الذي أرشده إلى المكان الذي كانت توضع فيه

---

(١) الحسيديم « الأتقياء » هو اللقب الذي أطلقته طائفة الفريزيين على أنفسهم وهم طائفة علماء الشريعة من الربانيين قديمًا ، وقد أطلق عليهم بعض الكتاب « الفريسيين » وبالعبرية « فروشيم » ومعناها المفروزين . أي الذين امتازوا عن العامة من اليهود وأصبحوا من الصفوة المختارة لعلمهم وورعهم ، كما كانت لهم السلطة في توجيه المجتمع اليهودي على عهد المسيح كما كانوا من أشد خصومه .

راجع حسن ظاظا : الفكر الديني الإسرائيلي صفحات ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٢) كان الشباب من صغار السن (من سن التاسعة عشر والعشرين) يلتقون في الجومنازيوم حيث يتم تدريبهم عسكريًا بالإضافة إلى تثقيفهم مختلف علوم العصر ، وقد أدى هذا إلى انتشار حرية الفكر والتي ظهر في كنفها الآداب والفلسفة .

راجع إبراهيم نصحي : المرجع السابق جـ ١ صفحات ٤١ - ٤٢ .

(٣) ٢ مكابين ٤ : ١٨ - ٢٠ .

راجع فؤاد حسنين : المرجع السابق - ص ٨٩ .

هذه الكنـوز والآنية المقدسة ، وفي أعقـاب ذلك بنى أنطيوخوس مـذبحًا وثنيًا وضع فيـه هذه الكنوز والآنـية المقدسة ، وأجـبر اليهـود على أن يتخـلوا عن عقيدتـهم وأن يوقـروا الآلهـة الوثنية ، كما أجبـرهم على بناء معـابد ومذابح وثنية ، وهكذا بسـط الحزن جناحية على القدس وإمعانـا في تحدي إله إسرائيل أدخل انطيوخـوس الرابع عقيدة « زيوس أليـمبيوس »[١] في القـدس ، حيث بني مذبـحًا جديدًا وأحرق التوراة المحفـوظة بالمعبد ووضع صـورة زيوس على المعبد المقـام لتقدم إليه القرابين مبـاشرة ، وبذلك حول الهيكل إلـى مكان لهذه العبادة ، وإيذانا بتـدشين المعبد قدم انطيوخوس خنزيرًا كقـربان حيث نثر دماءه على المذبح الجديد وكان ذلك في يوليو عام ١٦٧ ق . م[٢] .

وعندما رأى السامريون مدى ما تحمله اليهود في يهوذا من معاناة واضطهاد على يـد أنطيوخوس الـرابع ، بعثوا إلـيه برسالـة - كما ذكر المؤرخ الـيهودي يوسـيفوس - هذا نـصها : « إلـى الملك أنـطيوخوس الالـه ، هذا تذكـار من

(١) عقيدة زيوس : حدثت أشياء كثيرة منها أن معظم الشباب اليهودى قد أعجب بالحضارة اليونانية ، وكان يحتفل بـأعياد اليونان ويشترك كـثير منهم في الألعاب الاغريـقية ، وأخذ على كثير مـن هذا الشباب تهاونه في مراعـاة أحكام الدين حتى أن بعضهم كـان يأكل لحم الخنزير ، كما أن بعضـهم كان يخلع ملابسه خـلال مباريات المصارعة ويبدو عاريًا ، وكان مما استدعى سـخرية الاغريق رؤيتهـم لشباب اليهود المختتن مما جعل بعـضهم يبحث عن وسيلة حتى يبدو كأنه غير مـختتن ، ويقال أن بعضهم قد أجرى عمليات جـراحية لكي يخفي الاختتان ، ممـا أثار رجال الدين وظهرت طائفة شـديدة التعصب لليهودية أطلق عليها القنائين - وهم شعبه من الفريزيين ، إلا أنهم اشتهروا بالقـوة التي تصل إلى حد القتل والتـي ظهرت كرد فعل للانحراف الـديني للشعب اليهـودي المفتن بالحضارة الاغريقـية ، فعيد زيوس كان عيد رقص وعربدة وكان احتفالاً بمقدم الخريف .

(٢) ٢ مكابين ٥ : ١٥ - ١٦ ، ٦ : ٢ ، ١٨ .

راجع K. Kenyon : Digging Up Jerusalem . p 190

كما يشيـر م . كاري أنه أقيم للاله زيوس اكسـينيوس عبادة في السامـرة لقيت نفس النجاح الـذي لقيته عبادة زيوس اليمبيوس في أورشليم .

راجع . M . Cary : A History pf the Greek World From 323 to 146 B. C ., (1965) p 228

الصيدونيين الذين يقيمون في شكيم ، إن أجـدادنا نتيجة تعرضهم المتكرر لوباء الطاعون ولاتباعهم الخرافات ، فقد كان من تقاليدهم الاحتفال بهذا اليوم الذي يطلق عليه الـيهود اسم السبت ، وأنهم أقاموا معبدهـم على جبل جريزيم دون أن يطلقوا اسـمًا عليه وقد قدموا علـى قمة هذا الجبل القرابـين . وبالرغم من معاملتـك العادلة لهؤلاء اليهود الأشـرار ، وعلى افتراض أنه كانت تربـطنا بهم صلة قربى ، فقد جعلونا نتعرض لنفس اتـهاماتهم مع أننا أصلاً صيدونييون كما هو واضح من الوثائق ، ولذلك نستعطفك أيها الخيّر يا ولي نعمتنا ومُخلّصنا أن تصدر أوامرك إلى أبولونيوس Apollonius حاكم الإقليم الموكل من جانبك بالا يضطهدنا ولا يوجه إلينـا التهم المنسوبة إلى اليهود ، نظرًا لأننـا لا ننتسب إليهم ولا نمارس تقالـيدهم وعاداتهم ، وأن تـسمح لنا بأن نـطلق على معـبدنا الذي لايحمل اسـمًا في الوقت الحاضر معـبد جوبيتر هـيلينيوس وإذا تمت مـوافقتك على هذا ولـم نتعرض لأي اضطهاد فـسوف نركز اهتمامنـا في العمل بطمـأنينة وبذلك نستطيع زيادة الجزية المقررة » .

وبناء على الالتماس المقدم من الســامريين ، أرسل الملك رسالة موجهة إلى أبولونيوس يخبره فيها بمضمون الـرسالة ، ويؤكد على أن من حقهم الإقامة في شكيم مع الاعلان بأن الملك يحلهم من التهم المنسوبة إلى اليهود وموافقته على أن يسمى معبدهم بمعبد جوبيتر هيلينيوس [1] .

ينـبغي علـينا بعـد ذلك أن ندرس ما جـاء بمضمون هـذه الرسالة ، فـيرى يوسيفوس من وجهـة نظره أن السامريين قد خصصوا بمحـض ارادتهم معبدهم جوبيتر أثناء حكم أنطيوخوس أيبفـانس ، كما أن يوسيفوس قد لجأ إلى أسلوب تبادل الرسائل ليؤيد مزاعمه ، ولكن لو كان الأمر كذلك لحق لنا أن نتساءل لماذا أطلق عـلى السامريين هـنا الصيدونـيون ، وزعم أنهم لايـنتسبون إلى الـسلالة

---

(١) JOS : Ant., XII, V , 5

الأصلية لليهود وأنهم لايحتفلون بيوم السبت مثلما كان أجدادهم يحتفلون به ، كما نتساءل لماذا حدد لهم مدينة شكيم كمحل لإقامتهم ؟ .. وقد سبق أن استدللنا على مدى الخطأ الذي وقع فيه يوسيفوس عندما أطلق عليهم أيضًا اسم الشكميين في كتابه Ant, XI , VIII , 6 ، ويوسيفوس كمؤرخ يهودي لايريد بأن يقر بأن السامريين هؤلاء هم بقايا القبائل العشر في السامرة ، فهو يذكرهم كطائفة منسوبة إلى شكيم ، ويحاول بذلك أن يبعد نسبهم عن السامرة وأن يدلل على أنهم غير يهود ، وهذا الزعم من جانبه جدير بالملاحظة ، فعلى الرغم من أنهم غير يهود على حد تعبيره ، إلا أنهم احتفلوا بيوم السبت منذ أقدم العصور .

وقد تصدى رشيوتي لمناقشة هذه الرسالة من حيث أشار إلى أنه لو سلّمنا جدلاً بصدق دعوى يوسيفوس في تخصيص المعبد السامري على جبل جريزيم لجوبيتر ، فإن هذا بدون شك قد مثّل أماني السامريين في السامرة وهو فرع من الحزب الرئيسي في القدس أيضًا ، وبالطبع لايضم كل المجتمع السامري ، كما يتضح من سفر المكابيين الثاني ٦ : ٢ أن تخصيص المعبد السامري لجوبيتر ربما كان نتيجة للقسوة الوحشية التي عانى منها اليهود في القدس عندما أجبرهم أنطيوخوس على ترك دينهم وعبادة آلهة وثنية [١] .

وجاء في بعض المصادر أن السامريين في القرن الثاني قبل الميلاد كانوا ضمن الذين شملتهم إجراءات القمع التعسفية على يد أنطيوخوس أبيفانس ، وكانت هذه الإجراءات التعسفية سببًا في توحيد صفوفهم وجعلهم طائفة متميزة لها كيانها الخاص[٢] .

---

(١) Ricciotti Vol. II, p 153

(٢) Ency . Religion : Samaria , pp 163 - 164

ويبدو من وصف يوسيفوس للأحداث ، أنه فـي نهاية القرن الثالث وبداية القرن الثاني قبل الميلاد قد أصبحت فلسطين تشكل إقليمًا منفصلاً بجانب أقاليم جوف سوريا وفينيقيا (١) .

ونتبين من هذا أن أنطيوخوس أبيفانس قد دمر الهيكـل في القدس وحوله إلى مكان لعبادة زيـوس أليمبيوس وأوقف عبادة يهوه ، وأجبـر اليهود على أن يذبحوا للآلهة الوثنية ، كما أطلق عـلى المعبد السامري الذي على جبل جريزيم اسم جوبيتر هيلينوس ، وهذه الإجراءات التي اتخذها أنطيوخوس للقضاء على الديانـة اليهودية ، كانـت سببًا ساعد عـلى تطور الصـراع بين الديانة اليـهودية والهيلينية الوثنية يومًا بعد يوم ، حتى اندلعت ثورة المكابيين التي وضعت هدفها الأساسي في استعادة الهيكل وتطهيره ، وبذلك جاءت النتيجة مختلفة تمامًا عما توقعه أنطـيوخوس ، فقد عجزت السلـطات السلوقية عن قـمع الاضطرابات ، وقد ظـهرت في هذا الجـو العاصـف أسره اشتهـر أبناؤهـا بالتـدين والتمـسك بالشريـعة وأحكامها تعـرف باســم المكـابين ، وقد استطاعت قواتـها في عام ١٦٦ ق . م بقيادة يهوذا المكابي أن تهاجم القـوات السلوقية بقيادة أبولونيوس حاكم الإقليم السامري الذي قتل في المعركة وكان النصر حليف المكابيين .

وعندمـا علم أنطـيوخوس أبيفـانس بنتـيجة المعركـة مع المكابـيين ، أرسل سيرون قائـد جيش جوف سورية لـمهاجمتهم ، ولكـن بعض اليهود المـتأغرقين أرشدوا الجيش السلوقي إلى أقصر الطرق وأصلحها إلى يهوذا ونتيجة لهذا فقد دب الرعب فـي نفوس أفراد جـيش يهوذا المـكابي عنـدما أبصروا قـوة الجيش السلوقـي ، إلا أن يهوذا أثار حميتـهم عندما خطـب فيهم مذكرًا إياهـم بكنوز المعبد الثمينة والآنـية المقدسة التي سيدافعون عنها وبأبنائـهم وعقيدتهم ، فرفع من معنوياتـهم واستطاع المكابيون أن يحـققوا نصرًا على الجيش السـلوقى عند

---

(١) Jos : Ant . XII , IV 1 - 4

بيت عورون ، وعندما أدرك أبيفانس أنه أساء تقدير قوة المكابيين حشد جيشا آخر أكثر قوة تحت قيادة ليزياس بمساعدة نيكانور وجوجياس ، قوامه أربعون ألفًا من المشاة وسبعة آلاف من الفرسان ، وكان أبيفانس قد عقد العزم على أن يهدم القدس ويسكنها أقوامًا وثنيين بدلا من اليهود ، ولكن يهوذا المكابي أخذ يحث جنوده بالتمسك بالعقيدة وقسم جيشه إلى ثلاثة أقسام وعين على كل قسم أحد إخوته ، وبذلك أحرز يهوذا نصرًا آخر على السوريين عند إماوس ثم عاد اليهود إلى مودين مركز تجمعهم مرة ثانية [١] .

وفي خريف عام ١٦٥ ق . م عاد ليزياس مرة أخرى على رأس جيش كبير قوامه ستون ألفًا من المشاة وخمسة آلاف من الفرسان للانتقام من يهوذا المكابي ، إلا أنهم فضلوا الانسحاب نتيجة للحماس الديني الذي أظهره المكابيون ، وهكذا بعد نحو ثلاثة أعوام ونصف منذ اندلاع الحروب بين السلوقيين والمكابيين حل نوع من المهادنة انتهز يهوذا المكابي خلالها الفرصة وهاجم القدس ، واستطاعت قواته أن تحطم المذابح الوثنية والتماثيل اليونانية وزوّدوا المعبد بمذبح طاهر جديد ، وقد استغرقت هذه العملية ثلاثة أسابيع . وفى ٢٥ كسلو (ديسمبر) ١٦٥ ق.م أعيد فتح الهيكل في القدس للشعائر اليهودية حيث أقيمت صلوات الشكر وقدمت القرابين واعتبروا أن هذه المناسبة عيدًا أطلقوا عليه عيد التدشين أو عيد الحانوكة [٢] .

ومرة أخرى عاد يهوذا المكابي إلى تطبيق النظام الكهنوتي القديم من حيث تعيين الكهنة واللاويين في المعبد ، كما أقصى الذين انحرفوا واتبعوا الهيلينية عن الخدمة في المعبد .

وفي أعقاب الحروب المكابية مع السلوقيين لم يحاول أنطيوخوس الخامس

---

(١) Jos : Ant . XII, VII, 1,2,3,4,5

(٢) ٢ مكا ١٠ : ١ - ٧ ، ١ مكا ٤ : ٣٦ ، ٥٤ . .

أن يكرر ما فعله أبيفانس مع اليهود ، وإنما ترك لهم حرية أكثر ، وبالتالي فإن الحزب المتأغرق قد اضطهد إلى حد كبير وبانتهاء الحروب المكابية في عام ١٦٢ ق . م تحول الصراع الديني إلى صراع سياسي[١] . وقد أصبح ديمتريوس الأول - ابن انطيوخوس الرابع - ملكًا على سوريا بعد قتله أنطيوخوس الخامس واستطاع بعد ذلك اكتساب تأييد الرومان[٢] .

وأهم ما يعنينا في هذا المقام ، أن قادة الحزب المتأغرق على رأسهم الكيمس قد أرسلوا إلى ديمتريوس يشكون من الظلم الواقع عليهم من يهوذا المكابي ، الذي كان قد طرد أتباع الملك أيضًا ، ونتيجة لهذا عين ديمتريوس الكيمس كاهنا أعظم وسير الجيش السلوقي تحت قيادة بكيدس إلى يهوذا لتعيين الكيمس في منصبه بالقوة إذا لزم الأمر[٣] . وما أن سمع المكابيون وأنصارهم بذلك حتى ولو الأدبار ، وأعلن الحسيديم ولاءهم للنظام الجديد لاعتقادهم أن الكاهن الأعظم الكميس من نسل هارون والذي كان قد منح السلطة السياسية والإدارية علاوة على السلطة الدينية وانتهز ديمتريوس فرصة ضعف المكابين وهزمهم في أبريل عام ١٦٠ ق . م وبذلك انتهت أسطورة المكابيين[٤] .

ومن هذا يتبين لنا أن أمور اليهودية لم تكن مستقرة خلال هذه الفترة ، ولم يشكل اليهود الكثرة الغالية من السكان ، وأنهم كانوا يتمتعون بالاستقرار فقط حينما كانوا يستعينون بقوة أجنبية لمساندتهم ، كما أن الفلسطينيين في عصر المكابيين كانوا يمثلون تهديدًا للكيان اليهودي حتى أن يهوذا المكابي عندما شعر

---

(١) E. Schurer : Op . Cit., p 317

(٢) مكا : ٧ : ١ - ٤ .

(٣) ١ مكا ٧ : ٥ - ٩ ، ٢ مكا ١٤ : ٣ - ١٠ .

(٤) ١ مكا ٧ : ١٠ - ١٥ .

راجع : Jos : Ant., XII, 10 , 2 - 4

E. Schurer : Op . Cit, pp 40 - 41

بخطرهم حاول القضاء عليهم ، ومعنى هذا أن خطورة الفلسطينيين كانت مستمرة بشكل متواصل .

وبعد وفاة يهوذا المكابي لجأ الإخوة الحشمونيون يوناثان وشمعون ويحنان إلى تكوين حزب قوي للصمود أمام الحزب المتأغرق ، وعلى الرغم من أن الهيلينية قد كفلت للحشمونيين حرية العبادة وإقامة الشعائر الدينية ، إلا أن يوناثان استغل فرصة الاضطرابات التي حدثت في سوريا نتيجة انقسام المملكة السلوقية بين ديمتريوس والكسندر واقتحم المعبد في عيد المظال عام ١٥٢ ق. م وأعلن نفسه كاهنًا أعظم ، فكان بذلك أول حشمونائي يصل إلى هذا المنصب حيث ظل به يوناثان تسع سنوات (١٥٢ - ١٤٣ ق . م) تميزت بالتقدم ، ولكنه أعدم عام ١٤٣ ق . م على يد تريفون أحد قواد ديمتريوس [(١)] .

وفي أعقاب ذلك قام شمعون آخر أبناء متتياهو الكاهن المكابي بتحرير البلاد من السيطرة السلوقية ، كما تخلص من الحزب الهيليني وكان شمعون قد وضع نفسه في خدمة روما حيث أصبح ضمن رابطة الولايات الرومانية ، وعمومًا فقد اتسم حكمه الذي دام تسع سنوات (١٤٢ - ١٣٤ ق . م) بالازدهار ، وبقيت زعامة الأسرة الحشمونية على اليهود حتى بسط الرومان سلطانهم على فلسطين في عام ٦٣ ق . م [(٢)] .

القدس في العصر الروماني

ينقسم تاريخ القدس في العصر الروماني في فلسطين إلى ثلاث مراحل :

١ - المرحلة الأولى وتمتد من عام ٦٣ ق . م بعد أن بسط بومبي القائد الروماني سلطانه على فلسطين وحتى نهاية الثورة اليهودية الأولى في عام ٧٠ م .

---

(١) ١ مكا ١٣ : ١٨ .

(٢) راجع :
Jos : Ant., XIII, I, 1- 6
E. Schurer : Op . Cit., pp. 65 - 66

٢ - المرحلة الثانية وتمتد من عام ٧٠ م وحتى عام ٣٣٧ م وهو نهاية حكم الامبراطور قسطنطين (٢٧٤ - ٣٣٧ م) .

٣ - المرحلة الثالثة وتمتد من عام ٣٣٧ م وحتى بداية الغزو العربي لفلسطين عام ٦٣٤ م بقيادة عمرو بن العاص .

أولاً: المرحلة الأولى من العصر الروماني (٦٣ ق . م - ٧٠ م)

جافينوس وتفتيت الكيان اليهودي

بعد أن بسط الرومان سيطرتهم على فلسطين أصبحت تحت سيطرة الحاكم الروماني لسورية ، وقد تمتعت السامرة بقدر من الحرية السياسية خلال العصر الروماني [(١)] ، وخاصة عندما أصبح جافينوس حاكمًا على سوريا (٥٧ - ٥٥ ق. م) ، وقد أصدر هذا الحاكم أوامره بإعادة بناء كل المدن التي دمرت من قبل ومن بينها السامرة وبيت شان (بيسان) [(٢)] ، وكان جافينوس قد اتخذ عدة إجراءات سياسية جديدة بجانب تعمير السامرة وغيرها من المدن ، حيث قسم أرض فلسطين إلى خمسة أقاليم تحكم حكمًا ذاتيًا مع وجود سلطات قضائية وإدارية وهذه الأقاليم الخمسة هي القدس ، وأريحا ، وجازر ، والجليل الأعلى وشرق الأردن ، وكان الغرض الظاهر من هذا التقسيم بلا شك هو تسهيل جمع الضرائب ، ولكن الهدف الرئيسي لجافينوس كان تفتيت الكيان اليهودي ؛ ويتبين لنا أن هدف السياسة الرومانية هو إعادة الصبغة الاغريقية للمدن والمناطق التي كان المكابيون قد هوّدوها [(٣)] .

---

(١) Interpreter's Dictionary of the Bible : Samaria p. 186

راجع أوتسار يسرائيل - مقالة السامرة جـ ٥ ص ٢٧٠ .

(٢) Jos : Ant., XIV, V, 3

راجع : Montgomery : Op. Cit., pp . 82 - 83

(٣) Ricciotti : Vol . 11 pp . 306 - 307

راجع : E. Schurer : Op . Cit. , pp . 102 , 336 , Note 4,

وعندما آلت زعامة روما لقيصر بعد أن هزم بومبي عام ٤٨ ق . م عين هيركانوس كاهنًا أعظم في القدس ، وأعلن انتيباتير مواطنًا رومانيًا مسئولاً عن جباية الضرائب في فلسطين ، وبعد فترة من تعيين هيركانوس كاهنًا أعظم صدر قرار بتعيينه رئيسًا على بقايا اليهود (إثنارخيس) . وقد ترتب على ذلك إلغاء التقسيمات الإدارية والسياسية التى كان جافينوس قد أدخلها .

هيرودس والهيكل الثاني

وبعد فترة من الزمن قام هيرودس (ابن انتيباتير) بدور الوصي على الكاهن الأعظم هيركانوس ، حيث عاد الوئام بينهما مرة أخرى ، حتى أنه تزوج مريم حفيدة هيركانوس ، وفي تلك الأثناء عيّن أغسطس الإمبراطور هيرودس الأدومي ملكًا تابعًا له على ما بقى من اليهود في فلسطين حكم خلالها من عام ٣٧ حتى عام ٤ ق . م ، وهكذا جلس على العرش ملك وصفه الشعب استهجانًا بأنه ملك نصف يهودي لافتقاره إلى الجذور الدينية القومية . وقد كانت السنوات الأولى من حكمه (٣٧ - ٢٥ ق . م) بمثابة حروب مستمرة هدفها دعم سلطانه ، ونجح عن طريق القسوة فى التغلب على العقبات الخارجية والداخلية التي كانت تعترض طريقه ، ففي هذه الفترة كان النزاع على السلطة ما زال مستمرًا بين المكابيين ، رغم أنها سلطة هزيلة تتصل بجمع العشور من اليهود وتنفيذ الأحكام الشرعية بينهم نتيجة لسيطرتهم على القضاء [١] .

وفى تلك الظروف انتهز هيرودس الفرصة وهاجم مدينة القدس عام ٣٧ ق . م بمساعدة القائد الروماني سوسيوس ، وأحكم عليها الحصار وقصفها بالمنجنيقات حتى تحطمت أسوارها ثم اقتحمها ، وفي أعقاب ذلك نصّبه الإمبراطور الرومانى أغسطس ملكًا كما أسلفنا . وكان هيرودس - الذي

(١) شمعون دونوف : هيميم لعام يسرائيل (تاريخ الشعب الإسرائيلي) صفحات ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٤ .

كان ينتمي إلى أصل أدومي - قد اعتنق الديانة اليهودية ، إلا أن اليهود اعتبروه أجنبيًا وزادت كراهيتهم له بعد أن استأصل شأفة المكابيين لقتلهم والده .

على أن الأمور أخذت تسير بعد ذلك وفقًا لميزان القوى الجديد بعد أن آلت زعامة روما لأغسطس ، واستطاعت السامرة أن تعيد إليها الاهتمام خلال فترة حكم هيردوس ، إذ وقفت بجانبه في نضاله ضد انتيجونوس الحشموني ، وهناك تزوج مريم وفيها دفن أبناءه ، وقد أخذ على عاتقه إعادة بناء السامرة فبدأ عام ٣٠ ق . م بإقامة سور حول المدينة عززّه بأبراج من مواقع متعددة على امتداده ، وعند انتهائه من بناء المدينة وطّن بها حوالي ستة آلاف من المحاربين الاغريق القدماء ، واتخذها مقرًا لتجميع القوات المرتزقة ، وكان هيرودس قد أطلق على مدينة السامرة اسم « سبسطية » تكريمًا للإمبراطور أغسطس سبستيان وأصبحت عاصمته المفضلة (١) .

وبعد أن أعاد بناء السامرة خطط لبناء ميناء قيسارية في نهاية طريق السامرة الساحلي لتكون حلقة الاتصال بينها وبين الساحل وكانت غالبية سكانها من الاغريق والرومان .

ولكي يكسب تأييد ما بقي من اليهود في فلسطين - مع علمه بكراهيتهم الشديدة له - أعاد تخطيط مدينة القدس ودعم أسوارها ، وعندما أحسّ بالخطر نقل مقر قيادته من القصر القديم - على آثار الدمار المتبقية من قلعة أكرا (قلعة صهيون - داود) - وأتى به إلى مقره الجديد بالجزء الشمالي الغربي من المدينة على حافة وادي هنوم بالقرب من باب يافا وباب إفرايم ، وحصّن قصره الجديد بثلاثة أبراج هم فزائيل وهيبيكوس وداود ، وبذلك أصبحت قلعة هيرودس مدعمة بالأبراج الثلاثة وخلفها يقع قصره ، وقد ضم سور القصر السوق

---

(١) G. Smith : The Historical Geography of The Holy Land p . 229

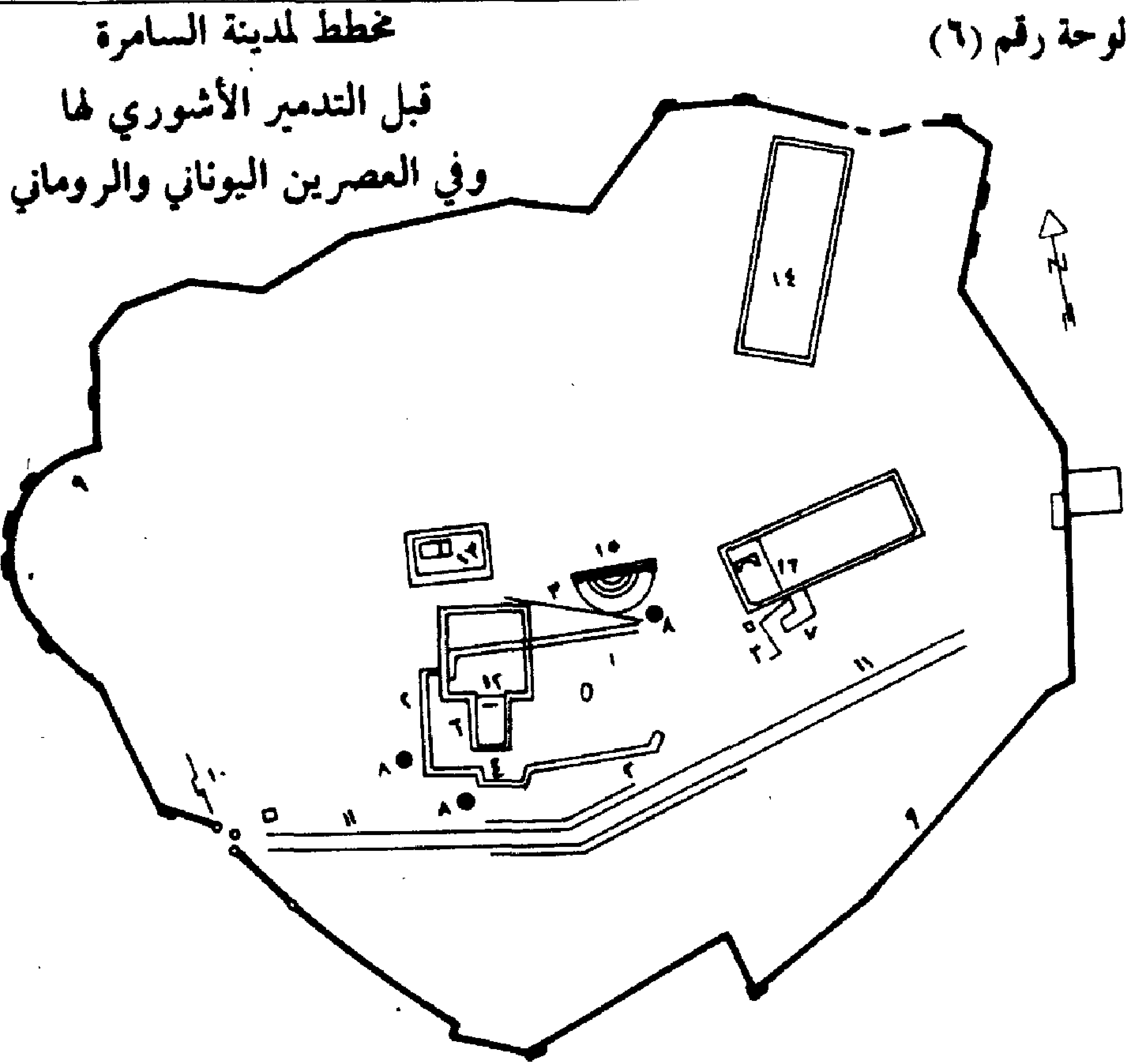
الكبرى بـالإضافة إلى صفين مـن المباني ، أطلق عـلى أحدهما إجلالاً لـعظمة القيصر الروماني أغـسطس ، وسمّى المبنى الثاني أجريبا نسبـة إلى أجريبا القائد الروماني التابع لقيصر روما أغسطس .

وفي أقصى الزاوية الشمالية الغربيـة من السور الثاني - الذي بناه نحميا - قام هيرودس بتحويل حصن البيرة القديم (أقيم بعد العودة من السبي البابلي ، وهو تسمية فارسية بمعنى القلعة عرفت بهذا الاسم تحت حكم الفرس) إلى بناء ضخم يسيطر على أرجاء الهيكل وسمـاه قلعة « انطونيا » تشريفًا لحامية « مارك انطونيـو » . ويتكون الحصن من أربعـة أبراج أحدها وهو الشمالـي الشرقي ، ومنـه يراقب جنـــود الرومـــان ما يجـري داخل الهـيكل الذي حـظي بعنـاية هيرودس .

وفي تلـك الأثناء جمع هـيرودس اليهود من مـختلف طبـقاتهم في الـسنة الثانيــة عشرة من حكمه ، وأخبـرهم أنه قد أتم تحصين القدس ولـم يبق سوى الهيكل ، وأوضـح لهم أن عملية إعادة بنـائه على أيدي آبائهم بـعد العودة من السبي ، قد تمت على النحو الذي حدده لهم الملك قورش الفارسي ، فلم يظهر بالمظهر اللائق ثم أصبحوا تابعين للإغـريق ، وبعد ذلك لم يتمكن المكابيون من إعادة تعميره بسبب انشغالهم بالحـروب والنزاع على السلط ، فخاف اليهود من عملـية الهدم أولاً ، ولكنـه وعد بإحضار كل مـا يلزم لعمـلية البناء مـن جديد ومواد خام ، ثم يقوم بعملية بناء هذا الهيكل من جديد .

ولم يلبث هيرودس أن قـام ببناء الهيكل على مساحة تـبلغ عشرين فدانًا ، وهو بذلك يعتبر ضعف مساحة هيـكل نحميا ، بما زاد عليه من أروقة وساحات متصلة ، وقد أحاطـه بجدران كبيرة لم يبق منها سـوى جدار واحد هو الحائط الغربي والذي يطلق عليه حاليًا حائط المبكى .

لوحة رقم (٦)



عصر الانشقاق الإسرائيلي

١- السور الداخلي الأول للقلعة
٢- السور المتأخر
٣- السور السفلي الذي أحاط بالقلعة
٤- قصر عمري وآحاب
٥- البيت العاجي
٦- مقر المنفى
٧- البوابة المؤدية للقلعة

العصر اليوناني

٨- البرج المستدير

العصر الروماني

٩- سور المدينة
١٠- بوابة محاطة بالقلاع
١١- طريق الأعمدة (الأشجار)
١٢- المعبد الوثني لأغسطس (هيرودس)
١٣- المعبد الوثني لعبادة آلهة كورا
١٤- ملعب الجمباز يوم
١٥- مسرح
١٦- مجلس المدينة
(سور المعبد في جانبه الغربي)

وكان هيكل هيرودس مكونًا من الساحة الأولى الخارجية كسوق لبيع القرابين ، وهي المسموح بدخول غير اليهود فيها ، وتحيط بساحة الهيكل الداخلية أروقة ذات أعمدة مزدوجة من الرخام على شكل زوايا قائمة ، والساحة الداخلية تنقسم إلى رواقين أحدهما في الجانب الغربي وغير مسموح فيه بتواجد الرجال ، والرواق الآخر في الجانب الشرقي غير مسموح فيه بتواجد النساء .

وكانت ساحة الهيكل الداخلية منفصلة عن الساحة الخارجية ويفصل بينهما سياج من الأحجار على مسافات متساوية مكتوب عليها تحذير بأن كل من يتجاوز هذا المكان - من غير اليهود - عقابه الموت ، بالإضافة إلى ذلك فكانت ساحة الكهنة ترتفع ثلاث درجات وتلي الساحة الداخلية ، وفي الداخل قدس الأقداس ولايدخله إلا كبير الكهنة مرة كل عام ، ومن المحتمل أن يكون تمثالي الكروبين في هيكل سليمان قد تم تنفيذهما في هيكل هيرودس بشكل أقرب إلى الفن التجريدي دون تفاصيل دقيقة .

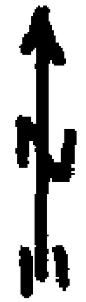
أما الأروقة الملكية فكانت تحيط بالهيكل من اتجاه الجنوب ، وكان الهيكل متصلاً بالمدينة العليا عن طريق مرتفع ، وكان قد شيّد مسرحًا دائريًا وساحة للسباق ليجري عليها الألعاب الأولمبية ، وهكذا كانت القدس في عهده مدينة لها طابعها الوطني الدموي ، لايميزها عن غيرها سوى وجود الهيكل ومقر الكهنوت اليهودي والمعروف بالسنهدرين .[١]

أما بالنسبة للنظام الكهنوتي في القدس فقد أصابه الضعف ، حيث استبدل

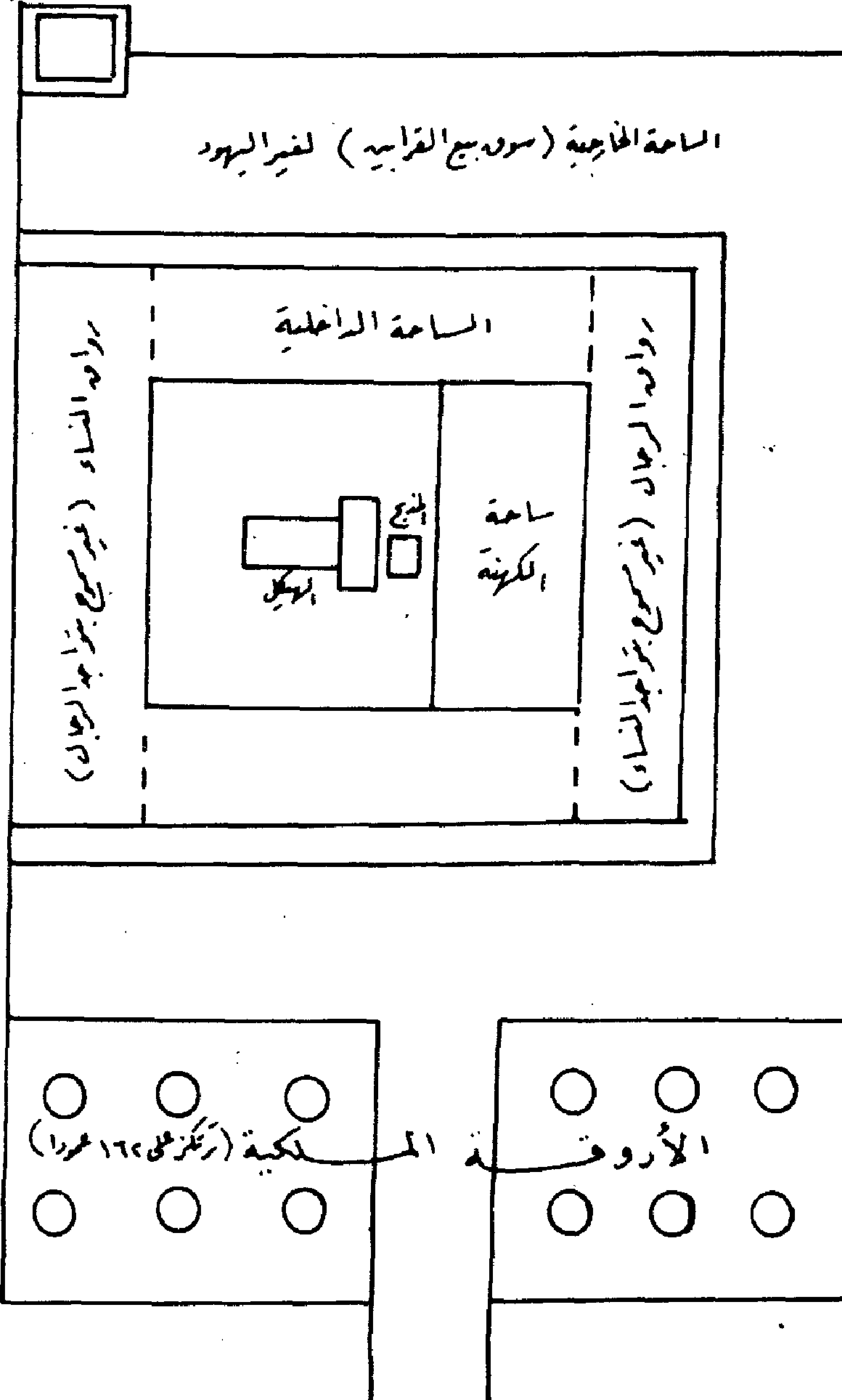
---

(١) السنهدرين : أول سنهدرين كان في عصر موسى عندما دعا السبعين رجلاً ليعملوا معه عندما تذمر أتباعه مطالبين بالعودة إلى مصر . وقد منح الرومان السنهدرين صلاحيات دينية واجتماعية واسعة ، على ألا تؤثر هذه السلطات على المصالح السياسية الرومانية . وكان للحاكم الروماني الصلاحيات في التصديق على أحكام السنهدرين التي يصدرها في الجرائم الكبرى ، ويبلغ عدد أعضائه واحد وسبعين عضواً ، منهم ثلاثة وعشرين يتألف منهم المجلس المخصوص .

لوحة رقم (٧)



مخطط لهيكل هيردوس الكبير (٣٧ - ٤ ق.م)
طبقاً لوصف يوسيفوس



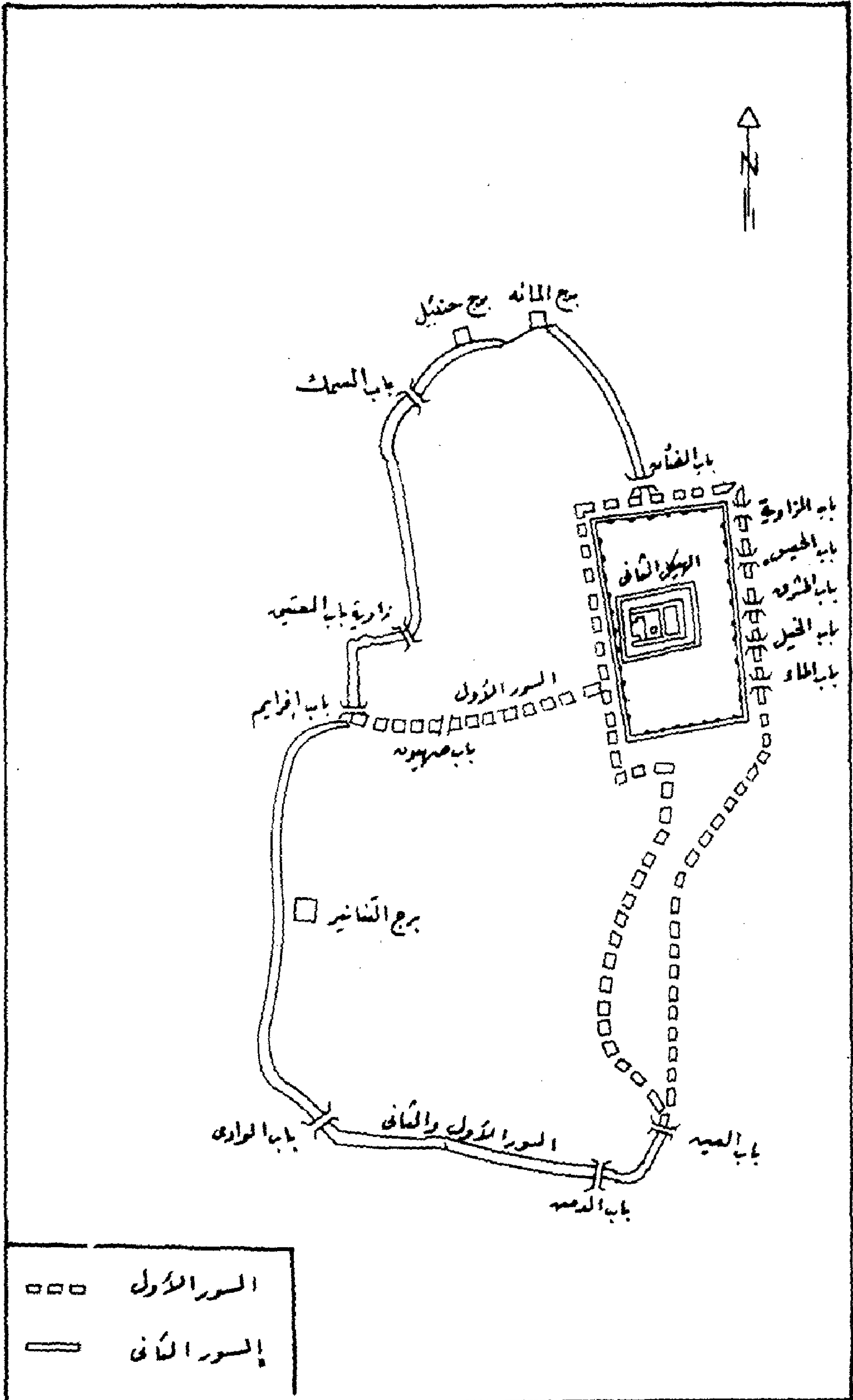
به التعيين لشغل منصب الكاهن الأعظم بدلاً من نظام الوراثة ، وذلك ليتحكم هيرودس فيمن يشغله حسب أهوائه الشخصية ، وتوالى بعد وفاة هيرودس بعض الولاة من اليهود ، وتولى حكم فلسطين بعد ذلك حكام من الرومان متعاقبين كانت في عهدهم كإقليم يتبع الحاكم الروماني لسوريا .

ثانيا : المرحلة الثانية من العصر الروماني (٧٠ م - ٣٣٧ م)

الخراب الثاني للقدس

وبعد مضي زهاء ثلاثة عشر عامًا على تلك الأحداث التي وقعت في عهد الإمبراطور الروماني كلاوديوس ، اندلع لهيب الثورة في القدس نتيجة لصراع بين الطبقات العليا التي اتفقت مصالحها مع مصالح روما والطبقات الدنيا من اليهود في يهوذا ، وتطور الأمر إلى الثورة ضد روما نفسها . واشتعلت الحرب بين اليهود والرومان (ثورة اليهود ٦٦ - ٧٠ م) في عهد الحاكم الروماني فلوروس الذي تولى الحكم عام ٦٤ (٦٤ - ٦٦ م) ، ففي خريف عام ٦٦ م بدأت ثورة اليهود ضد الحكم الروماني وتقدم على أثر ذلك حاكم سوريا الروماني كيتيوس جاليوس على رأس جيشه في محاولة لقمع الثورة في القدس ، إلا أنه اضطر للانسحاب على أثر هزيمته ، واستمرت سيطرة اليهود على القدس ، إلا أنه اضطر للانسحاب على أثر هزيمته ، واستمرت سيطرة اليهود على القدس حتى أصدر الإمبراطور الروماني نيرون أوامره إلى قائده فلافيوس فسبازيان في خريف عام ٦٨ م الذي جاء على رأس جيش قوامه ستون ألفًا من الجنود (ثلاثة فيالق) ، ولكنه اضطر للعودة إلى روما ليتولى العرش بعد وفاة نيرون في صيف عام ٦٩ م ، فتولى ابنه تيتوس قيادة الجيش في فلسطين الذين كان قد أصبح مكونًا من أربعة فيالق أحدهما الفيلق الخامس الذي استدعاه من مصر ، ثم حاصر تيتوس القدس في خريف عام ٦٩ م وأحكم حصاره على المدينة ليعمل على خفض الروح المعنوية لليهود ، وأعقب

لوحة رقم (٨)



تخطيط لمدينة القدس في بداية العصر الروماني يوضح الأسوار والبوابات والأبراج

ذلك بهجوم شامل في شهر مايو ٧٠ م استطاع من خلاله تحطيم الأسوار ، ثم وجه فيلقين من جيشه لمهاجمة المدينة ذاتها وأمر الفيلقين الآخرين بمهاجمة حصن انطونيا الذي سقط في يونيو . وفي التاسع من أغسطس احترقت بوابة الهيكل والحق الخراب بالمدينة وانتهى الصراع الدموي بالقضاء على كل أثر فيها فيما عدا ثلاثة حصون - أنشأها هيرودس - ظلت باقية لحماية الفيلق العاشر . وهكذا قضي على الكيان الذاتي لليهود في فلسطين وهو ما كان باقيًا بعد القضاء على الكيان السياسي لهم على يد البابليين والأشوريين . ويشير مونتجمري أنه في بداية ثورة اليهود عام ٦٦ م شاركت سبسطية (السامرة) في الثورة حيث تعاون السامريون مع اليهود وحاربوا ضد الرومان ، وكما يروي يوسيفوس فإن عدداً كبيراً من السامريين اجتمعوا على جبل جريزيم وأعلنوا تحقيرهم للنجاح الذي أحرزه الرومان وأنهم يشاركون اليهود في حربهم ، عندما علم فسباريان بذلك وجد أنه من الضروري أن يوقف تزايد الثورة ، فوجّه كرليس - الذي كان قائداً للفيلق الخامس أثناء حصار تيتوس القدس والذي استمر قائداً للقوات الرومانية في فلسطين بعد تيتوس - ومعه ستمائة فارس وثلاثة آلاف من المشاة للقضاء على الثوار ، وقد تمكن هذا القائد من ذبح حوالي ١١,٦٠٠ من السامريين بطريقة وحشية ، إذ أن الرومان لم يفرقوا بينهم وبين اليهود ، وعلى أثر ذلك تفرق السامريون في كل أرض فلسطين [١] .

ويجدر بنا أن نشير إلى ما ذكرته دائرة المعارف الدينية ، أنه برغم المعلومات القليلة عن الدور الذي لعبه السامريون في ثورة اليهود (٦٦ - ٧٠) ، إلا أن هناك احتمالاً كبيراً أنهم كانوا بمعزل عن هذه الثورة أو أنهم تصرفوا بصورة مستقلة حيث كان من الصعب عليهم التعاون مع خصومهم اليهود ، ويعود كاتب المقال ويناقض نفسه ويشير إلى أن جانبًا من هذه الطائفة قام بالاشتراك

(١) Montgomery : Op . Cit . , pp . 87 - 88

في تمرد ذي طابع ديني متعصب ، تـم قمعه علـى يد فسباريان بإراقة الدماء عام ٦٧م ، إلا أنه لم يـوضح طبيعـة هذا التمرد واتجـاهاته السـياسية والفـكرية ، ولكنه بـالطبع كما أشار يـوسيفوس كان بداية تـعاون السامريين مع الـيهود في ثورتهم ضد الرومان (١) .

ويثير اهتـمامنا ما ذكره جاستر أنـه على الرغم من فرح السامـريين لسقوط القدس في عام ٧٠ م ، إلا أنهم عانوا كثيراً تحت ضغط السلطات الرومانية التي لم تميـز في قهرهـا واضطهادهـا بينهـم وبين اليهـود ، وهكذا يرى جـاستر أن السامريين بموقفهم هذا إنما كانوا بمعزل عن الثورة اليهودية (٢) .

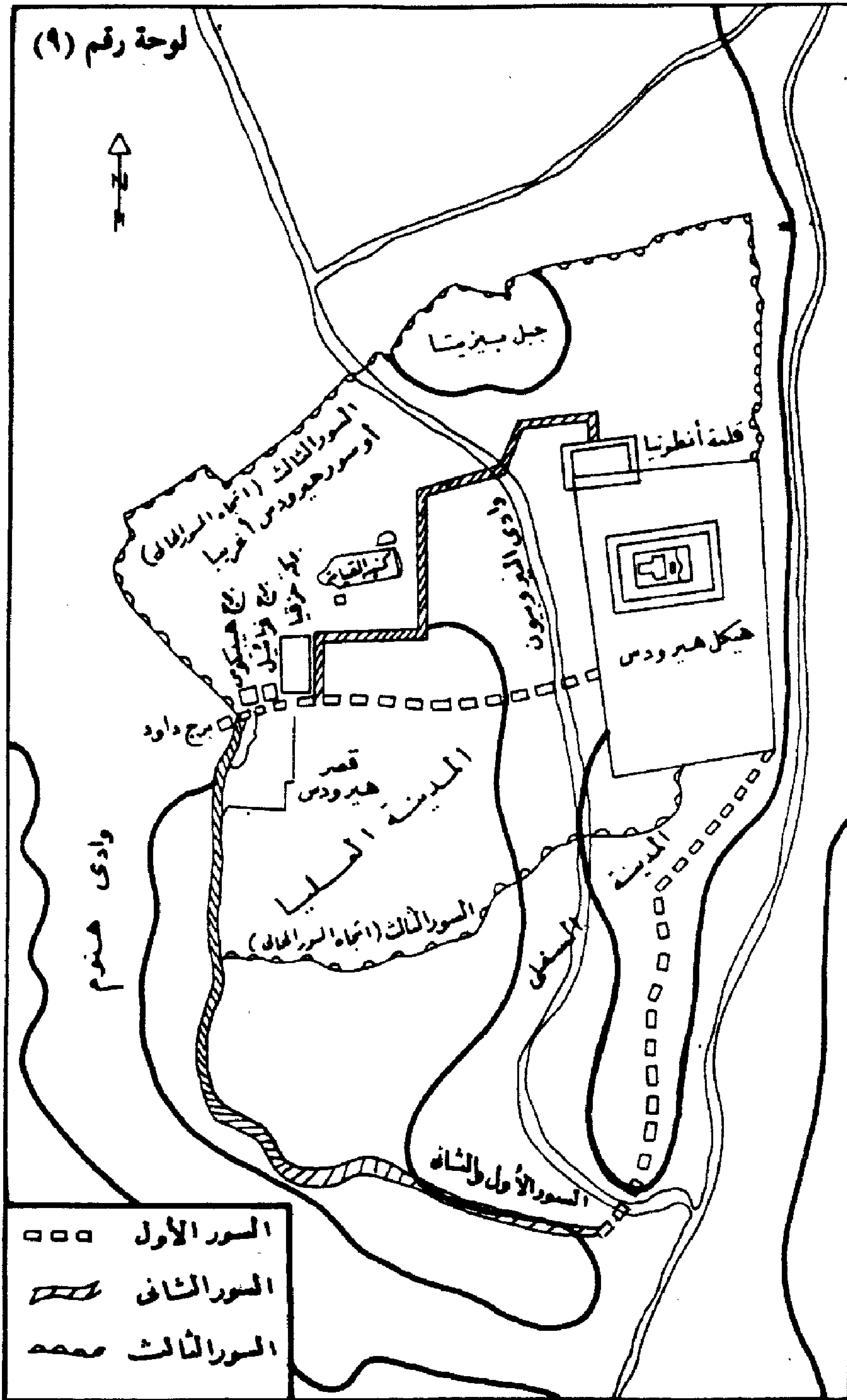
إيليا كابيتولينا لا القدس :

عـاد اليهود إلى أعمال الشغب فـي عهــد الإمبراطـور الرومانـي تراجــان (١٠٦ م) ، واشتدت خطورة أعمالهم عندمـا قامت ثورة اليهود المشهورة في كل مـن برقـة ومصـر في آن واحـد وامتـد خطـرها إلـى يهـوذا . ولما تـولى الإمبراطور هدريان عرش روما (١١٧ - ١٣٨ م) ، صمـم على القضاء على الكيـان اليهودي ، وقرر تشـييد مستـعمرة رومانيـة محل القدس بالإضـافة إلى إصداره أمراً بابـطال عادة الختان عند اليـهود ؛ كل ذلك كان السبب الحـقيقي وراء نشوب الثـورة اليهودية الثانية (١٣٢ - ١٣٥ م) ضد الرومان حوالي عام ١٣٢ م بقيادة بركوكبا أحد زعماء اليهـود ، الذي قام بإعلان الثورة حتى يتمكن من الحفاظ على كـيانهم الذاتي ، ولكنه ادعى أنه المسـيح المخلص ، وفي قول آخر أنهم الذين أطلقوا عليه المخلص بـسبب نجاحهم المؤقت في بداية الثورة ، وقد استطاع هدريان إخـماد هذه الثورة بعد أن قتل عدداً كبيـراً من اليهود ، ثم قام بتغيير اسم القدس إلى إيـليا كابيتولينا Aelia - Capitolina بعد تشييدها ،

---

(١) Ency . Religion : Samaria , p . 164

(٢) Gaster : Samaritans , p . 37



تخطيط لمدينة القدس قبل تدميرها عام ٧٠ م على يد تيتوس

يوضح أسوار المدينة الثلاث والقلاع والأبراج

كما أقام معبدًا لجوبتر كبير آلهة الرومان محل الهيكل ، واتضح لليهود بعد ذلك أن هذا المسيح المخلص لم يكن إلا دجالاً فقاموا بتغيير اسمه من بركوكبا (أي ابن الكوكب) وجعلوه بركوزيا (أي ابن الكذاب) ، وبذلك تقلّصت أحلام المسيحانية ضد اليهود وأكد هارديان قضاءه على الكيان الذاتي الديني لليهود [١]

ومن الجلي أن الطائفة السامرية قد تعرضت لأذي شديد في عهد هدريان مثل اليهود في أنحاء اليهودية ، حيث أمر الإمبراطور بإحراق معظم كتب التراث السامري ، كما يبدو أنهم خرجوا من بلادهم وانتشروا في المناطق التي سبق لليهود أن انتشروا فيها . ويجدر بنا أن نشير إلى ما ذكره أبو الفتح السامري عن موقف السامريين من هدريان خلال الثورة اليهودية الثانية ، والتي اتخذ السامريون خلالها موقفًا مخالفًا لموقفهم من الثورة اليهودية الأولى ، فيذكر أبو الفتح أن السامريين ساعدوا هادريان في حصاره للقدس ؛ ونتيجة لهذه المساعدة طرد كل اليهود من نابلس وأعلن ألا يسكن يهودي فيها وما حولها وسلّم السامريين أمور أنفسهم كما ملّكهم على اليهود . وكان هدريان قد أحضر أبواب القدس الكبرى النحاسية وقام بتركيبها على باب معبد سفيس جوبيتر الوثني الذي أقامه على جبل جريزيم ، وكان من نتيجة إقامة هذا المعبد الوثني على الجبل المقدس ، أن ثارت ثائرة السامريين واجتمعوا في السامرة وقرروا هدم هذا المعبد الوثني ، وبالفعل تم ذلك وأحرقوا الرهبان وأخذوا أبواب النحاس ودفنوها في جريزيم ، وعلى أثر ذلك مضى اليهود إلى هادريان فلما سمع ما فعله السامريون بمعبده اشتد غضبه وأحرق معظم كتب التراث السامري وأمر بقتل كل من هو سامري ، ولكن رجلاً سامريًا وقف أمامه وأقنعه بعمق العداوة بينهم وبين اليهود وأنهم يريدون الوقيعة بينه وبين

(١) راجع : Jewish Quarterly Review : Vol . 58 Hugo Mantel : The Causes of Bar Kokba Revolt pp 226 - 230 .

السامـريين ، فصدق الملـك كلامه وندم علـى قتل الســامريين ونادى بألا يـقتل سامري وأمر بقتل الـيهود وجري على اليهود ما جرى علـى السامريين ، وبعد وفاته خلفه ابنه انـطونينوس بيوس . Antoninus Pius (١٣٨ - ١٦١ م) الذي كان يؤازر السامريين حتى أنه درس التوراة وعمل بمقتضاها ، وقد ذكر أبو الفتح أن السامريين في عهد انطونينوس كانوا يتمتعون بامتيازات مثلما كان الحال أيام يوشع بن نون ، وإن كـنا لا ندري الأساس الذي بنى عليه أبـو الفتح هذه المقارنة (١) .

واستمرت هذه الأوضاع قائمة في فلسطين تحت حكم الرومان طوال مائتي عام حتى استولى الإمبراطور قسطنطين على روما وجلس على عرشها ، وجعل المسيحية الدين الرسمي للدولة .

ونخلص من هذه الدراسة عن القدس في العصر الروماني ، إلى أن اليهود لم تستقـر أمورهم في معظم الأحيان ، كـما أن اتجاهات الفكر الديـني عندهم كانت تخضع للاعتبارات السياسية وتتأثـر بها إلى حد كبير ، فقد استمر التنافس القديم بـين اليهود والـسامريين فـي العصر الـروماني . ومعـظم تاريخ الـفترة الرومانية في فلسطين يدور حول السامرة باعتبارها عاصمة للإقليم ، خاصة بعد أن أعاد هيرودس بـناءها حيث كان الرومـان يدركون القيمـة الحقيقية لتـاريخها السيـاسي ، ويبدو أنـه كان في العـصر الروماني مـجلسًا للـسامريين عـلى نمط مجلس السنهدرين اليهودي ، وكان له نـفس السلطات على المجتمع السامري . ويبدو لنا أن السلطات الرومانية لم تفرق في المعاملة بين اليهود والسامريين على حد سواء .

---

(١) أبو الفتح : تاريخ السامريين - صفحات ٦٢ - ٦٣ .
راجـع : Montgomery : Op . Cit . , pp . 91 - 93

الفصل السابع

يهود الأندلس والحنين إلى القدس

يهود الأندلس والحنين إلى القدس

أثر الحضارة الإسلامية على الفكر اليهودي

كل دين من الأديـان التي يدين بها الـبشر سماويًا كان أو وثنـيًا ، له مكان تجمع يقصدون إليه من أجل الحـج ، حتـى البوذية ، وديانات اليونان القدماء (معبد دلفـو ومعبد الأكروبول ومعبد الـكابيتول في روما) ؛ فالكـيان الديني الذي شهد ظهور الشريعة الموسوية ، كان مـعبده المركزي قد استكمل استقراره على أيام داود وسليـمان في القدس ، بعد أن كانت هناك مـعابد وأماكن حج متفرقة بعد وفاة موسى بعضها فـي شكيم أو الجلجال أو حبرون ، ولذلك ظهر عندهم نوع مـن الشعر الذي تصبغه الـصبغة الصوفية ، وهـي الحنين إلى زيارة هذه الأرض المقدسة في الـقدس ، وهم في ذلك يقلدون المسلمين فـي حنينهم إلى زيارة الأراضي المقدسـة في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، والـيهود ينظرون نظرة المسيحـيين إلى أماكن الحج المسيحية والـتي منها كنيسة القـيامة في القدس وكنيسة الميلاد في بيت لحم في فلسطين وكنيسـة الفاتيكان بالنسبة للكاثوليك في روما (وهي كنيسة القديس بطرس) .

فحنين اليهود إلى زيارة المعالم المقدسة اليهودية ، كان نوعًا من الحج يحمل في طيـاته طابعًا صهيـونيًا روحيًا بقدر ما كـان تقليدًا للـحجاج المسلمـين ، كما قلدوا الأدباء المسلمين في ضبط اللغة بالنحو والصرف والبلاغة وفي وزن الشعر وقوافـيه ، وكذلـك في أغراض الـشعر العـربي ، فإذا نـظم الشـاعر العـربي الموشحـات الأندلسية نظـموا هـم كذلك مـوشحات باللغـة العبرية علـى نفس المنوال ، كـذلك قلدوا الشعـراء العرب في قصائـدهم في مدح الملوك وكـتبوا مثلهم شـعر خمـريات وشعـر إخوانـيات ، وكذلـك قلدوهـم في نفـس هذه الأغراض باللغة العبرية .

ولايتسع المجال هنا للتفصيل في أمر هذه الناحية الفريدة التي تستوقف الاهتمام في تاريخ الفكر الإسلامي ، فقد عاش اليهود منذ القرن الثالث الميلادي في إسبانيا تحت حكم القوط الغربيين في اضطهاد شديد ، ومع ظهور الإسلام الذي انتشر وعمّ المنطقة كلها وبمجرد أن وضع العرب أيديهم على الأندلس حتى صبغوها بالصبغة العربية من حيث عاداتها وتقاليدها وآدابها [١] ، حيث عومل اليهود على أنهم أهل كتاب فتركت لهم حرية العقيدة الثقافية ، وهكذا بدأت اللغة العبرية في الظهور - وكان أمرها قد انتهى بين اليهود كلغة حية وحلت محلها اللغة الآرامية - وقامت نهضة لغوية أدبية حيث اهتم اليهود بدراسة النحو في لغتهم متأثرين بالنحاة العرب [٢] .

وقد أخذت ثقافة يهود الأندلس من موارد الثقافة الإسلامية بصورة مباشرة ، فبعد الفتح العربي تمتع اليهود بحرية دينية وفكرية لم يكونوا يعرفونها من قبل ، ووجدوا أنفسهم أمام ظاهرة تشبه شبهًا كبيرًا الظاهرة الدينية اليهودية ، فهم أهل كتاب مثل المسلمين ، وكلاهما يختلف عن المسيحيين في أن كتاب المسيحيين مروى بالمعنى وليست له لغة مقدسة إجبارية ، بينما القرآن الكريم كتاب سماوي مفروض على المسلمين بمعناه ولفظه ولا يصلح فيه الاعتماد على الترجمة .

إذن وهم تحت حكم السيطرة المسيحية لم ينجحوا في تقليد المسيحيين في شيء إلا في نظرتهم إلى الأماكن المقدسة ، لأن المسيحي يعتمد على الإنجيل في أي ترجمة ولأنه يضطهد اليهود ولايعطيهم حرية في المشاركة في أي حياة فكرية .

ونظرًا لما تميزت به الحركة اللغوية والأدبية داخل المجتمع الإسلامي ، فقد

---

(١) أحمد أمين : ظهر الإسلام - الطبعة الرابعة جـ ٤ ص ٩٩ .

(٢) د. حسن ظاظا - الساميون ولغاتهم - ص ٩٤ .

لاحظ اليهود المتمتعون بظل الإسلام ، أن المسلمين بحثوا في القرآن لفظًا ومعنى وقراءة وصوتًا فظهر علم النحو ، ولمعرفة البناء الأصلي للألفاظ ظهر علم الصرف ، ثم انتقل البحث إلى الشكل الأسلوبي للقرآن وهو عند المسلمين شكل يعتبر معجزة لم يعرفها العرب لا في الشعر ولا في النثر ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . . . ﴾ [الإسراء ٨٨] ، وهكذا ظهر علم المعاني للبحث في مطابقة اللفظ للمعنى ثم علم البيان وعلم البديع الذي يبحث في تجميل الأسلوب .

إلى هذا الوقت كان اليهود لايبحثون في مثل هذه الأشياء وكانوا تلقينيين في دراستهم للتوراة ، يأخذون تفسيرها وتلاوتها بالتلمذة جيلاً بعد جيل ولكنهم فتنوا بمناهج المسلمين ، فظهرت لأول مرة في تاريخهم مؤلفات في النحو والصرف ، فمن نحاة اليهود الذين ترسموا خطى العرب في دراسة اللغة في غضون القرن العاشر الميلادي أبو زكريا يحيى بن داود حيوج الذي ألفّ في صرف اللغة العبرية كتاب الأفعال الجوفاء والمضاعفة ، ومن الواضح البين مثلاً أن شيخ نحاة اليهود في النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي هو أبو وليد مروان بن جناح القرطبي الذي ألفّ باللغة العربية كتابا في نحو اللغة العبرية اشتهر باسم « اللُمَّعْ » .

وهكذا كان العصر الأندلسي عصراً ذهبيًا في اللغة العبرية وآدابها ، إذ ظهرت حركة فكرية بلغة عبرية متطورة ، متأثرة باللغة العربية الثرية ولذلك كان هناك حشد حافل من الثقافة الجديدة يعتمل ويختمر في قرطبة في ظلال الحضارة الإسلامية ، وانصرف نفر من شعراء اليهود في الأندلس مستخدمين أعاريض الخليل ابن أحمد التى جرت عليها أوزان الشعر العربي مثل يهوذا

اللاوي وابن جبيرول وموسى بن عزرا والحريزي الذي ألف مقاماته العبرية على غرار مقامات الحريري العربية [1] .

ومجمل القول : تأثر اليهود بالفكر اللغوي الإسلامي ، وكما ربطه المسلمون بالقرآن ، ربطه اليهود بالتوراة ، وقلدوا المسلمين في استنباط آيات الأحكام والتوفيق بين ما جاء في التوراة وما جاء في التلمود ، ولعلّ أحسنهم موسى بن ميمون طبيب الدولة الأيوبية الذي ظهر في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر وجمع الشرائع اليهودية في كتاب يسمى « مشناه توراة » بمعنى أحكام التوراة واشتهر باسم « يدحزقاه » بمعنى اليد القوية ، أخذ فيه ما جاء في التوراة وما جاء في المشنا والتلمود ورتبه على أبواب وهو الكتاب الوحيد الذي كتبه موسى بن ميمون باللغة العبرية ، بالإضافة إلى ذلك كتب كتبًا كثيرة باللغة العربية أهمها كتابه المشهور « دلالة الحائرين » وهو في العقيدة اليهودية . وقد تأثر موسى بن ميمون في كتابه بالفكر الإسلامي الذي لم يكن معروفًا على عهد التوراة .

كل هذا أدى إلى أن يتسلح اليهودي بهذه الثقافات حتى لايكون متخلفًا عن مفسري القرآن من المسلمين وهو يعيش بينهم ويرى جهودهم في العناية بحفظ وتفسير كتابهم المقدس .

ومن هنا عملوا على تنقية اللغة العبرية مما فيها من شوائب وقلّد يهود العصور الوسطى الإسلامية بقدر الإمكان أسلوب التوراة .

هذا إلى جانب أن اللغة العربية لغة سامية مثل العبرية ، مما جعل تسرب أشكال تركيب الجملة العربية إلى الأسلوب العبري في العصور الوسطى أمرًا سهلاً لدرجة أننا نجد عندهم مقامات الحريزي يقلد فيه أسلوب مقامات العرب

(١) ظاظا : الساميون ولغاتهم - صفحات ٩٨ - ٩٩ .

وخصوصًا الحريري . وفي الرحـلات يظهر بنيامين الططيلي ويتـأثر في طريقته في التعبير بوضوح بأساليب الرحالة العرب مثل ابن جبير .

على أن المعنى السياسي في حنين يهود العصور الإسلامية في الأندلس إلى القـدس - وهو معنى لايوجـد ما يقابـله في حنـين المسلـمين إلى الحرمـين الشريفـين - وهو أنهم يعتقدون أن وجـودهم في الشتات كان بـغضب من الله عليـهم ، ولذلك فإنهـم على الرغم مـن تأقلمهـم في ظروفهم الجديـدة كانوا يتـرقبون زوال غضـب الله عنهـم ، وذلك بأن يـكون لهم كـيان في عاصـمة سليمـان ؛ ولهذا كانت التقـاليد المعمارية تقـضي على اليهودي إذا بـنى بيتًا أو قصرًا أن يترك فيه قطعة مكشوفة من الحجارة ، أو مهدمة تُذكِّرُه بخراب الهيكل وتدعوه دائـمًا إلى ألا يسكـن في دار كاملة الـعمران حتى يـتم عمران المـدينة المقدسة ، لذلك امـتزج الحنين الديني بهذه العـقيدة السياسية والحربيـة ولكنهم حولوها إلـى عقيدة غيبية لـدرجة أن المتزمتين منهـم كانوا يرفضون الصهـيونية الحديثة عند ظهورهـا لما تتضمنه من تمرد على غضب الله الذي بـه كتبت عليهم الذلة والمسكنة ، ولـم تنحل هـذه العقدة إلا عـندما اقتـنع بعض الحـاخامات بالصـهيونيـة في أواخر القـرن الماضي (من أمـثال هيرش) ، فـبدأ المتديـنون المثقفون يقبلون الصهيونية بدون حرج .

والخلاصـة أن حنين المـثقفين الـيهود سـياسيًا إلـى فلسطـين في العـصور الوسطى كان وسطًا بين الرضا بالعقاب الآلهـي الذي أنبأهم به أنبياؤهم وانتظار عفو عنهم ، لا يكون إلا بوجود حاكم لهم في الأراضي المقدسة فهي إذن نزعة صهيونيـة ذات طابع روحى قومى . قوامهـا التسليم بالإرادة الآلهـية ، أي أنها بالمقـارنة بصهيـونية هرتـسل ، كانت عاطـفية لا تتخـطى ذلك إلى عـالم المال والأعمال ، وكذلك كـانت سلبية لم تفكر فـي ترجمة هذه العاطفة الصـهيونية إلى مشروع عملي واجب التنفيذ .

ولذلك فشعرهم في الحنين إلى القدس كان ممهداً للصهيونية السياسية ، فعندما قام هرتسل بتحويل الحركة الصهيونية من حركة فكرية إلى حركة سياسية - بارساء منهجها العام سنة ١٨٩٦ م في كتابه الشهير « الدولة اليهودية » - إنما حوّرها وسخرها للوصول إلى خدمة أغراضه السياسية وأهدافه القومية .

وحتى نتبين طابع الشعر العبري في الأندلس وتأثره بالشعر العربي في ظل سماحة الإسلام وحضارته ، سوف نعرض نموذج من إنتاج أعلام الأدب العبري الذي عاصروا هذه الفترة ، والذي يبدو فيه البكاء على المجد الضائع القديم ، وعلى الهموم التي يعيشها اليهود في الشتات والجيتو ، بل كان الشعر يخاطب آلام اليهودي الذي طرد من زمن طويل وكتبت عليه الذلة والمسكنة .

الشعر العبري الوسيط

ويمكن تقسيمه إلى قسمين رئيسين ، ديني ودنيوي ، وبالطبع فإن الشعر الديني قد سبق نظم الشعر الدنيوي الذى كان نتاج فترة الاتصال بالثقافة العربية ؛ والسبب في ذلك أن التراث الشعري لليهود قبل العصر الوسيط كان كله في العهد القديم وكانت النظرة إليه على أنه شعر ديني ، فظلوا قرونًا طويلة لايتصورون الشعر إلا دينيًا ، ولايكتبونه إلا في هذا الغرض حتى قبل التأثر بالحضارة الإسلامية ، فلم يرد لنا من شعر العصر الوسيط المتقدم غير أشعار دينية عند « هقلير » و « يوساي اليتيم » وحتى سعديا الفيومي ، إلى أن استطاع الشعر العربي أن يؤثر على شاعرية اليهود المقيمين بين المسلمين وبخاصة في الأندلس والمغرب حيث ظهرت الأغراض الدنيوية الأخرى [1].

وقد يسرّ ظهور الشعر الديني عدة عوامل من أهمها ، أنه في فترة إحياء

---

(١) احمد امين : ظهر الإسلام جـ ٤ ص ٢٣٠ .

اللغة العبرية ازداد الاهتمام بالعهد القديم ولغته وكذلك بفقه اللغة والتفسير .

وهناك اثنان من الينابيع التي تغذي الشعر العبري ، أولهما العاطفة الدينية العميقة ، وثانيهما معاناة بني إسرائيل التي تناضل في يأس لكي تنقل مشاعرها للرب ، ولم تجد كفايتها في الصلوات فأضاف اليهود التسابيح والقصائد وكثيراً من صور الشعر الديني الذي يعبر روحيًا عن مشاعرهم وتطلعهم للخلاص (١) .

فالشعر العبري المعروف « بالبيوطيم » لم يعالج موضوعات مثل الفروسية والغزل أو الرثاء أو الهجاء ، وكذلك لم تغلب عليه الموضوعات المعروفة في الشعر العربي وغيره من أشعار الأمم الأخرى ، بل كان اهتمامه منصبًا أساسًا على الدين والمعبد تعبيراً عن آلام اليهود وأحزانهم ، وقد نشأ شعر البيوطيم في ظلال الإسلام متأثرين بالشعر العربي وزنًا وقافية (٢) .

ينقسم الشعر الديني إلى نموذجين أولهما البيوطيم مثل ترانيم المديح وهي تسبيحات للرب ، حيث تتجلى قدرة الخالق فى إطار فلسفي ، أما النموذج الثاني فَعُرِف باسم « سليحوت » وهي الصلوات التي تتضمن كل أنواع القصائد الحزينة ويندرج تحتها ما يسمى « قينوت » وهي مرثيات لذكرى تدمير المعبد في التاسع من آب وهى تلك الأيام السوداء في التاريخ اليهودي .

وتعتبر الفترة من القرن التاسع الميلادي وحتى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي عصراً ذهبيًا للأدب العبري في الأندلس ، وخلالها نظم شعراء اليهود أشعاراً متنوعة ، ولكن كان اهتمامهم منصبًا على أشعار الحنين إلى القدس ، وكان من أبرز شعرائهم ابن جبيرول ويهوذا اللاوي وموسي بن عزرا ويهوذا الحريزي ، وسوف نستشهد ببعض أشعارهم في الحنين للقدس لنتبين اتجاهاتهم .

---

(١) Waxman : Jewish Literature Vol . I p . 20

(٢) د. فؤاد حسنين : من الأدب العبري – ص ١٢٧ .

سليمان بن جبيرول وبعض نماذج من أشعاره [١]

هو رائد من رواد الشعر العبري في العصر الذهبي للأدب العبري في الأندلس (من القرن التاسع حتى نهاية القرن الثاني عشر) ، وقد طرق ابن جبيرول في شعره موضوعات شتى عكست طبيعته التراجيدية التي طبعت روحه بالحزن منذ شبابه الباكر ، فلا عجب إذن أن نلاحظ تلك المرارة والنظرة التشاؤمية منتشرة بين قصائده .

وقد نظم عدة قصائد فلسفية أهمها قصيدته الشهيرة « كترملخوت » ومعناها (تاج الملك) ، وقد ضمنّها آراءه الفلسفية عن العالم وأبرز علاقته بالله ، حيث تحدث فيها عن عظمة الخالق وجبروته وحكمته ، وفي قسمها الثاني يتكلم عن الكون الذي صنعه الرب والكواكب السبع تلف في مداره ، وهذه القصيدة منظومة بصورة حرة لاتخضع للتفعيلات العروضية العربية بحساباتها الدقيقة في الحركات والسكون وهي تشبه إلى حد ما أسلوب المقامات ، وأهم ما يميزها أن الشاعر أدخل السجع العربي إلى الأدب العبري ، ويبدو فيها تأثره بآراء فلاسفة العرب ونستشهد منها بالآتي :

لك الجبروت الذي في سره عجزت أفكارنا عن الوقوف
لأنك أخفيته عنا تمامًا لك سر القوة والروح والمادة
لك الفضل الذين فاض على مخلوقاتك وثواب الآخرة لخائفيك
لك الأسرار التي لايستوعبها عقل وإدراك والحياة التي لايصيبها الفناء

وقد استوقفنا كتابه الذي ألفه باللغة العربية وهو بعنوان « ينبوع الحياة » ، وهو كتاب صوفي يظهر سعة تأملات ابن جبيرول ويبين تأثره الواضح واستيعابه لكتب الفلسفة الإسلامية في ذلك الوقت ، ثم قام ابن جبيرول بعد ذلك بالتعبير عن حنينه للعودة إلى القدس في إطار الوجدانيات الدينية التي

---

(١) وقد عرفه العرب باسم « أبي أيوب سليمان بن يحيى » .

امتزجت بصهيونية روحية ، فنظم قصيدة « شْبِيَاَبتْ صهيون » وترجمتها بالعربية (أسيرة بنت صهيون) ، وفيها يتضرع إلى الرب لينقذ اليهود من العبودية في الشتات ولكنه يعود فيؤكد أن الرب لم يغفل عنهم ، ولكنه سيرسل لهم المسيح المخلص [١] ليجمع اليهود في المنفي استعداداً للعودة إلى القدس ، وفيها يقول :

أسيرة بنت صهيون (القدس) مصهورة في أتون الفقر
أقسم آباؤك كما أقسمت من أجلك
سمعت صرختك وصعدت إلى مقري
واجبتك لأني رحيم
....
ها قد أقسمت أن أجمع شعبي الأسير
ألا يقوم الملوك آنذاك بتقديم هدية لك
وها هو شاهد للأمم وضعته لمقدسي
وهنا رأيت ابن يسى [٢]

وذلك كله إنما كان يدل على ما كان يتوافر في قلب ابن جبيرول من عذاب في المنفي ورغبته في الخلاص وطلب العودة إلى القدس ، وهو ما كرره في ندائه الذي جاء في قصيدته المعروفة باسم « شبيا عنيا » وترجمتها العربية (أسيرة معذبة) ، وفيها يحدثنا عن عظمة الرب وجبروته وحكمته ويتضرع إليه أن يخلصهم من المنفى ويساعدهم على العودة إلى القدس ، ويناشد الرب أن

---

(١) اقترنت فكرة المسيح المخلص بفكرة تجديد العهد مع الرب ، وبذلك تتجدد الأمة لتصبح على المستوى الذي يليق بقدرة الله ، وعندئذ تصبح أورشليم (القدس) مدينة السلام وتليق بإقامة الرب على جبل صهيون ويتجمع فيها أبناء إسرائيل من السبي .
راجع ظاظا : الفكر الديني – ص ١١٢ .

(٢) أي المسيح المنتظر المنحدر من سلالة داود بن يسىّ .

يتذكر إسرائيل ولاينساها وأن يرسل إيليا النبي ليبشر بالمسيح المخلص (١) .

ويؤكد ابن جبيرول في قصيدته (أسيرة معذبة) ما كان يقتبسه شعراء اليهود في الأندلس من نصوص العهد القديم ، في حين ندر اقتباسهم من نصوص التلمود ، ولم يكن ذلك عن عدم معرفة بالنصوص التلمودية ، وإنما كان تقليداً للشعراء العرب في اقتباسهم من القرآن الكريم أكثر من اقتباسهم من الحديث الشريف (٢) . يضاف إلى ذلك أن لغة التلمود لم تكن عبرية بل آرامية ، مما جعل الاقتباس منه معيباً في قصيدة تسعى إلى أن تكون عبرية فصيحة ، فيقول ابن جبيرول .

أسيرة معذبة — في أرض غريبة
مأخوذة لأمة — لأمة مصرية
ومنذ تركتها — لك تنتظر
أعد سبيها — يا قادر يا قدير
وأم العشيرة — تكون ثالثة
(بين الأمم بعد مصر وآشور)
وبادر بسرعة — وبشرها بإيليا
تغني يا بنت صهيون — ها هو مسيحنا
لماذا تنسانا إلى الأبد
لكل نهاية — ولا نهاية لألمي

(١) ومن تقاليد عيد الفصح عند اليهود أن يُصبّ كأس للنبي إيليا عند صب النبيذ ، وقد وجد في الخيال الشعبي اليهودي أن إيليا النبي قد أصبح جزءاً لا يتجزأ من فكرة المسيح المخلص عند اليهود ، وكان لذلك تأثير عميق من التطور الديني عندهم .

(٢) د. محمد بحر عبد المجيد : اليهود في الأندلس - ص ٣٦ .

يهوذا اللاوي وبعض نماذج من أشعاره [١] .

عاش يهوذا اللاوي أثناء الفترة الزمنية التي وصل فيها التطور الثقافي لليهود إلى ذروته وذلك عندما كانوا في ظل سماحة الإسلام وحضاته ، ويمكن تقسيم شعره إلى ثلاثة أنواع هي : دنيوي وديني وقومي . وأهم ما يعنينا هو شعره القومي ، وفيه يتساءل عن الأسباب وراء تشريد الشعب المختار وتعذيبه ؟؟!! وقد اتخذت هذه المشكلة والبحث عن حل لها علامة مميزة في شعره القومي . . وقد توصل إلى حل لها وهي الخلاص والتوبة وهما يمثلان الفكرة الرئيسية عند يهوذا اللاوي ، وهو لذلك صور نفسه على أن يحترق حبًا لصهيون التي اعتبرها هدفه الرئيسي [٢] .

وعندما يئس يهوذا اللاوي من التبشير بالمسيح المخلص ووصوله لتخليص اليهود من المنفى ومساعدتهم في العودة إلى صهيون ، قال باستياء شديد تلك الكلمات « إن يد المنفيين أقصر من أن تنقذنا » ، وقد أدخل فكرة الهجرة في مؤلفه العربي الكبير وعنوانه « الحجة والدليل في نصرة الدين الذليل » [٣] ويبدو من عنوان الكتاب أنه أراد أن يجعل من نفسه مدافعًا عن اليهودية ، وقد ضمّنه آراءه الدينية والفلسفية والتي تأثر فيها بالعقيدة الإسلامية وفلسفة الإغريق (أرسطو والأفلاطونية المحدثة) ، وكان الذي نقل هذه الاتجاهات الإغريقية إلى الفكر اليهودي هو فيلون اليهودي السكندري الذي كان أول من سخّر منطق أرسطو ومفاهيم أفلوطين السكندري أيضًا عن فلسفة أفلاطون ، لخدمة

---

(١) ويكنيه العرب بأبي الحسن اللاوي ، فقد نظم أشعاره في قوالب وموضوعات عربية . ولد في الأندلس عام ١٠٨٠ م ومات حوالي عام ١١٤٠ م .

(٢) شيرمان : هشيرا هعفريت بسفراد وبفروباتس « الشعر العبري في أسبانيا وجنوب فرنسا » - ص ٤٢٥ .
Waxman : Jewish Literature Vol . I , p . 229

(١) كتبه باللغة العربية بحروف عبرية وقد ترجمه إلى العبرية يهوذا بن تبون تحت « سفر هخزري » كتاب الخزري بفتح الخاء أو ضمها .

الدين اليـهودي خصوصًا في تفـاسيره على التوراة ، كـما يتضح منـها دراسته العميقة لفلسفة ابن سينا المفكر العربي .

ومن قصائده عـن صهيون قصيدة بعنوان « لبى بمزراح » وترجمتها العربية « قلبـي من الشرق » ، وهـي من قصائده الـدينية عن الـتوبة ، والتـوبة هي الفكرة الرئيسية في شعر يهوذا اللاوي ، فهـو ينفي الحاضر ويعيش في المستقبل ومن أجل ذلك يحتـرق حبًا لصهيون التي هي هدفه الوجـداني ، ولذلك يأمل في الإقامة على أرضها المقدسة ونورد فيما يلي بعض أبياتها :

قلبي فـــي المشرق وأنا فــــي أقصى المغرب
فكيــف أتذوق زادي وكيـــف يطيـــب لي ؟
وكيف أفــــــي بنذوري [1] فــي حيــن
أن صهيــون في قبضة أدوم وأنا في قيـد العرب
يهون فــي نظري كل جمـــال أسبانيا مثلمـــا
يعز على نفسي رؤية تراب قدس الأقداس مخربًا

كما نـظّم قصيدة عـن الأرض المقدسة بـعنوان « شيـري ارتس يسرائـيل » ومعناهـا بالعربية (أشعـار أرض إسرائيل) ، تظهر تعـمقه في الديانة الـيهودية وفلسفتها اللاهوتية ومن خلالها يبرز جمال مدينة القدس ويعرض كل ثروته في الأندلس (الـتي جمعـها تحت راية الإسـلام وسماحتـه) من أجل إمتـاع نظره بتراب القدس ، كل ذلك في ظل حلم يريده فـي إطار الوجدانيات الدينية التي امتزجت بصهيونية روحية تخاطب آلام اليهودي الذي طرد منذ زمن طويل .

---

(١) كفارة عن النذر الذي نذره بالهجرة إلى القدس .

يا جميلة المشهد يا بهجة الكون ، يا مدينة الملك العظيم[١]

لك تتطلع نفسي مـــن مكاني مـــن الغرب (الأندلس)
ويفيـض حنانـــي عنـــدما أتذكـــر تاريـــخ
مجـــدك الـــذي انقضـــي وقدســـك الذي خرّب
ومـــن يحملنـي فـــوق أجنحـــة النســـور حتى
تختلـــط دموعـــي بثراهـــا فترويهـــا
الا أتلمـــس أحجـــارك وأقبلـــها
فمـــذاق ترابـــك عنـــدي أحلـــى مـــن العسل

نموذج من شعر إسحاق بن غياث عن القدس [٢]

معظم القصائد التي كتبها ابن غياث تنتمي في غالبيتها إلى الأشعار الدينية ، ويذكر موسى بن عزرا وهو أحد تلاميذ إسحق بن غياث ، أن أستاذه قد تميز بإلمامه الواسع باللغة الآرامية التي كتب بها معظم قصائده والتي وزنت على بحور الشعر العربي وفقًا للقواعد العامة لأصول البلاغة العربية . وقد استوحى الأمور العلمية في أشعاره من الأعمال الفلسفية لمن سبقه من الفلاسفة العرب .

وفي مرثية التاسع من آب [٣] ، يصور الشاعر مدى الدمار الذي حاق بالقدس والهيكل الثاني لليهود ، وفي هذه القصيدة اقتبس كثيرًا من ألفاظ العهد القديم وخاصة مراثي إرميا وفيها يبكي على المجد الضائع القديم .

---

(١) كلها أوصاف لصهيون استعارها الشاعر عن المزمور ٣٨ : ٣ من العهد القديم ، وتلك كانت لازمة لشعراء اليهود في الأندلس قلدوا فيها شعراء العرب عند اقتباسهم من القرآن الكريم كما أسلفنا .

(٢) ولد إسحاق بن غياث في الأندلس عام ١٠٣٨ م وتوفي عام ١٠٨٩ .

(٣) وهي ذكري سقوط القدس في التاسع من آب عام ٧٠ م على يد الإمبراطور الروماني تيتوس ، كما دمر الهيكل الثاني لليهود (والذي أعاد تشييده عزرا ونحميا بعد العودة من السبي البابلي .

مطرودون مـــــن بيت عزهم ثلت نفسي مـــــن رؤية قتلاهم
يوم خروج العذارى مــــن هياكلها والأمهات ثكالـــى علـــى أطفالـها
يوم حملن قيدهن عوضًا عـــن حليهن وهن سبايا حرب فـــي أيدي قادتـــهن
يوم سفكــــت الدمــــاء كالمطر وانتهكت حرمة الهيكل فـــي الأرض
وتلطخ كتـــاب التـــوراة بالـــدماء وصارت صهيون عجبًا أمام الساخرين
خرجوا إلى الأمـام شـــرقًا وغـــربا وكيف مر عليهم سيـــف الانتقـــام

موسى بن عزرا وتأثره بالأدب العربي [1]

استفاد موسى بن عزرا كثيراً من الحركة الفكرية العبرية التي تأثرت باللغة العربية الثرية في ظلال الحضارة الإسلامية ، فقد اهتم بدراسة الأدب العربي ونسج شعره على منوال شعراء العرب . ويعد أن درس الأدب العربي تحول إلى تناول الأدب العربي والعبري بالدراسة والنقد ، وفي أعقاب ذلك ألفّ كتابًا بالعربية في الأدب والبلاغة بعنوان « المحاضرة والمذاكرة » وفيه قلّد من سبقه من البلاغيين العرب في تناوله لتاريخ الأدب والشعر العربي والعبري على حد سواء ، وخاصة وأنه كان مولعًا بالمحسنات البديعية ولاسيما الجناس ، كما تناول فيه عرضًا تاريخيًا لفتح العرب للأندلس ، وظهر فيه أيضًا أثر العلوم اللغوية والأدبية العربية في إثراء الأدب العبري [2] .

---

(١) هو موسى بن يعقوب بن عزرا ، وقد عرفه اليهود باسمه المختصر (ر ب م // ع) ، ربي موسى بن عزرا ، ويكنيه العرب بأبي هارون . وله ديوان شعر يتغنى فيه بالحب والخمريات والطبيعة على منوال شعراء العرب . ثم تغلبت عليه الروح الدينية وأدركت روحه الشوق إلى الرب ، فكرّس حياته لشعر التوبة والغفران .

راجع : Waxman : Vol . I , pp . 225 - 226

(٢) د. شعبان محمد سلام : الأثر العربي في الشعر العبري (جـ ١) صفحات ٣٧ – ٤٦ .

يهوذا الحريزي[1] وبعض نماذج من اشعاره

عاش يهوذا الحريزي في أواخر الفترة الزمنية التي وصل فيها تطور الثقافة العربية الأندلسية إلى القمة ، وأثناءها اشتهر بأنه أفضل من كتب المقامات العبرية وجاءت شهرته من خلال ترجمته لمقامات الحريري [2] العربية إلى اللغة العبرية ، هذا بالإضافة إلى ترجمته لبعض الكتب العربية إلى العبرية .

ففي سوريا كانت بداية كتابة يهوذا الحريزي للمقامات العبرية والتي تسمى اليوم « تحكموني » ، وتشتمل على خمسين مقامة تروى على لسان « هيمان ها ازراحي » شخصية البطل في هذه المقامات باسم « حبر هاقيني » يكني به عوضًا عن المجتمع اليهودي ، وهاتان الشخصيتان اقتبس اسميهما من العهد القديم [3] .

ومن الممكن أن يسمى كتاب يهوذا الحريزي « تحكموني » بعنوان آخر هو « كتاب حروب يهوذا الحريزي » وقد أطلق عليه هذا العنوان نظراً للجهود الكبيرة التي بذلها في تطويع اللغة العبرية وجعلها قادرة على التجاوب مع أعماله الأدبية المختلفة وخاصة عندما نظم مقاماته بالعبرية غرار مقامات الحريري العربية . فهو يكشف بكل صراحة عن حسده للأديب العربي الكبير ورغبته في أن يحذو حذوه ، وأن ينتج أعمالاً على غرار أعماله باللغة العبرية ، ونورد هنا نص ما قاله يهوذا الحريزي :

---

(١) هو يهوذا بن سليمان الحريزي الذي ولد في عام ١١٦٥ م وتوفي في عام ١٢٢٥ م .

(٢) تعتبر مقامات « أبي علـي محمد قاسم بن الحريري » (ولد ١٠٥٤ م أو ١٠٥٥ م ، وتوفي عام ١١٢٢ م) من أشهر كتب الأدب العربي وأوسعها ، وكان يروي مقاماته على لسان شخصية « أبي زيد السروجي » ويشتمل كتابه على خمسين مقامة (فصلاً) ، ويعد كتابتها قلدها كثير من الأدباء العرب واليهود في الأندلس ، حيث كان الحريري من أهل البصرة في العراق .

راجع : تاريخ الفكر الأندلسي ترجمة د. حسين مؤنس - صفحات ١٨٠ - ١٨١ .

(٣) د. محمد بحر عبد المجيد : اليهود في الأندلس صفحات ٩٢ - ٩٣ .

« والأمر الذي أيقظ في نفسي وروحي لتأليف هذا الكتاب هو أن رجلاً حكيمًا من حكماء العرب وصفوه المثقفين ، فلغته أعلى من أن توصف بالبلاغة ، وعلى فمه تطلعت نبوءة الشعر ، وعلى ذلك فقد كتبت هذه الباب لكي أظهر قوة اللغة المقدسة »[١] .

وقد ضمّن كتابه « تحكموني » موضوعات شتى منها على سبيل المثال مقامتان منظومتان في تاريخ الأدب العبري ، كما أدخل فيه البركات والترنيمات ، ونظراً لما تضمنه هذا الكتاب من ثراء موسوعي ، فقد أصبح أحد الكتب اليهودية المشهورة التي أدخلت نصوص منه إلى الصلوات الدينية .

ومن بين ثنايا كتابه نبرز مقامته عن صهيون ، والتي يظهر فيها تعمقه في الديانة اليهودية ، وحنينه إلى صهيون يتضح من خلال وصفه لجمال القدس حتى أن العين لم تر مثل بهائها ، كما يتحسر على دمارها ، ويسير يهوذا الحريزي على منوال يهوذا اللاوي في طلب الخلاص من الرب حتى يتجنب اليهود عذاب المنفي ويقل الخلاف بينهم داخل المدينة المقدسة ، ولذلك أطلق عليها اسمًا جديداً هو « صخرة الخلافات » :

ويقول في مقامة صهيون :

صهيون وكم من الدول ازداد بهاؤها
ولكن بهاءها لم تره عين بشر
المدينة التي كانت مقرًا للسكينة
وكشفت عن مجدها لعيون بني الإنسان
وكيف هبطت رباها أسفل سافلين
بعد أن كانت في أعلى القمم فخورة

---

(١) يهوذا الحريزي : كتاب « تحكموني » جـ ١٨ - ص ٣ .

نفـــي شعبها مـــن القصـــور الفخمة
ولم تنفـــــذ وصـــــايا الرب
تتعشـــم أن تتطهـــــر بميـــاه المنفـــى
ولكنها لم تتطهر بعـــد ، ولم تغتســـل
لقد انقضـــى عليهـــا ألف سنة ومائة
وثمانية وأربعون عندما استيقظت من سباتها
وطردت مــــن قلـــب صهيـــون
وحتـــى الآن تريـــد صهيـــون سبيها
وهـــي تبكـــي حينمـــا ترى جموع الغرباء
يصعدون إلى بيت الرب وهـــي لم تبرأ بعد
ولم تعجـــز يد الرب عـــن إنقـــاذها
وجمع شمل أفراد شعبها ليعيـدهم للبيت
وســـوف يعيدها الرب فـــوق عرشها
وتعود إلى مجـــدها بعـــد خرابها [١]

ويقول في إحدى مقاماته علـى لســـان « هيمان ها ازراحي » ما نصه : « فقـلت له ما ذلـك هنا وما هـي وجهتـك ؟ قال : كنت عـلى أرض إسبانـيا مشتتًا ومفرقًا ، وفي كل يوم كنت أسـمع عن معجزات عزرا . مقدس الرب . ولقد أخـافت الكلمـات أفكاري وأطارت النـوم من عيني . وأيـقظ الله روحي لأركب السفن وأسير فـي المستنقعات من جبال النمـور ومواطن الأسود بعد أن تركت وطني بعيداً مهجوراً حتى تميز الحق من الباطل » [٢] .

ولقد وقفنا في دراسـتنا ليهوذا الحريزي على حقائق بـالغة الأهمية ، وهي

---

(١) يهوذا الحريزي : كتاب « تحكموني » صفحات - ٢٤٦ - ٢٤٧ .
(٢) الحريزي : المرجع السابق - ص ٢٨٧ .

أن الثقافة العربية قد صبت كل روحها في الأدب العبري في الأندلس ، بل الأمر أبعد من ذلك مدى ، فهو لم يقتصر على ترجمة الشعراء اليهود للشعر العربي والمقامات العربية ، وإنما تجاوز ذلك إلى تأثرهم بالفكر اللغوي الإسلامي ، وكما ربطه المسلمون بالقرآن ربطه اليهود بالتوراة ، كما قلدوا نحاة العرب في النحو والصرف وعلوم البلاغة وعلم المعاني وعلم البيان وعلم البديع (طباق وجناس) إلى جانب أوزان الخليل بن أحمد في العروض العربية التي أدخلها إلى العبرية دوناش بن لبراط وأصبحت من بعده إلى قيام الصهيونية الحديثة الطريقة المثلى لكتابة الشعر العبري لم تتزحزح عن عرشها هذا إلا عندما كتب يهود أوروبيون أشعارهم على الأوزان الأوروبية ، ومن بعد ذلك قلّ من يكتب على الأوزان العربية ، وإن كان بعضهم ما يزال يلتزم إلى الآن خصوصاً اليهود السفرديم .

وقد جاء في المقامة الثامنة عشرة من كتابه « تحكموني » تفسيراً ليهوذا الحريزي لافتاً للنظر ، وهو أنه تحدث عن فضل شعراء العرب ونحاتهم على الأدب العبري ، ونورد هنا نص ما قاله الحريزي عن فضل العرب في هذه المقامة :

« اعلموا أن الشعر الرائع الذي يمتليء بالنفائس والروائع هو من ممتلكات العرب في البداية ، واستطاعوا رأب كل صدع فيه وأن يزنوه بموازين عادلة وأن يضعوه في مكانته ، بل وأثروا به على غيرهم فنجدهم قد بنوا أسقافه وشذّبوا قصوره وأقاموا مصاريعه ولهم اليد الطولى بين شعراء الدنيا .

فنجدهم أول من يتحدثون إذا ما دعي الشعراء للحديث ، وعلى الرغم من أن لكل أمة من ينظم لها الشعر ويعمل في صنعة الشعر ، إلا أن شعرهم لايمثل شيئاً وكلامهم نوع من العبث الذي لايجدي بالمقارنة بالشعراء أبناء الاسماعيليين (يعني العرب) حيث لانجد الشعر الجميل اللفظ ، الجزل العبارة مثل الشمس

في إشراقها ، صحيح المخرج كالفجر إلا لدى العرب ، أما الباقون فلا يعتبرون إلى جانبهم شيئًا » [١] .

ولايتسع المجال هنا للتفصيل في أمر هذه الناحية الفريدة التي تستوقف الاهتمام في تاريخ الأدب العبري وتأثره الواضح والجلي بالثقافة العربية والفكر الإسلامي ، وبحسبنا الآن أن نعلم أن الشعر العبري على وجه الخصوص قد أخذ منهجه في الأندلس من الشعر العربي كما أن نظّم على ضوابط ومقاييس القصيدة العربية ، وهذا ما عبّر عنه الحريزي في قوله :

« أقام العديد من شعبنا بعد النفي ، بين العرب في أقطارهم وسلكوا الحديث بلغتهم والنطق بنطقهم ، وفي اختلاطهم بهم تعلموا عنهم صنعة الشعر . فعندما كان يسكن آباؤنا الأرض المقدسة لم يعرفوا الشعر الموزون باللغة العبرية فلا يوجد في أسفار أيوب والأمثال والمزامير إلا بعض الفقرات القصيرة تشبه أبيات الشعر ولكنها بلا قافية أو وزن » [٢] .

وبوفاة يهوذا الحريزي أسدل الستار على العصر الذهبي للأدب العبري في الأندلس خلال أربعة قرون ، وكل ذلك إنما يدل على ما كان يتمتع به اليهود من حرية في ظل الحضارة الإسلامية وتسامح الإسلام ، وهو الأمر الذي اعترف به اليهود كما أسلفنا في بعض مقامات الحريزي . وبعد هذا العصر نضبت مصادر الشعر باللغة العبرية .

ونحن بهذا العرض الموجز ليهود الأندلس وحنينهم إلى القدس ، والذي يرد في أشعار أدبائهم في العصور الوسطى ، تجدنا نقف على أرض صلبة وهي

---

(١) حاييم شيرمان : المرجع السابق ، جـ١ صفحات ١٣٢ - ١٣٣ . وقد ترجم هذا الجزء من المقامة الثامنة عشرة من كتاب « تحكموني » ، الدكتور شعبان سلام في كتابه « الأثر العربي في الشعر العبري » صفحات ٥٩ - ٦٠ .

(٢) حاييم شيرمان : المرجع السابق ١٣٣ .

د. شعبان سلام : المرجع السابق - ص ٦٠ .

أننا نختلف معهم عقائديًا ولكننا لم نختلف على أن شعرهم في الحنين إلى القدس وهم في الأندلس كان شعراً جيداً ، وإنما كان في إطار الوجدانيات الدينية التي لبست طابعًا صهيونيًا روحيًا أصبح فيما بعد مُمَهداً للصهيونية السياسية التي اعتمدت على نصوص التوراة في تبرير ادعاءاتها في إقامة الدولة الصهيونية على أرض فلسطين العربية .

الفصل الثامن

صلاح الدين واسترداد بيت المقدس من الصليبيين

صلاح الدين واسترداد بيت المقدس من الصليبيين

فلسطين بين الحروب الصليبية

لم يجرؤ اليهود طوال أيام الخلفاء الراشدين على الإقامة في القدس ، ولما جاء الأمويـون أولوا القدس اهـتمامهم ، وبـنى الخليفـة عبد الملـك بن مروان مسجد قبة الصخرة المشرفة عام اثنين وسبعين هجرية (٦٩١ م) ، ورصد لبنائه خراج مصر لسبع سنوات كاملة ، هذا إلى جانب اهتمام الأمويين بالقدس ورفع شأنها ، وهو ما حتـمته الظروف في تلك الأثناء . وعلى كـل حال فقد احتفظ المسيحيون بكنائسهم في بيت المقدس ومن بينها كنيسة القيامة .

وعندما انتقل الحكـم إلى العباسيين ، قام الخليفة أبو جعـفر المنصور بزيارة القدس عام ٧٥٨ م ، فهاله الدمار الذي حل بالمسجد الأقصى من جراء الزلزال الذي حدث عام ٧٤٧ م ، فأمر بإصلاحه وترميمه وقد أنجزت هذه الإصلاحات في عام ٧٧١ م .

وفي عام ٧٧٤ م حدث زلزال آخر أضر بالمسجد الأقصى من جديد وعندما قام الخليفـة المهدي بزيارة الـقدس عام ٧٨٠ م أمر بـإصلاح وترميم مـا أحدثه الزلزال من خراب للمسجد الأقصى ، بـل أدخل تعديلات في تخطيطه . وفي عـهد هارون الرشـيد (٧٨٦ م) وفـي ظل سماحـة الإسلام ، قام الإمبـراطور شارلمان بـترميم الكنـائس وبناء كنيـسة العذراء وعندمـا جاء الخليفة المـأمون بن الرشـيد (٨١٣ - ٨٣٣ م) تمـــت التعديـلات في مسـجد الصخـرة وجددت عمارته .

وعندما انـقسمت الدولة الإسلاميـة - في العصر العبـاسي - إلى دويلات وإمارات ، لم تـكتسب القدس - فـي ظل الإخشيديين - أهـميتها التـى كانت عليها إبان الأمويين ، فظلت تقصد للأغراض الدينية فقط .

ولم تكتسب القدس أهميتها أيام الدولة الإخشيدية مثلما كانت على عهد الأمويين ، فظلت تقصد للأغراض الدينية فقط .

وقد رأينا كيف فُرضت المحن على فلسطين وأصبحت من جديد موضع نزاع بين مصر وسوريا ، ففي عهد الطولونيين وقعت اضطرابات داخلية في فلسطين (٨٧٨ م) وتكررت تلك الأحداث في أيام الفاطميين وخاصة في عهد الحاكم بأمر الله الذي اضطهد اليهود حتى وفاته . أما عهد الخليفة الظاهر بيبرس - الذي يعد امتداداً لعصر الحاكم بأمر الله - فقد اضطر إلى عقد صلح مع القيصر رومانوس الثالث البيزنطي ، وبمقتضاه سمح للقيصر بترميم بعض الكنائس التي هدمها الزلزال ، وفي تلك الأثناء أصيب مسجد قبة الصخرة من جراء الزلزال ، فسارع الخليفة الظاهر إلى إعادة تعمير المسجد ، وإصلاح قبته أفضل مما كانت عليه .

وفي الوقت الذي نشبت فيه الصراعات السياسية في الأندلس بين الإمارات المسيحية وبين المرابطين ، كانت قد بدأت في المشرق ما اصطلح على تسميته في التاريخ باسم الحروب الصليبية .

وعندما نتتبع كيف بدأ الصراع في المشرق العربي منذ ظهور الإسلام ، بين الدولة الإسلامية التي أرسى قواعدها سيدنا محمد ﷺ ، وبين الدولة البيزنطية وحلفائها من الغساسنة والمناذرة ، نجد أن الدولة البيزنطية أحست بالخطر منذ ظهرت الدعوة الإسلامية الجديدة ، فأخذت تخطط لمجابهتها بهدف تصفيتها والقضاء عليها . وقد واجهت الأمة الإسلامية هذا الخطر تحت قيادة نبينا محمد ﷺ بالتخطيط المحكم والقيام بعمليات هجومية لتوسيع رقعة الأمة الإسلامية لنشر الدعوة ، واستمر هذا الخط في عهد الخلفاء الراشدين ، واتخذ صورة المد والهيمنة على أراضي الدولة البيزنطية في الشام ومصر وشمال إفريقيا ، فضلاً عن بلاد فارس في الشرق ، ويلغ المد ذروته بعبور طارق بن

زياد من شمال إفريقيا ، فضلاً عن بلاد فارس في الشرق ، ويبلغ المد ذروته بعبور طارق بن زياد من شمال إفريقيا إلى بلاد الأندلس وأصبح البحر الأبيض بحيرة عربية .

ولم تلبث هذه الوحدة الإسلامية السياسية أن تضعضعت وتجزأت ، ويبدو أن هذا الانقسام كان أمراً طبيعيًا ونتيجة محتومة ، فقد كانت رقعة العالم الإسلامي عندئذ شاسعة مترامية الأطراف ، وما كان من المتيسر أن تدار هذه الرقعة كلها من مركز واحد في القرن الثالث أو الرابع الهجري ، ومن ثم فقد كان من الطبيعي أن تتخذ الشكل السياسي الذي اتخذته في تلك الأيام ، وكان انقسامها إلى ثلاث وحدات ، فسقطت الخلافة الأموية في دمشق على يد العباسيين وتأسست الخلافة العباسية في بغداد ، بينما قامت الدولة الأموية في الأندلس وتحولت إلى خلافة ، كما قامت الخلافة الفاطمية في المغرب ؛ ونشب خلاف حاد بينها وبين الدولة الأموية في الأندلس من جهة ، ومع الدولة العباسية في بغداد من جهة أخرى .

وساعد على ذلك خلاف مذهبي في الدين الإسلامي نفسه ، فالأندلسيون كانوا أهل سنة مالكيين يميلون إلى فهم النصوص على ظاهرها ويكرهون التأويل ، أما العباسيون في بغداد فكانوا أهل سنة يتخيّر المؤمن هناك لتعبده وقضائه مذهبًا من مذاهب الأئمة الأربعة ، وكانوا مع ذلك يتعايشون مع مذاهب أخرى كالشيعة الجعفرية الاثنى عشرية ، والمعتزلة والمرجئة والأشعرية وغيرهم ، بينما كان الفاطميون طائفة من الشيعة الاسماعيلية الباطنية التي تقول بالتأويل إلى أبعد ما يحتمله النص ، كما كانت تقول بتقسيم التعاليم إلى علنية وسرية ، فالخلاف بينهم إذن كان دينيًا وسياسيًا وعسكريًا مما جعل الوصول إلى نقطة لقاء بينهم أمرًا مستحيلاً .

وفي تلك الأثناء كانت أوروبا تعاني من تغييرات سياسية تكاد تكون مشابهة للأوضاع في الأمة الإسلامية ، فإمبراطورية شارلمان في غرب أوروبا والمعروفة باسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة كانت تقف في مواجهة الإمبراطورية البيزنطية في الشرق .

وفي ظل هذا الجو المضطرب والأوضاع المفككة ، جاء الصليبيون إلى الشرق ، وكان البابا « أوربان الثاني » قد لعب على أوتار العاطفة الدينية ببلاغته في مؤتمرين أحدهما عقد في إيطاليا والآخر في فرنسا وذلك في عام ١٠٩٥ م ، مستغلاً فكرة الخطر المزعوم على المسيحية في فلسطين . وحتى نتصور ما أوصى به البابا أوربان إلى الجماهير المسيحية في أوروبا لحثها على إنقاذ المسيحية - على حد تصوره - في فلسطين ، كان لابد أن ننقل فقرة هامة ذكرها المؤرخ وليم مالمسبوري من خطاب البابا أوربان « يا أمة الفرنج ، يا أبناء السلالة التي أحبها الله واصطفاها . وصلتنا من جهات القدس والقسطنطينية (!) أنباء مفجعة مفادها أن أمة من الأمم اشتطت السبيل ، فعاثت في ديار المسيحية سلبًا وحرقًا وقتلاً ! وقادوا جموعًا منهم أسرى وأهلكوا آخرين بالتعذيب المبرح ، ودمروا بيوت بيوت الله ، واستولوا على بلاد تابعة لليونان شاسعة الأرجاء ، لاتقطع بمسيرة شهرين !. . ، فعلى من تقع تبعة الثأر واستعادة الديار ألا تنهضوا أنتم بهذا الأمر ؟ يا من شرفكم الله بفضله وأسبغ عليكم العزة والسؤدد ، وحباكم من نصره على أعدائكم ؟. . لتكن مآثر الأجداد ، ومآثر شارلمان ومن سار بسيرته حافزًا لكم . وليكن استعادة القبر المقدس سببًا ليقظتكم . .

اسلكوا سبيل الله حيث يوجد البيت ، وانقذوا الأرض ، وامتلكوها لأنفسكم ، فإن القدس هي من أكثر بلاد الدنيا ثمارًا وهي جنة الأفراح ومركز

الدنيا . إنها اليوم تناشدكم المساعدة ، فاقصدوها بكل شوق تغفر لكم ذنوبكم وجزاؤكم دار الخلود » (١) .

وفي أعقاب ذلك حدد البابا يوم ١٥ أغسطس ١٠٩٦ لبدء الحملة الصليبية الأولى ، على أن تكون القسطنطينية نقطة التجمع والانطلاق ومن العجيب أنه وعدهم بغفران ذنوبهم ما تقدم منها وما تأخر بعد أن يحملوا السلاح لتنفيذ هذه المهام التي ألبسها عباءة الدين وقد هدد بعقاب كل من يرفض الاشتراك في هذه الحملة (المقدسة !) وأغراهم بأن سبل الثراء تنتظرهم هناك .

ومؤدى هذا كله أن البابا حثّ مستمعيه على محاربة المسلمين دفاعًا عن المسيحية - وفي هذا تضليل لهم عن الحقيقة - مستخدمًا لغة الدين والدنيا بإغرائهم بالجنة في الآخرة وبالثراء في الشرق .

وفي ذلك الحين كان الفاطميون ينشرون سيطرتهم على فلسطين والساحل السوري الجنوبي ، ولذلك قرر الصليبيون محاصرة بيت المقدس في ٧ يونيو ١٠٩٩ ، ولم يصمد الوالي الفاطمي للقدس أمام هذا الحصار سوي أربعين يومًا ، اقتحموا بعدها المدينة في يوم ١٥ يوليو ١٠٩٩ وتتبع الصليبيون جنود المسلمين الذين احتموا في المسجد الأقصى ، ولكن الصليبيين اقتحموا المسجد وأحدثوا بالمسلمين مذبحة مروعة وبشعة حتى بلغ عدد القتلى عشرات الألوف (٢) ، وجاء على لسان ابن الأثير (٣) « وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ، ما يزيد على سبعين ألفًا ، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبّادهم وزهّادهم ، ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف وأخذوا

---

(١) د. عبد العظيم رمضان : الصراع بين العرب وأوروبا ، صفحات ٣٢١ - ٣٢٣ .

(٣) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، من الترجمة العربية للدكتور السيد العريني جـ ٢ صفحات ٤٢٥-٤٢٦.

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ ١٠ صفحات ٢٨٣ - ٢٨٤ .

نيفًا وأربعين قنديلاً من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم ، وأخذوا تنوراً من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي ، وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلاً ، ومن الذهب نيفًا وعشرين قنديلاً ، وغنموا منه ما لايقع عليه الإحصاء » ، وكتب أبو الفرج ابن العبري الملَطي ، أحد المؤرخين المسيحيين يقول : « ولبث الفرنج في البلد أسبوعًا يقتلون فيه المسلمين وقتل في المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفًا » (١) .

وبعد أن استقرت أمورهم في القدس على هذا النحو ، قرروا مواصلة الاستيلاء على بقية مدن فلسطين ، ورغم ذلك استمرت الدول الإسلامية في المنطقة تستعد لانتزاع زمام المبادأة بالاستعداد للقتال لاستعادة القدس وبقية الأراضي والمدن التي فقدت منها ؛ وفي سبيل استعادة القدس قرر الوزير الأفضل الفاطمي إرسال حملة كبيرة إلى فلسطين واتخذت مدينة عسقلان مركزاً لتجمعها ، ولكنها بقيت مدة طويلة هناك انتظاراً لبقية الامدادات مما أتاح للصليبيين الهجوم والانتصار على الجيش الفاطمي .

ونخلص من ذلك إلى نتيجة هامة مؤداها : أن فشل التعاون المشترك بين عرب مصر (الفاطميين) وبين ترك دمشق (السلاجقة) ، أدى إلى توطيد مركز الصليبيين واستمرارهم في بسط سيطرتهم على القدس ؛ وعندما حسم الخلاف المذهبي فيما بعد لصالح المذهب السني على يد صلاح الدين الأيوبي ، اتحدت مصر والشام في مواجهة العدو الصليبي (٢) .

---

(١) وبينما نجد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يترك الكنائس للمسيحيين يباشرون فيها عباداتهم أحراراً ، نجد الصليبيين يستولون على المساجد ويحولونها إلى كنائس ، ومن العجيب أنهم حولوا المسجد الأقصى إلى ما عرف خطأ باسم « معبد سليمان » .

راجع : الحافظ شمس الدين الذهبي : كتاب دول الإسلام ، جـ ٢ ص ٧٠ .

(٢) د. عبد العظيم رمضان : المرجع السابق – ص ٣٧٩ .

وبوفاة نـور الدين زنكي - الـذي يعد من أكبـر قادة المسلمـين والذي هزم الملك فولك مـلك بيت المقدس هزيمة مـنكرة - انتهى الدور التـاريخي في ذلك الحين لقـيادة دمشق في مواجـهة العدو الصـليبي ، وأخذت مصـر ذلك الدور القيادي تحـت حكم صلاح الدين الأيـوبي والذي كان يبدو أقـوى أمراء الدولة الزنكـية آنذاك ، وقد حرص علـى المحافظة علـى التقاليـد الزنكية ، فلـم يشأ مهاجمـة الصليبيين إلا بعـد أن أعاد الوحدة إلى دولة نور الديـن ، التي كادت تتفكك بعد وفاته .

وفي تلك الأثـناء أخذ صلاح الدين يعـمل على تقـــوية التحصـينات في مصر ، فأقام سوراً ضخمًا يحيط بالقاهرة والفسطاط والقطائع ، وأخذ في بناء قلعته الشهيرة في القاهرة .

وكانت الأحوال في بيـت المقدس مشجعة لصلاح الدين عـلى اتخاذ عمل حاسم ضد الصـليبيين ، خاصة بعد استيلائـه على حلب عام ١١٨٣ م ، وهو بذلك طوق الإمارات الصليبية على امتداد الساحل .

وسرعان ما أخذ المسرح الـسياسي في المشرق العربي يتهـيأ لموقعة حطين ، خاصة بعد أن شعر المسلمون بتهديد الصليبيين لطريق الحج إلى مكة المكرمة .

موقعة حطين نقطة تحول لاسترداد القدس

بدأ صلاح الديـن يجمع جيوشه في ربيع عام ١١٨٧ م وجعل مركز قيادته في دمشق ، فلما تكامل الجيش الإسلامـي فـي الصيف سار في اتجاه طبرية (في ٤ يوليو ١١٨٧ م) ، وجعلها وراء ظهره ثـم تقـدم غربها عنـد قرية « حطين » وذلك عندما عـلم أن الجموع الصليبية جاءت واحتشدت عند جبل طبرية من جهة الغرب وكان ذلك في يوم شديد الحرارة ، ولكن جيوش صلاح الدين كانت ترابط بينهم وبين الماء مما اضطر الجيش الصليبي إلى قضاء ليلته يئن

من العطش والانهاك ، واستغل صلاح الدين انهاكهم وطوقهم في الليل ، فكان هذا انتصاراً له قبل أن يضرب ضربة واحدة ، وفي اليوم التالي حاول الصليبيون بلوغ الماء ولكنهم فشلوا ، وفي تلك الظروف دارت موقعة حطين الشهيرة والتي انهزم فيها الصليبيون هزيمة منكرة [١] .

وظهر صلاح الدين على درجة عالية من الحنكة العسكرية ، فلم يتقدم بعد حطين للاستيلاء على القدس مباشرة ، بل فضل أن يعزلها عن الامدادات البحرية التي تأتي إليها من الخارج ، ولكي يحقق عزلها اتجه إلى عكا التي سقطت دون مقاومة واتخذها صلاح الدين مركزاً لقيادته ، ومن هناك وجه جيوشه لفتح المدن القريبة فاستولى على الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية والفولة والطور ، بينما استولى أخوه العادل على حصن مجدليا بين يافا ونابلس ثم يافا ثم سبسطية (السامرة القديمة) وصيدا .

وفي عام ١١٨٧ م سقطت بيروت ثم حاصر عسقلان التي اتخذها الصليبيون قاعدة لتهديد مصر ، وبذلك قطع خطوط المواصلات بينها وبين الشام . وفي أوائل سبتمبر ١١٨٧ استسلمت عسقلان ولم يبق أمام صلاح الدين سوى القدس [٢] .

وكان صلاح الدين قد عقد النية على أخذ بيت المقدس ، فبعد أن رأى رايات النصر تخفق له بعد استسلام معظم المدن - التي كان يحتلها الصليبيون - بلا مقاومة تذكر فيما عدا مدينة صور التي بدأت تتحصن وتتجهز ، سار إلى قلب فلسطين وأخذ كل ما كان بين بيت المقدس والساحل من حصون ، فلما تأكد من تأمين الساحل لمنع وصول الامدادات البحرية إلى الصليبيين في المقدس ، ألقى الحصار عليها وعرض على أهلها التسليم بنفس الشروط التي

---

(١) ستيفن رنسيمان : المرجع السابق جـ ٢ صفحات ٧٣٥ - ٧٤٠ .

(٢) الحافظ الذهبي : المرجع السابق - جـ ٢ صفحات ٧١ - ٧٣ .

استسلمت بها بقية المدن الصليبية ، وذلك نظير تأمينهم على أرواحهم وأولادهم وأموالهم ، ولكنهم أبوا ذلك وعندئذ أقسم صلاح الدين أن يأخذ القدس عنوة ، وجعل يتلمس في أسوارها نقطة ضعف يهاجمها ، وفي ٢٠ سبتمبر ١١٨٧ م بدأ هجومه من نقطة الضعف التي اختارها جهة الشمال عند المكان المعروف بباب كنيسة صهيون (باب العمود) . وكان قد نصب المنجنيقات ونظم الرماة فوصلت جنوده إلى الأسوار وفتحوا فيها ثغرات ، غير أن ذلك التصادم لم يدم أكثر من أسبوع وفي أعقابه رأى المحاصرون أنه لا أمل لديهم في النجاة ، فأرسلوا إلى صلاح الدين يفاوضونه في شروط التسليم ، فأبى إلا أن يأخذ المدينة عنوة ليفعل بالصليبيين مثلما فعلوه بالمسلمين عندما استولوا على القدس منذ نحو قرن ونذكر هنا نص ما قاله صلاح الدين « لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهل القدس حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة ، من القتل والسبي ، وأجزي السيئة بمثلها » . وعند ذلك ألح أمير منطقة الرملة في طلب الأمان ووقف القتال ، وإلا قتلوا نساءهم وأطفالهم وذبحوا ما في المدينة من أسرى المسلمين ويقدر عددهم آنذاك بخمسة آلاف أسير ؛ وهنا استشار صلاح الدين أصحابه فوافقوا على ترك المسيحيين يغادرون القدس مقابل عشرة دنانير للرجل وخمسة للمرأة ودينار واحد عن كل طفل ، فمن أدى ذلك في مدة أربعين يومًا خرج ونجا ، ومن لم يؤده صار أسيراً مملوكًا[1] . وعلى هذا النحو جاءت شروط التسليم سهلة وميسرة كما جاء تفسير هذه الشروط لافتًا للنظر ، وهو إنما يدل على سماحة الإسلام بالمقارنة بما فعله

---

(١) ستيفن رنسيمان : المرجع السابق جـ ٢ صفحات ٧٤٨ - ٧٥٠ .

راجع عماد الدين إسماعيل أبي الفداء : المختصر في أخبار البشر - جـ ٣ صفحات ٧٢ - ٧٣ (يذكر أن ما يدفع مقابل خروج الطفل هو ديناران) .

جمال الدين أبي المحاسن الأتابكي : كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - جـ ٦ ص ٣٧ (يذكر أن ما يدفع مقابل خروج الرجل عشرين ديناراً) .

الصليبيون عند غزوهم للقدس عام ١٠٩٩ م من تذبيح وقتل للمسلمين حتى وصلت الدماء في شوارع المدينة إلى الركب - على حد تعبير كثير من المؤرخين - ، ثم دخل صلاح الدين إلى بيت المقدس في يوم الجمعة الموافق ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ - ٢ / أكتوبر ١١٨٧ (١) .

وقد بلغ عدد من دفع عنهم صلاح الدين الفداء نحو عشرة آلاف فرد ، عدا من أطلقهم أخوه سيف الدين ، وبذلك ضرب صلاح الدين المثل للأجيال القادمة من المسلمين في العزم والتصميم على استعادة حقوق المسلمين ، كما أظهر من التسامح والرحمة ما جعل كثيراً من المؤرخين يذكرونه بالثناء والتقدير .

وبمجرد أن دخلت جيوش المسلمين إلى القدس ، بدأوا يحفظون الأمن والنظام ، واستهل صلاح الدين وجنوده في بيت المقدس بزيارة مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، وقام بخلع الصليب الذهبي الذي رفعه الصليبيون على قبة الصخرة ووضع فوقها الهلال ، كما أزال ما وجده في المسجدين من آثار مسيحية ، وقد بذل المسلمون جهداً كبيراً في ترميم وتعمير المسجدين . وكان صلاح الدين قد أمر بنقل المنبر من مدينة حلب إلى المسجد الأقصى - والذي كان قد أمر بتصنيعه نور الدين زنكي على درجة من الدقة والفخامة بحيث يتناسب والقدس عند فتحها - ، كما شيد صلاح الدين مسجداً عرف باسم مسجد النساء وذلك في الطرف الجنوبي الغربي للمسجد الأقصى.

هذا وقد سمح صلاح الدين للمسيحيين بإقامة شعائرهم الدينية في حين قام بإحضار بعض القبائل العربية مثل بني الحارث وبني مرة وبني سعد وبني زيد للإقامة في بيت المقدس ، كما قام بإنشاء عدد من المدارس (منها المدرسة الصالحية والمدرسة الميمونية) .

---

(١) محمد كرد علي : خطط الشام ، الجزء الثاني - صفحات ٥٨ - ٦٠ .

ومن المهم أن نشير هنا إلى الخطوة الهامة التي اتخذها صلاح الدين والتي تدل على حنكته السياسية والعسكرية ، وذلك أنه قام بتجديد أسوار بيت المقدس وبإنشاء عدد من الأبراج العسكرية في الجزء الواقع بين باب العمود وباب الخليل وهو الجزء المواجه للطريق العسكري الآتي من الساحل الفلسطيني على البحر الأبيض المتوسط من يافا خصوصًا ، وفي سبيل تحصين المدينة ضد الصليبيين قام بحفر عدد من الخنادق حول أسوارها (١) .

وقد وقفنا في هذا الفصل على حقيقة هامة ، مؤداها أن النصر الذي حققه صلاح الدين على الصليبيين جاء لافتًا للنظر ، وذلك أنه اعتبره المؤرخون علامة هامة في التاريخ الإسلامي ، على أن سقوط بيت المقدس قد أزعج أوروبا وأفزع البابوية ، فنادت بحملة صليبية جديدة ، اشترك فيها ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا وفيليب أوغسطس ملك فرنسا وإمبراطورا ألمانيا وروما ، وقاموا بتجهيز أكبر حملة صليبية من حيث العدد والعدة لاستعادة القدس وهيبة أوروبا البابوية ، إلا أن جميع محاولات الصليبيين فشلت بقيادة ريتشارد قلب الأسد في أخذ بيت المقدس ، واضطر إلى فكرة المفاوضات التي انتهت بصلح الرملة في سبتمبر ١١٩٢ م ، وفيه اتفق الطرفان على احتفاظ الصليبيين بالمدن الساحلية الممتدة من عكا حتى يافا ، على أن تستمر مدينة بيت المقدس تحت حكم المسلمين ، مع السماح للحجاج المسيحيين بالحج إليها من طريق واحد هو عكا ، وفي أعقاب ذلك رحل ريتشارد قلب الأسد من عكا إلى انجلترا ، وهكذا أسدل الستار فترة من الزمن على الحملة الصليبية الثالثة ، التي فشلت في استعادة بيت المقدس من أيدي المسلمين (٢) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ١٢ صفحات ٧٣ - ٧٤ .

وقال ابن الأثير ما نصه : (ثم إن الحجارة عند العمالين ، فكان صلاح الدين رحمه الله ، يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الأمكنة البعيدة ، فيقتدي به العسكر ، فكان يجمع عنده من العمّالين في اليوم الواحد ما يعملونه عدة أيام) .

(٢) محمد كرد علي : المرجع السابق جـ ٢ صفحات ٦٥ - ٦٨ .

ستيفن رنسيمان : المرجع السابق جـ ٣ صفحات ١٣٨ - ١٤٣ .

وبعـد موت صلاح الدين في دمشق عام ١١٩٣ م أخذت الجبهة الإسلامية تتداعى ، وانقـسمت إمبراطوريته إلى عـدة ممالك ، فأصبحت الشـام وفلسطين من نصيب ابنه علي الملقب بالملك الأفضل ، وحلب لابنه غازي الملقب بالملك الظاهر ، ومصر لابنه عـثمان الملقب بالملك العزيز وبلاد ما بـين النهرين لأخيه الملك العادل ، وكانت الـقدس من نصيب الملك الأفضل الذي تنـازل عنها بعد فترة قليلـة لأخيه الملك العزيز حتى يـضمن لها المال والرجال للدفـاع عنها ضد الصليبيين (١) .

وفـي عام ١٢٠٠ م تمكن الـعادل الملـك العادل من تـوحيد ممـالك البيْت الأيوبي في مصر والشام تحت سيطرته ، وأقـام نفسه سلطانًا على الإمبراطورية الأيوبية - اعترف به سائر الأمراء الأيوبيين - فترة امتدت من عام ١٢٠٠ وحتى ١٢١٨ م ، ونتيجـة لقيام وتوحيـد الإمبراطورية الأيوبـية ، قامت البابـوية في أوروبا بتجهـيز حملة صليبية جـديدة ، إلا أنها لم تحقق هدفهـا الرئيسي ، إلا بعد أن تولي المـلك الكامل القيادة بعـــد وفاة والده الملك العادل فـــي دمشق عام ١٢١٨ م .

وبعد فشل الحملة الـصليبية الخامسة على مصر ، تمكـن فريدريك من عقد اتفـاق هدنة مع الملك الـكامل في سبتـمبر ١٢٢٨ م في عكا ، وتتضـمن هذه الاتفاقية أن يتسلـم الصليبيون بقيادة فردريك مدينة بـيت المقدس وبيت لحم مع الابقاء على طريق « عكا - القدس » في أيدي الـصليبيين بما في ذلك يافا وعكا واللـد والناصرة ، عـلـى أن يبـقى المسجـد الأقصى وقبـة الصخرة فـي أيدي المسلمين ، كل ذلك مقابل هدنة مدتها عشر سنوات لاتقوم خلالها أي حملات صليبية على مصر أو الشام ، وفي أعقـاب هذا الاتفاق أنكر المسلمون في مصر والشام والعراق هذه الهدنة التي ترتب عليها التنازل عن بيت المقدس (٢) .

---

(١) ابن الأثير : المرجع السابق جـ ١٢ - صفحات ٩٦ - ٩٧ .

(٢) ابن الأثير : المرجع السابق - جـ ١٢ صفحات ٤٨٢ - ٤٨٣ .

محمد كرد علي : المرجع السابق صفحات ٨٤ - ٨٥ .

ولم تلبث الظروف أن تهيأت مرة أخرى لعودة بيت المقدس إلى أيدى المسلمين بعد وفاة السلطان الكامل في عام ١٢٣٩ وانقسمت الدولة الأيوبية للمرة الثالثة ، فقد أصبحت مصر من نصيب العادل الثاني بن الكامل ، والشام من نصيب أخوه الأكبر الصالح أيوب - الذي استعان بالخوارزمية - واستمر الصراع بين الإخوة على قيام الدولة الأيوبية الموحدة ، وخلال تلك الاضطرابات حل وقت انتهاء الهدنة التي عقدها الكامل مع فريدريك ، وفي تلك الأثناء جهّزت البابوية حملة صليبية جديدة للابقاء على القدس بعد نهاية الاتفاق ، فاستغل قادة الصليبيين الخلافات داخل الدولة الأيوبية واستولوا على القدس مرة أخرى ، التي سرعان ما عادت إلى الملك الصالح أيوب الذي زارها وأمر بترميم أسوارها .

القدس في عهد المماليك

ونتيجة لاستعادة المسلمين للقدس ، تجددت نداءات البابوية بحملة صليبية سابعة لاستعادة القدس بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا والتي بدأها بمهاجمة مصر ، ولكنه فشل فشلاً ذريعًا وأُسر هناك .

ويشير بعض المؤرخين إلى أن هذه الحملة السابعة اقترنت بروح دينية ، ولكن يبدو أن ما أصاب الحركة الصليبية من انحسار الشرف واشتداد التعصب وضعف الإدراك ، جعل قداستها تحت عباءة التعصب الأعمى باسم الله ، ففقدت فاعليتها وأصبح أنهيار الحروب الصليبية أمرًا واقعًا .

وبموت الصالح أيوب تولت زوجته شجرة الدر ( ) السلطنة في مصر عام ١٢٥٠ م ، ويعتبر هذا التاريخ بداية قيام دولة المماليك فقد كانت أقرب إلى

---

(١) شجرة الدر كانت جارية مملوكة أرمنية الأصل وقد تولت الوصاية على الخلافة وأدارت شئون الدولة بنفسها وضربت لها العملة لا باسم شجرة الدر ولكن بكنيتها في الأسرة وهو « أم خليل » .

المماليك ، منها إلى الأيوبيين [١] .

على أنه في النـصف الأول من القرن الثالث عشر بـرزت قوة المغول كقوة عسكـرية كبيرة في آسـيا ، حيث استـولى جنكيـز خان على الصين بـين عامي ١٢١٠ ، ١٢١٦ م ، ثم ظهـر هولاكو على رأس جيـش المغول ليهـدد المشرق العربي وخاصة بلاد ما بين النهرين ومـصر ، وذلك بعد أن انهزم لويس التاسع في مصر . ولكن الأمير سيف الدين قـطز هزم هولاكو في معركة عين جالوت عام ١٢٦٠ م هزيمة منكرة كانت الأولى فـي تاريخ المغول ، وترتب على ذلك طردهم من الشام وبلاد ما بين النهرين [٢] .

وكان المـلك الظاهـر بيبـرس (المملـوكي) قد زار بيـت المقدس مـرتين ، الأولـى عام ١٢٦٢ م والثانيـة عام ١٢٦٥ م ، وفي أعـقاب زيارته الأولـى أمر بترمـيم كل ما تـهدم من مسـجد قبة الـصخرة ، كمـا جدد قبة الـسلسلـة وقام بزخرفتها .

وروى بعض المؤرخين أن الظاهر بيـبرس كان شديد الإعجاب بدور صلاح الدين الأيـوبي ، ومن ثم فقـد حرص على محـاكاته في أعـماله الحربيـة التي توجت بـالنصر في معـظمها ، مما جعـل كثيراً من المـؤرخين يعتبرونـه المؤسس الحقيقي لدولة المـماليك ، ومن أهم انتصاراته العسكرية التـي حققها استيلاؤه على إمارة أنطاكية في مايو ١٢٦٨ م .

وبعد صراع على السلطة تولى السلطان المملوكي قلاوون السلطة فى أواخر عام ١٢٧٩ م ليواجـه الخطرين المغولي والـصليبي في آن واحد ، عـلى أنه في تلك الأثـناء عقـــد اتفاق هدنـة مع الصلـيبيين في عـكا وطرابلس لمـدة عشر

---

(١) محمد كرد علي : المرجع السابق صفحات ١٢٦ - ١٢٨ .
د. عبد العظيم رمضان : المرجع السابق - ص ٥٢٥ .
(٢) زين الدين عمر بن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر - جـ ٢ صفحات ٣٤٢ - ٣٤٤ .

سنوات ، وبذلك تفرّغ لمواجهة الخطر المغولي ، ففي عام ١٢٨١ م ألحق الهزيمة بالجيش المغولي قرب حمص ، وفي عام ١٢٨٩ م انتهز السلطان قلاوون فرصة نقض الصليبيين لاتفاقية الهدنة وحاصر طرابلس ثم هاجمها واستولى عليها ، وبذلك انفتح له الطريق إلى عكا ولكنه توفي في عام ١٢٩٠ م .

ولم يلبث ابنه الأشرف خليل بن قلاوون أن تقدم لتنفيذ مخططات والده التي لم يكملها ، وفي سبيل تحقيق ذلك قام بتوحيد الجيوش الإسلامية في مصر والشام ولبنان وحاصروا عكا التي ما لبثت أن استسلمت في مايو ١٢٩١ بعد أن كانت عاصمة للصليبيين لمائة عام .

وفي أعقاب ذلك توالى سقوط المدن الساحلية التى كانت في أيدي الصليبيين ، ومن بينها صور وصيدا وبيروت ، وبذلك انتهى الوجود الصليبي في فلسطين والشام ، وحل محله فيما بعد الوجود الصهيوني بعد أن انتقلت إليه الفكرة الصليبية كما سنوضح ذلك في فصلنا التالي .

ومؤدى ذلك كله أننا لانجد لليهود أثراً بالمرة على مدى مائتي عام أيام الحروب بين المسلمين والمسيحيين في فلسطين ، وظلت نظرتهم إلى القدس في هذا الوقت محصورة في أنها مكان للحج فقط ، ولم يكن عندهم أي مطامع للبقاء هناك .

ومن أبرز السمات التي تميز عصر المماليك في القدس اهتمامهم بها وبترميم مقدساتها الإسلامية ، حتى أننا نجد سلاطينهم يكسون قبة الصخرة المقدسة من الخارج بالفسيفساء .

القدس في العصر العثماني (١٥١٦ - ١٩١٨)

من المعروف أن الحملات الصليبية قد جرى توجيهها لإنقاذ العالم المسيحي الشرقي من المسلمين - على حد تعبير البابا أوربان الثاني - ، فلما انتهت

الحروب الصليبية أضحى العالم المسيحي الشرقي خاضعًا لحكم المسلمين ؛ فحينما ألقى البابا أوربان الثاني نداءه الشهير في كليرمونت ، كان الأتراك فيما يبدو يوشكون على تهديد البوسفور ، ولما دعا البابا بيوس الثاني إلى قيام الحملة الصليبية الأخيرة ، كان الأترك يجتازون نهر الدانوب .

على أنه وفقًا للمنظور التاريخي ، فإن الحركة الصليبية بأكملها لم تحقق إلا فشلاً ذريعًا .

وكان السلطان سليم الأول قد فتح القدس عام ١٥١٦ م ، بعد أن تغلب على المماليك في معركة « مرج دابق » ، وقتل سلطانهم « قنصوة الغوري » وأحكم قبضته على فلسطين وبلاد الشام ثم زحف إلى مصر وفتحها ، وشنق طومان باي على باب زويله ، وبذلك انتهى حكم المماليك لفلسطين بفتح العثمانيين للقدس .

وعندما تولى السلطان سليمان الأول الملقب بالقانوني [1] (١٥٢٠ - ١٥٦٦ م) العرش ، قامت على عهده منشآت كثيرة في القدس نتيجة لاهتمامه بحركة البناء والتعمير ، فأمر بتجديد أسوار المدينة كما أنشأ برجًا بالقربّ من باب الخليل ، وأصلح طبقة الفسيفساء التي كانت تغطي قبة الصخرة من الخارج بالإضافة إلى إصلاحه عمارتها ، كما جدد قبة السلسلة وأنشأ مسجد الطور في المكان الذي كانت تقوم عليه كنيسة الصعود .

وبعد وفاة السلطان سليمان القانوني ، فقدت القدس أهميتها لدى السلاطين العثمانيين [2] ، وفي عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٢ م) كانت

---

(١) وينسب إليه ترميم حائط المبكى وذلك بإزالة الأتربة والقمامة من أسفله ، ورفع الحائط ستة أسطر من الحجارة في أعلاه وهي تبدو واضحة للعين حتى الآن ، لأن الحجارة المستعملة أصغر بكثير من بقية الحائط الذي يرجع إلى عصر هيرودس أي إلى القرن الأول الميلادي .

(٢) محمد كرد علي : المرجع السابق جـ ٢ صفحات ٢١٨ - ٢١٩ .

القدس تابعة لمصر ، وكانت أحوالها الأمنية مضطربة إلى حد كبير ، ثم انتقلت تبعيتها للشام ولكن اختلال الأمن استمر كذلك وظلت القدس خارج دائرة الاهتمام .

وفي عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٨ - ١٨٠٧ م) هاجم نابليون بونابرت العريش في عام ١٧٩٩ ، وكان قد خرج على رأس جيشه وسلك طريق صحراء سيناء ، ثم اتخذ الطريق الساحلي القديم إلى فلسطين واستولى على العريش وغزة والرملة ويافا ، ثم واصل جيش نابليون تقدمه إلى الشمال على طول سهل مرج ابن عامر ليحقق هدفه الرئيسي وهو الاستيلاء على عكا عاصمة الحكم العثماني في فلسطين .

وفي أثناء حصار عكار أرسل نابليون عدة وحدات من جيشه إلى صفد وإلى جسر بنات يعقوب على نهر الأردن الشمالي قاصداً قطع الإمدادات التي يحتمل أن يرسلها العثمانيون إلى دمشق ، وعندما علم الفرنسيون أن القوات العثمانية نجحت مع ذلك في عبور نهر الأردن من موضع آخر واخترقت مرج بن عامر ، تقدم جزء من جيش نابليون لمواجهة الجنود المدافعين عن فلسطين تحت قيادة عثمانية ؛ ولكن الجيش الفرنسي هُزم في هذه المواجهة وبالتالي فشل في فك حصار عكا ، ولذلك اضطر نابليون آخر الأمر إلى التراجع عائداً إلى مصر سالكًا نفس الطريق الذي سلكه من قبل[1] ومنذ ذلك التاريخ عادت أوروبا إلى سالف أطماعها في فلسطين مرة أخرى .

وفي عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩ م) أمر بتذهيب قبة الصخرة وترميمها من الخارج .

وعندما أعلن محمد علي باشا - والي مصر - العصيان على تركيا في عهد

(١) جودت باشا : تاريخ استنبول جـ -٧ - ص ٢١ (١٣٠٩ هـ) .

السلطان محمود الثاني ، أرسل جيشًا بقيادة ابنه إبراهيم باشا إلى فلسطين والشام ، ولم يلبث أن احتل بيت المقدس ومعظم مدن فلسطين في عام ١٨٣١ م . ولكنه واجه مقاومة شديدة من أهلها الذين أعلنوا الثورة في مواجهة إبراهيم باشا وجيشه ، إلا أنه قمع هذه الثورة وقد وقفت بعض الدول الأوروبية في وجه إبراهيم باشا وفتوحاته في فلسطين والشام وبلاد الأناضول ، مما اضطره إلى الانسحاب من فلسطين بعد عشر سنوات . وهكذا استرد السلطان عبد المجيد القدس وفلسطين في عام ١٨٤١ م بمساعدة انجلترا والنمسا وظلت تحت الحكم العثماني حتى الحرب العالمية الأولى [1] .

وأغلب الظن أن اليهود حاولوا استصدار أمر من محمد علي باشا للسماح لهم بشراء الأراضي الزراعية والعقارات وتملكها وإنشاء بعض الصناعات الخفيفة ، ولكن أعضاء مجلس القدس الشريف اعترضوا على هذا الطلب - على اعتبار أنه طلب لامثيل له من قبل - فأصدر محمد علي موافقته على ما جاء في قرار مجلس القدس الشريف ولم يسمح لليهود بعد ذلك بالبيع أو الشراء للعقارات والأراضي الزراعية .

ويبدو أن تعداد سكان القدس في عهد السلطان عبد المجيد كان حوالي عشرين ألفًا معظمهم من المسلمين ، وكان السلطان قد أمر بتجديد عمارة الحرم القدسي .

وفي عهد السلطان عبد العزيز (١٨٦٠ - ١٨٧٤ م) انفصلت القدس عن تبعيتها للشام وأصبحت مستقلة تتبع الباب العالي رأسًا ، كما أنشيء في عهده طريق القدس يافا وطريق القدس نابلس ، ورصفت شوارع القدس وأسواقها ، كما قام بتجديدات في المسجد العمري .

---

(١) محمد فريد : تاريخ الدولة العثمانية ، تحقيق د. إحسان حقي - صفحات ٤٥٠ - ٤٥١ .

وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٨ م) نشبت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا (١٨٧٧ م) ، وفي أعقابها صدر قانون (١٨٨٢ م) يحرم هجرة اليهود إلى فلسطين وشراءهم الأراضي الزراعية والعقارات هناك ، ثم صدر تعديل لهذا القانون يسمح لليهود بدخول فلسطين للحج وإقامة طقوسهم الدينية ، على ألا يبقوا فيها أكثر من ثلاثة أشهر ، وبعد انعقاد المؤتمر التأسيسي لمنظمة الصهيونية العالمية ، في بال سنة (١٨٩٧ م) برئاسة تيودور هرتسل ، - الذي رسم خريطة لإسرائيل - والذي في أعقابه عُرِض على السلطان عبد الحميد الثاني ، أن تسدد ديون الدولة العثمانية الباهظة - بسبب الحرب مع روسيا - ويُدْفَع إلى جيب السلطان خمسة ملايين من الجنيهات ، مقابل السماح لليهود بوطن في فلسطين ، ولما اعتذر بأنه لايملك المساومة على فلسطين ، وليست من خاص أملاكه في صفقة بيع وشراء ، تقرر عزله وإسقاط الخلافة الإسلامية ، وعلى إثر ذلك تحالفت الصهيونية العالمية مع بعض الدول الغربية على خلع السلطان عبد الحميد وإبعاده إلى سلانيك [١] .

وخلفه السلطان محمد رشاد الخامس (١٩٠٨ م) ، وعلى عهده قامت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٧) وانضمت الدولة العثمانية إلى الألمان ، وبنهاية الحرب فقدت تركيا معظم ما كان لديها ، بما في ذلك القدس الشريف التي احتلها الإنجليز في التاسع من شهر ديسمبر ١٩١٧ م بقيادة السير « أدموند اللنبي » - بعد أن ظلت في أيدي العثمانيين أربعة قرون - فدخلت اسما (فلسطين) تحت الحماية البريطانية ، حتى تسلمتها الصهيونية العالمية . وكان اليهودي المتطرف « زئيف جابوتنسكي » قد اتفق على إنشاء كتيبة من

---

(١) ورد رفض السلطان عبد الحميد الثاني في نص رسالة بعث بها السلطان إلى مرشده للطريقة الصوفية ، وهذه الرسالة موجودة ضمن الوثائق العثمانية القيمة في مكتبة مدينة شقراء والتابعة لدارة الملك عبد العزيز بالرياض .

المتطوعين اليهود تحارب العرب والأتراك تحت الراية البريطانية ، وصدر لها الأمر بالتحرك في اتجاه فلسطين - « في نفس وقت صدور تصريح بلفور وبالطبع فهذا التنسيق ليس مجرد صدفه » - مع الجيش البريطاني الزاحف عليها بقيادة الجنرال (السير) أدموند اللّنبي ، وفي فبراير عام ١٩١٨ م وصلت مقدمة الكتيبة اليهودية إلى فلسطين ، وما أن لمست أقدامهم أرض فلسطين حتي رفعوا الراية الصهيونية ذات النجمة السداسية وعليها فقرة من المزمور ١٣٧ - من المزامير المنسوبة زورا إلى داود - « إن نسيتك يا أورشليم تُنسى يميني » . وكان هرتسل قد جعله شعاراً للصهيونية .

الفصل التاسع

وعد بلفور وقيام إسرائيل

وعد بلفور وقيام إسرائيل

هرتسل والصهيونية السياسية

لعل أول دعوة علنيـة لإنشاء وطن قومي لليهود ، كانت تـلك التي أفصح عنها السـير هنري فـنش عام ١٦١٦ فـي كتابه « نداء الـيهود » والذي نـشر في انجلترا فـي تلك الأثناء ، وبعد مـرور حوالي قرنين من الـزمان ، بدأت أصداء هذه الدعوة إلى الظهور مرة أخرى ، حيث ظهر اتجاهان فكريان متعارضان لحل المسألة اليهودية ، أما الاتجاه الأول فقد حمل لواءه موسى مندلسون (١٧٢٩ - ١٧٨٦ م) ، حيث نادى باندماج الـيهود مع المجتمعات التي يعيـشون فيها في أوروبا . وأمـا الاتجاه الثـاني فكـان علـى رأسه تـيودور هرتـسل (١٨٦٠ - ١٩٠٤ م) ، والذي يدعو فيه إلى الصهيونية السياسية [١] .

فإذا عدنا إلى القرن الماضي رأينا أن الكثرة الغالبة من اليهود قد وقعت تحت تأثير فكرة القومـيات التي سادت الفكر السياسي في أوروبا حـينئذ ، واعتقدت غالبية اليهود أن الروابـط الدينية والعنصرية لديهم تصلح لـتكون أساسًا لقومية يهودية تمنح الأمة اليهودية - حسب ادعاءاتهم - حقوقًا لتكوين دولة يهودية .

واستغلت الحركة الـصهيونية الأماني الروحية للـيهود في العودة إلى أرض الأجداد - على حد تعبيرها - ، هذا بالإضافة إلى أن الاتجاهات السياسية التي سادت القرن الماضي ، قد سـاعدتهم على الإعلان عن هدفهم باعـتبار فلسطين وطنًا لهم يهاجر إليه يهود العالـم ، غير أن الهجرة في أول الأمر كانت محدودة جدًا ، حـيث فـضّل يهود أوروبـا الهـجرة إلى الـولايات المـتحدة واسـترالـيا والأرجنتين .

---

(١) وكان مناجم بيجن قد دلل على روح الصهيونية السيـاسية بقوله « استحالة التفريق بين المعادة لإسرائيل والمعاداة للصهيـونية ، والمعاداة للسامية ، وقد اعتبرت المـنظمات الصهيونية العالميـة قول بيجن هذا أنه شعارًا لها ، فقامت بترديده على أسماع العالم .

ويرى البعض أن ظهور الصهيونية السياسية كان انعكاساً مباشراً لأحداث الاضطهاد التي تمت في روسيا ضد الجماعات اليهودية على إثر اغتيال قيصر روسيا الاسكندر الثاني في ١٨٨١ م ، فقد سرت آنذاك شائعة بين اليهود مؤداها : أن هذه المذابح والاضطهادات قد تمت تحت علم وبصر الحكومة الروسية وبصرها . وفي أعقاب ذلك هاجرت مجموعة من اليهود إلى أوروبا الغربية والولايات المتحدة في الفترة الممتدة من عام ١٨٨١ م إلى عام ١٩١٤ م .

ومن الملفت للنظر أن بداية تحليل ظاهرة المعداة للسامية كانت في أعقاب أحداث روسيا ، وكان « ليوبنسكر »[١] (١٨٢١ - ١٨٩١) أول المفكرين الصهاينة الذين فسروا هذه الظاهرة على أنها ظاهرة مرضية ، فالمعاداة للسامية في رأي ليوبنسكر هي كراهية الغريب والمقصود هو كراهية اليهود ، فهو عنصر غير مرغوب فيه ، وهم أجانب في المجتمعات التي يعيشون فيها ولايمكن اندماجهم فيها لأنهم فضلوا حياة العزلة التي أطلق عليها اليهود اسم « جيتو »[٢] .

وبعد أن تتبع « ليوبنسكر » مسار المعاداة للسامية وأسبابها ، وصل إلى نتيجة مؤداها : وجوب تهجير اليهود من المجتمعات التي يعيشون فيها إلى إقليم يملكونه ليكونوا أمه يهودية ، ولكنه لم يحدد أرض فلسطين بصفة خاصة ؛

---

(١) ليوبنسكر : طبيب روسي يهودي اعتنق الصهيونية السياسية وأصبح زعيماً لجماعة « أحياء صهيون » ، وفي أعقاب أحداث روسيا عام ١٨٨١ م طالب بإعادة توطين اليهود في وطن جديد ، ثم بدأ في التجول في العواصم الأوروبية للدعوة لفكرته الخاصة ، فقابل زعماء الاليانس وبعض المفكرين من اليهود ، ولكنه قوبل بمعارضة منهم ، وبعد ذلك كتب مقاله الشهير « التحرر الذاتي » .

(٢) تستخدم كلمة « جيتو » للدلالة على أحياء اليهود الخاصة في أوروبا ، وأول حي يهودي أطلق عليه هذا المصطلح كان في البندقية عام ١٥١٦ م ، ومن المرجع أن كلمة جيتو مشتقة من كلمة « بورجيتو » الايطالية التي تعني جزءاً صغيراً من مدينة .

هذا بالإضافة إلى إعلانه عن مساواة اليهود مع غيرهم من الشعوب ، وبذلك فسّر تأثره بما أعطته الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ م لليهود من الحقوق المنصوص عليها في إعلان حقوق الإنسان ، وجعلهم مواطنين من الدرجة الأولى ، بل إنها ألغت ذكر الدين في أية وثيقة رسمية حتى الآن ، لتسهل للأقليات الاندماج في المجتمع .

وقد ضمّن ليوبنسكر آراءه عن الصهيونية في : مقاله الشهير « التحرر الذاتي » نداء من يهودي روسي إلى إخوته ، آراءه عن الصهيونية ، والتي من بينها أن المشكلة اليهودية عملية وليست نظرية وهي في حاجة إلى حل حاسم كما اتهم دول العالم بأنها لاتطبق مبدأ المساواة في معاملتها لليهود ، وهم غير قابلين للاندماج في الأمم التي يعيشون بين ظهرانيها ، وهذه الظاهرة من مسلمات العنصريين واللاساميين .

وهكذا يتضح لنا أن ليوبنسكر هو الذي وضع المبادئ الأولى للفكر الصهيوني السياسي ، كما أنه وضع منهاجًا واضحًا لتنفيذ فكرة إنشاء وطن قومي ، وقد اعتبره « تيودور هرتسل » رائده في الفكر الصهيوني ، حيث قام بتحويل الحركة الصهيونية من حركة فكرية إلى حركة سياسية في أعقاب قضية « دريفوس » [1] . فهرتسل لايعتبر المشكلة اليهودية مشكلة اجتماعية أو دينية - حتى وإن أخذت هذا الطابع في بعض الأحيان - بل المشكلة من وجهة نظره مشكلة قومية يجب حلها كمسألة سياسية على المستوى الدولي ، واختار فلسطين كأفضل مكان لغرس الدولة اليهودية المزعومة ، واضعًا في اعتباره تراثًا دينيًا لم يكن هو شخصيًا يؤمن به .

---

(١) هو الضابط اليهودي الفرنسي الذي اتهم بالخيانة عام ١٨٩٤ م لنقله أسرارًا عسكرية إلى الألمان ، وتمت محاكمته أمام مجلس عسكري وقد أقر المجلس إدانته وتجريده من رتبته العسكرية ، وشاءت الظروف أن تثبت براءته بعد ذلك .

وقد نجح هرتسل في أن يصور هذه المأساة الخاصة على أنها المأساة العامة التي يكابدها اليهود ، وقد عكف في فينا منذ عام ١٨٨٢ م على تشكيل مذهبها حتى انتهى من إرساء منهجها عام ١٨٩٦ م في كتابه الشهير « الدولة اليهودية » ، وفيه دعا إلى عقد اجتماع يهودي لوضع سياسة صهيونية منظمة ، كما جاء في كتابه أنهم شعب يرفض الاندماج الذي لم يكن مسموحًا به آنذاك في أوروبا الشرقية وفي روسيا على وجه الخصوص ، إلا أنه تحقق وبصورة مكثفة في أوروبا الغربية وخاصة في فرنسا ، ولذلك فالعلاج الوحيد في نظره لحل مشكلتهم ، هو إقامة دولة يهودية يجتمع فيها كل يهود العالم ولا تكون هذه الدولة مجرد مركز روحاني فقط للعقيدة والثقافة .

غير أن هرتسل رشح فلسطين كأنسب مكان يصلح لزرع الدولة اليهودية فيه من منطق استقطاب عشاق صهيون ، واجتمع المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال بسويسرا في ٢٩ أغسطس ١٨٩٧ م ، وانتهى المؤتمر إلى أن تحقيق أهداف الصهيونية ، يتلخّص في إنشاء وطن لليهود يتم الاعتراف به من الناحيتين الرسمية والقانونية ، واستقر رأي المؤتمر على أن يكون هذا الوطن هو فلسطين ، ثم قرر المؤتمر الخطوات التالي تحقيقًا لهذا الغرض :

١ - اتباع الوسائل العلمية الفعالة لإنشاء مستعمرات زراعية وعمرانية لتستوعب عمال اليهود من الزراعيين والصناعيين .

٢ - تنظيم جماعات يهودية من خلال المنشآت المحلية والدولية لتحقيق هذا الغرض ، بحيث تتواءم مع قوانين الدول التي يعيش اليهود بين ظهرانيها .

٣ - تقوية الروح القومية اليهودية وإذكاء الحماسة في صدورهم .

٤ - محاولة الاستفادة من تنافس الدول (الاستعمارية) ومساعدتها في تحقيق أهداف الصهيونية .

ومما يجدر ذكره أن اليهود تحاشوا في مؤتمر بال وكذلك في المؤتمرات اللاحقة حتى عام ١٩٤٢ ، استعمال تعبير « الدولة اليهودية » مفضلين عليها كلمة « وطن » منعا لإثارة حساسيات بعض الدول الأوروبية والعرب خاصة ، وإن مهدوا سراً لتحقيق هذا الهدف .

وسعت الصهيونية سعيًا حثيثًا للحصول على تأييد الحكومة العثمانية بوصفها صاحبة السلطة الشرعية على فلسطين لتسمح بالهجرة اليهودية إليها ، غير أن السلطان عبد الحميد الثاني رفض فكرة الاستيطان في فلسطين . وفي هذه الأثناء عرضت بريطانيا على هرتسل عام ١٩٠٣ م فكرة إنشاء وطن قومي لليهود في أوغندا نظرًا لاعتدال مناخها وغناها ، غير أن هرتسل رفض قائلاً ما نصه : « إن إفريقيا ليست فلسطين ولايمكن أن تحل محل صهيون » ، كما رفض المؤتمر الصهيوني السابع عام ١٩٠٥ هذا العرض فسحبته بريطانيا .

وعد بلفور :

وعندما بدأت الحرب العالمية الأولى ، اتفقت الدول الكبرى على اقتسام أملاك السلطان العثماني ، ووجدت الصهيونية فرصتها في الوصول إلى أرض الميعاد ، فعمل حاييم وايزمان [١] على توثيق علاقاته بكبار ساسة انجلترا ، ونجح وايزمان بمساعدة صديقه « بلفور » الذي أصبح وزيراً لخارجية بريطانيا ، على وعد يحقق التحالف بين بريطانيا والصهيونية العالمية ضد حركة القومية العربية ، وهو ما عرف فيما بعد باسم « وعد بلفور » والذي صدر عن وزارة الخارجية البريطانية في ٢ نوفمبر ١٩١٧ م ما نصه : « إن بريطانيا تعد بالنظر بعين العطف والرعاية إلى أمل الصهيونية فى إنشاء وطن قومي لليهود في

---

(١) حاييم وايزمان (١٨٦٤ - ١٩٥٢) : زعيم صهيون وعالم كيميائى وأول رئيس لإسرائيل في مايو ١٩٤٨ وهو من أصل روسي .

فلسطين ، وأن بريطانيا ستستخدم كـل ما في وسعها لتحقيق هذا الأمل ، على ألا ينتج عن ذلـك أي أضرار أو تعريض للحقوق المـدنية والدينية للهـيئات غير اليهـودية الموجودة في فـلسطين ، أو أن يـؤثر ذلك على الحـقوق أو الأوضاع السياسية لليهود فى البلاد الأخرى » .

وارتكازًا علـى تلك الرسالة ومـا ورد فيها : نقول إنـه مما يثير في الـنفس ريبة أن المقصود هنا بالهيئات غير اليهودية هم عرب فلسطين ، وقد ورد ذكرهم بطريقة تحمل على الظن أنهم لايكـونون الكثرة الغالبة ، وواقع الأمر أن العرب الذين لم ترد الإشارة إليهم بصريح العبارة كانوا يكونون ٩٢ ٪ من عدد سكان فلسطين آنذاك . وإذا نظرنا نظرة فاحصـة إلى الفقرة الأخيرة من التصريح « أو أن يؤثر ذلك على الحـقوق والأوضاع السياسية لليـهود في البلاد الأخرى » ؛ يتضح لنـا أن هذا النص يؤكد الروابط القـانونية والسياسية بـين اليهود والدول التي يـعيشون فيـها ، ويعطي لـهذه الدول حريـة السماح لمواطـنيها من الـيهود بالهجرة إلى فلسطين .

وفـي أعقاب الحرب العالـمية الأولى ، اتفق الحلـفاء فى ٢٥ ابريل ١٩٢٠ على وضع فلسطين تحت الانتداب البريـطاني ، وتقدموا بمشروع وثيقة الانتداب إلى عصبة الأمم دون أن يكـون هناك رأي للشعب العربي فـي فلسطين ، وهذا ما يـتعارض مـع ضروريات احـترام حرية وسـلامة الإقلـيم الذي وضـع تحت الانتداب ، وجاء فى هـذه الوثيقة « . . . وحيث أن دول الحلـفاء (الكبرى) وافقت أيضًا عـلى أن تكون الدولة المنـتدبة مسئولـة عن تنفيذ التـصريح الذي صرحت به حكومة ملك بريطانـيا في ٢ نوفمبر ١٩١٧ للـشعب اليهودي ، مع التأكيد بأن لا يؤثـر ذلك على الحقوق أو المركز السياسي الذي يتـمتع به اليهود في البلدان الأخرى . . . » وحيث أن ذلك اعتراف بالصلة التاريخية التي تربط الشعـب اليهودي فـي فلسطين ، والـدوافع وراء إعادة إنشـاء وطنهم الـيهودي القومي في تلك البلاد . . . » .

ومن المهم هنا أن نوضح كيف ضمّنت الحكومة البريطانية تصريح بلفور في وثيقة الانتداب إلى عصبة الأمم لتضفي على وعد بلفور الصفة الشرعية التي يفتقدها ، وهو عمل باطل من الناحية القانونية ، فوعد بلفور صادر في صورة خطاب إلى البارون « دي روتشيلد » بصفته الشخصية كفرد عادي ليس له أي كيان دولي .

وعلى هذا النحو فقد سهّلت وثيقة الانتداب ، إهدار حقوق شعب فلسطين وسمحت للوكالة اليهودية [1] بإدارة شئون فلسطين ، وذلك باعتبارها هيئة عمومية رسمية من الناحية القانونية ومن اللافت للنظر أن بريطانيا الدولة المنتدبة لم تحقق ولو جزءًا يسيرًا مما ورد في نص وثيقة الانتداب من حماية لحقوق الشعب الفلسطيني .

وهكذا ساير الانتداب البريطاني الصهيونية في تدعيمها للهجرة اليهودية إلى فلسطين ، ومن الجلي أن حركة الهجرة إلى فلسطين ظلت ضعيفة جدًا رغم دعاية الصهيونية السياسية ، ففي عام ١٨٤٥ م لم يكن في فلسطين سوي ١٢ ألف يهودي من أصل مجموع السكان البالغ عددهم ٣٥٠ ألف ، وفي عام ١٨٨٠ م بلغ عدد اليهود ٢٥ ألفًا من أصل مجموع السكان البالغ عددهم ٥٠٠ ألف ، ثم أتت حملات الاضطهاد فى روسيا عام ١٨٨٢ م بموجة جديدة تبعها موجات من يهود بولندا ورومانيا ، حتى أصبح هناك خمسون ألف يهودي في

---

(١) الوكالة اليهودية : واسمها الحقيقى المنظمة الصهيونية العالمية ، وكانت تعتبر الساعد الأيمن للحركة الصهيونية ، وقامت محاولات عديدة لتوسيع قاعدتها لتضم معظم يهود العالم ، فقام حاييم وايزمان بالتفاوض مع كبار اليهود من غير الصهاينة لإنشاء وكالة يهودية موسعة حتى تمثّل كافة يهود العالم . وكانت المهمة الرئيسية للوكالة اليهودية أيام الانتداب هي تمثيل الحركة الصهيونية ويهود العالم أمام سلطات الانتداب وعصبة الأمم ، وقد تطورت الوكالة حتى أصبحت ما يشبه حكومة داخل حكومة الانتداب لها جيشها (الهاجاناة والبالماخ) وجهازها الإداري وميزانيتها المستقلة .

فلسطين في نهاية القرن التاسع عشـر ، وبعد صدور وعد بلفور بعامين لم يكن هناك سوى ٦٥ ألف يهودي (أي حوالي ٧ ٪ من مجموع سكان فلسطين) ، ولكن خلال اثنـي عشر عامًا من بدء الانتداب الـبريطاني (١٩٢٠ - ١٩٣٢) هاجر إلى فلسطين ما يقرب من ١١٨ ألف يهودي ، وهذا يوضح مدى مساعدة سلطات الانتداب للصهيونية على تدعيم أركانها في فلسطين .

علـى أن الصهيـونية قد جـندت إمكانـياتها فـي جميع أنـحاء العالـم وفي الولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص لـلضغط على بريطانيا فوجهت مذكـرة في ٢ نوفمـبر ١٩٤٢ عن طريـق نواب وشيوخ الـكونجرس الأمريـكي مطالبين روزفلـت الرئيس الأمريكي بتبنـي قضية اليهود - على حد تـعبيرهم - جاء فيها « إن الغاية من وعد بلفور هو فتح أبواب فلسطين للجماعات اليهودية التي لا مأوي لها والتمهيد لإقامة دولة يهودية فيها » . وفي أعقاب ذلك وقفت الصهـيونية وراء ترومـان في حملتـه الانتخابية لـلرئاسة الأمريـكية ، وبعـد نجاحـه قام بالضغط علـى بريطانيا لإنشـاء جيش يهودي تم تجهيزه عام ١٩٤٤ ، وذلك بعد أن أعـدت الوكالة الـيهودية مراكز فـي كثير من الـدول لتدريب اليهـود وحشدت لهـم الأسلحة والمـعدات ، وبعد ذلـك أبحروا إلى الـساحل الفلسطيني .

وعلى هذا النـحو نظر الـغرب إلى المشكـلة عام ١٩٤٧ عـلى أنها مشـكلة ستمائة ألف يهـودي تجمعوا في فلسطين أثناء فترة الانـتداب ، وموضع الدهشة هنا هو أنهم يريدون إقامة دولة على أرض يمتلكها مليون وربع مليون عربي منذ زمن بعيد ، ولـذلك حشد اليهود طاقاتـهم المالية والعسكريـة والإدارية بمساندة الصهـيونية العـالمية لتنـفيذ هذا المخطـط ، ومن ثم أصبحـت الوكالة اليـهودية الوسيلة المؤقتة لتـنظيم الأجهزة الحكومية وتشكيل الوحدات الـعسكرية المختلفة

من العصابات اليهودية المتعددة ، والتي من بينها عصابة الأرجون [١] . وشتيرن [٢] وقوات البالماخ [٣] . والهاجاناة [٤] التي اندمجت فيما يسمى بجيش الدفاع الإسرائيلي وذلك عقب إعلان قيام إسرائيل في ١٥ مايو ١٩٤٨ م .

وهكذا صبت كل هذه العصابات حقدها في القيام بعمليات إرهابية ضد العرب والأراضي المخصصة لهم ضمن قرار التقسيم .

قرار التقسيم

أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢٦ نوفمبر عام ١٩٤٧ قرارها الذي تضمن التوصية بتقسيم فلسطين وإنهاء الانتداب البريطاني على فلسطين ،

(١) الأرجون : هي الكلمة الأولى من المصطلح العبري (ارجون تسفائي لئومي بارتس يسرائيل) ، بمعنى المنظمة العسكرية القومية في أرض إسرائيل ، وهي منظمة يهودية مسلحة أنشأت عام ١٩٣١ وكان زعيمها الروحي « زئيف جابوتنسكي » ، وقامت المنظمة بدور رئيسي في تهجير اليهود إلى فلسطين ، بالإضافة إلى القيام بأعمال الإرهاب ضد العرب بغرض طردهم من أراضيهم وأهمها مذبحة دير ياسين التي قادها مناحيم بيجن نفسه ، بالتعاون مع الهاجاناة ثم أدمجت في الجيش الإسرائيلي بعد قيام إسرائيل في عام ١٩٤٨ م .

(٢) شتيرن : منظمة عسكرية للإرهاب اسمها الأصلي (لوحمي حيروت يسرائيل) ومعناها المحاربون من أجل إسرائيل ، ثم أصبحت تعرف باسم شتيرن نسبة إلى مؤسسها ابراهام شتيرن (١٩٠٧ - ١٩٤١) ، وقد انشقت كفرع من الأرجون عام ١٩٤٠ م ، وهي تمثل الجناح الصهيوني المتطرف وأدمجت في جيش الدفاع الإسرائيلي في عام ١٩٤٨ م .

(٣) البالماخ : اختصار للمصطلح العبري (بلوجوت ماحاتس) بمعني سرايا الصاعقة ، وقام البالماخ عام ١٩٤١ ليكون القوة الضاربة للهاجاناة والغرض من إنشائها القيام بالمهام العسكرية بالغة الصعوبة ، وكان من مهامها تأمين عمليات هجرة اليهود إلى فلسطين ، وهي تمثل الجناح اليساري اليهودي ومن أبرز قادتها ألون واسحاق رابين وبارليف .

(٤) الهاجاناة : كلمة عبرية تعني الدفاع ، وهي منظمة صهيونية عسكرية استيطانية تم قيامها عام ١٩٢١ ، وقد كان هناك تنسيق سري بينها وبين الأرجون أعلنه مناحيم بيجن مؤخراً . قامت الهاجاناة بأعمال إرهابية ضد عرب فلسطين ، كما شاركت في بناء المستوطنات اليهودية وتعاونت مع سلطات الانتداب البريطاني وكانت أهم المؤسسات العسكرية اليهودية التي تحولت إلى جيش الدفاع الإسرائيلي في أعقاب قيام إسرائيل عام ١٩٤٨ .

ومن اللافت للنظر أن الجمعية العامة قد تجاهلت بقرارها هذا شعب فلسطين في تقرير مصيره ، بل الأمر أبعد من ذلك مدى ، فهو لايقتصر على ذلك وإنما جاوزه إلى إعطاء اليهود ٥٦ ٪ من أراضي شعب فلسطين ، في حين أنهم كانوا يمثلون فقط ٥,٦ ٪ قبل التقسيم ، وكان الأجدى أن تأخذ الجمعية العامة الأمر مأخذ الجد وتقرر المنظمة الدولية استقلال فلسطين وقبولها عضواً بها أسوة بما حدث لسوريا ولبنان والعراق كأقاليم كانت تحت الانتداب .

وما أن أعلنت بريطانيا إنهاء انتدابها على فلسطين في ١٥ مايو ١٩٤٨ ، حتى أعلن بن جوريون قيام دولة يهودية في فلسطين - على حد قوله - باسم إسرائيل ، وفي بداية الأمر عملت الصهيونية على تكوين دولة هي في واقع الأمر امتداد عنصري في قلب الوطن العربي ، وبالتالي فهي إحدى صور الاستعمار الاستيطاني .

ولابد من إضافة واجبة ، دفعًا لسوء الفهم ، وتلك الإضافة هي أنه من الخطأ القول بأن نشوء دولة صهيونية قد تم على أيدي منظمة الأمم المتحدة ، بل قام على سلسلة من الأمور الواقعة نفذتها بإحكام عصابات الأرجون والهاجاناة وشتيرن .

فإذا نظرنا إلى محاور الاهتمام الأساسية في السياسية التي اتبعتها الصهيونية ، نجد أن التشابه واضح بينها وبين ما ورد في كتاب « كفاحي » لأدولف هتلر ونصه « يجب أن توفر السياسة العنصرية للدولة أسباب المعيشة على هذا الكوكب للعنصر الذي تشمله الدولة ، وذلك بإقامة تنظيم محكم مستمر ومتفق مع القوانين الطبيعي بين زيادة عدد السكان من جهة وبين اتساع رقعة الإقليم من جهة أخرى » .

فإذا كان هتلر قد نادى بنظرة نقاوة الدم الألماني ، فإن الصهيونية ترى أيضًا أن النقاوة العنصرية هي الطريق الوحيد لخلاص يهود العالم وتحقيق وحدتهم القومية .

ومن ذلـك يتضح لـنا بما لايدع مـجالاً للشـك أن هناك مخـططًا صهيـونيًا للتـوسع كل عشر سـنوات ، فالصـهيونية فـي طمع جغرافـي مستمـر وتوسع استيطانـي متزايد ، وهو حتمية ملازمـة للوجودة الصهيوني في المـنطقة وذلك حتى تستوعب إسرائيل ٢٠ مليونًا من اليهود .

تقسيم للوجود اليهودي في فلسطين

أولاً : الروابط الروحية والدينية :

وهكذا أسدل الستار عـلى مسلسل الحقوق التاريخيـة بخاتمة من الأراجيف والدماء ، فـأولى الحجج التي تـستند علـيها الصهـيونية ، هي الدعـوة الخاصة بالروابط التي تربط بين اليهود وفلسطين على أساس الوعد الآلهي لبني إسرائيل في أرض كنعان ، فالصهيـونية السياسية تقرأ التوراة بروح قبليـة متعصبة ونزعة قومية عنـصرية ، لتستخرج من نصـوصها ما تبرر به ادعاءاتها مـن إقامة الدولة الصهيونية على أرض فلسطين العربـية ؛ وارتكازًا على تلك القراءة غير الواعية فإن الصهـيونية تقيم وزنًا لـستة وثلاثين عامًا مـضت على قيام إسرائـيل وتهدر ثلاث آلاف عام عاشها العرب على أرض فلسطين .

ثانيا : الحقوق التاريخية :

ومؤداها أن اليهود كـانت لهم دولة في فلسطين فـترة من الزمن وازدهرت في عهد داود وابنه سليمان ، وحقيقة الأمـر أن الإسرائيليين عندما تسللوا إلى فلسطـين بعد الخروج من مصـر بقيادة موسى عـليه السلام - الذي تـوفي على جبل بنـو على مشارف فلـسطين - ثم تولى يـوشع بن نون قيادتـهم ، وجدوا اليبوسيين والأدوميين والمؤابيين والعمونيين والكنعانيين وغيرهم وهؤلاء جميعهم عرب ، أي أن العرق السامي عربي في أصوله الجغرافية ، ثم غدت مسيحية في عهد الـرومان ، ولكنهـا ظلت سامية مـن حيث العرق والـسلالة البشـرية ثم

أصبحت إسلامية من حيث الدين وظلت عربية سامية من حيث التكوين والسلالة . والكثرة الغالبة من اليهود الذين وجدوا خارج فلسطين في العصور الحديثة لايمتون بصلة ليهود فلسطين القدماء ، فهم ينتمون إلى أجناس غير سامية اعتنقت اليهودية في فترات متباينة عبر التاريخ ، وكذلك كان بين اليهود الذين طردهم الملك الكاثوليكي فرديناند من إسبانيا كثير من المواطنين الأسبان الذين تهوّدوا وانتشروا في إيطاليا وفرنسا والشرق الأوسط ، ويهود طائفة الاشكيناز وهم يهود شرق أوروبا ووسطها هم أحفاد الخزر [١] الذين عاشوا في جنوب روسيا واعتنقوا الديانة اليهودية في القرنين السابع والثامن الميلاديين .

وعلى هذا النحو فالقول بوجود تاريخ مشترك لليهود قول يبطله الواقع ، فقد عاش اليهود خلال الألفي سنة الماضية منفيين منتشرين داخل بلدان مختلفة ، ولم تكن لهم سيادة في مملكة خاصة إلا ما يقرب من سبعين عامًا (من حوالي عام ١٠٠٠ ق . م حتى ٩٣٣ ق . م) هي فترة حكم داود وسليمان في القدس ، وحتى بعد انقسام مملكة سليمان إلى مملكتين انصهرت إسرائيل في قلب الإمبراطورية الآشورية حوالي عام ٧٢٢ ق . م ، وسقطت يهوذا في يد البابليين سنة ٥٨٧ ق . م ، وحتى ما يسمونه بممالك قصيرة الأجل ، فهي تتصل بالدين والروح العاطفية أكثر من اتصالها بالتاريخ السياسي والاجتماعي .

---

(١) كان الخزر – قبل هجرتهم من آسيا وبعد استقرارهم في جنوب روسيا – شعبًا وثنيًا حتى القرن السابع الميلادي ، وكونوا مملكة الخزر ، ولم يعتنق الخزر الديانة اليهودية إلا في نهاية القرن السابع ، أي بعد نزول الرسالة على موسى عليه السلام بأكثر من ألفي عام . وقد تنبه الروس أهل البلاد الأصليين إلى خطر هذا الوجود الخزري في القرن العاشر الميلادي ، فشنوا عليهم حروبًا استمرت حتى منتصف القرن الثالث عشر ، وعندما نجح الروس في طرد الخزر من أراضيهم انتشروا في دول أوروبا .

وعلى ذلك فإن الصهاينة يزيفون للعالم أن اليهود من شرق أوروبا بولنديين ولتوانيين وأوكرانيين وروسًا ورومانيين ، لهم حق شرعي في أن يعودوا إلى فلسطين بما يوحي بأن هذه العودة هي إلى وطنهم الأصلي وهو وطن لم يكن للخزر به على امتداد حياتهم أية صلة تاريخية أو عرقية .

على هـذا فمعظم الصـهاينة أوروبيـون وليس هناك أي رابط عـضوي بين أجداد يهود أوروبا وبين الأسباط اليهودية القديمة .

ومؤدي هذا كله أن الرابطة التي تجمع بين اليـهود في مختلف جنسياتهم ، هي رابطـة الدين فقط وليـست رابطة القـومية كما تـدعي الصهيونـية ، وهذه الحقيقة العلمية يؤمن بها اليهود غير الصهيونيين كقاعدة أساسية .

وجريًا عـلى هـذه الـصورة فإن التـاريخ اليهـودي أوضح بما لايدع مـجالاً للشك ، عدم صحة إدعاءات الصهيونية حول أرض الميعاد ، اعتماداً على بعض المرويات القديمة التـي يحترمها اليهود ، وهذا يعني أنهـم حاولوا أن يربطوا هذه الادعاء ربطًا مفتعلاً بالتاريخ .

ومن هنـا نرى أن اليهود لـم تواتهم ظروف حيـاتهم بمعرفـة علمية دقـيقة يصححون بها أوهامهم ، فظلوا متشبثـين بنظرتهم الذاتية تلك ، متأثرين بدافع الأهواء المخزونة ، وآمنوا أن الفكر العميـق يتعين أن يكون ملفوفًا في رداء من الغموض ، ولذلك لم ينكشف لـهم الحق كما هو واقع ، أي الحق الموضوعي الذي يستمد صدقه من الواقع الفعلي .

الخاتمة

الخاتمة

يمثل موضوع هذا البحث صعوبات كثيرة نظراً لما يتسم به من أهمية فريدة من نوعها على الصعيدين العلمي والقومي في آن واحد ، فمدينة القدس تمثل عقدة من عقد الصراع العربي الإسرائيلي ، التي استعصت على نطس السياسيين ، والتي تجول من حولها فيما يبدو مساومات طويلة جداً ، ذلك أنها مدينة مقدسة للأديان السماوية جميعًا الإسلام والمسيحية واليهودية ، وهي مدينة السلام كما أنها كانت فريسة للعدوان الصهيوني في أكثر من مرحلة وأكثر من عصر ، منها هذا العصر الحديث الذي نعيشه الآن .

فالبحث في القدس يتخذ طرائق كثيرة جداً ، وقد وقفنا في بحثنا عند نتيجة هامة جداً ، وهي أن القدس قبل عصر داود لم تكن تمت بأية صلة للفكر اليهودي ، فموسى لم يعرف القدس ولا يوشع بن نون ولا القضاة ولا الآباء الأول ، وإنما انتقل إليها داود وسليمان ، ثم حدث بعد ذلك أن طُرد اليهود منها ، فاكتسبت في أذهانهم صورة الحرم المقدس الذي طردوا منه ، وأصبحت الحركات الصهيونية المتعاقبة إلى الصهيونية الحديثة تعتمد على القدس شعاراً لإلهاب الإحساس الإسرائيلي وتوجيه اليهود من كافة أنحاء الأرض نحو المدينة المقدسة عند المسلمين والمسيحيين ، والتي اعتبرها اليهود مدينة داود بينما هي مدينة الله من قبل .

ولكني آثرت ألا أصل إلى بغيتي بأقصر الطرق ، لأنني لو فعلت ذلك لأضعت على نفسي والقارئ معالم هامة أردت أن تكون موضع السمع والبصر ، ولذلك صحبته في خط دائري يدور حول الموضوع من كافة جوانبه الفكرية والدينية والتاريخية والأثرية . وكان عليّ أن أواجه مشاكل أثرية لاتكاد تحل في مدينة القدس ، نظراً لقداسة المدينة للأديان السماوية الثلاثة ، بحيث أصبح المساس بها خروجًا على هذه الأديان وتدنيسًا لهذه الحرمة المقدسة الكامنة

في ثري هذا الموقع المقدس ، ولذلك كف المسلمون والمسيحيون عن الحفائر واكتفوا بعمليات جسّ محدودة جداً .

ثم دنّست الصهيونية القدس العربية سنة ١٩٦٧ م ، وانتهكت كل هذه الحرمات على أمل أن تجد وثائق تثبت أحقية هذه المدينة للإسرائيليين وباءت أبحاثهم وجهودهم بالفشل ، لأنهم أوغلوا في تشويه هذه المدينة وتعميق حفائرهم فيها كلما ظهر ما يثبت أنهم دخلاء ومتطفلون على ثراها وطبقاتها القديمة .

ومعنى ذلك أن العنعنات والروايات التي وردت عند بعض الحاخامات موضع شك كبير ، لأنها تقال على سبيل التبرك أكثر منها على سبيل البحث العلمي ، أما هذه الحفائر التي كان آخرها ما قام به قسم الآثار بالجامعة العبرية بإشراف البروفيسور يجائيل يادين ، فلم تسفر عن شيء يثبت أحقية اليهود في المدينة المقدسة كما يدعون ، فعادوا وطمروا حفائرهم هذه وطووها طيّ الكتمان .

هناك أيضًا الجانب التاريخي الذي لعب دوراً في بلورة الفكر اليهودي حول المدينة المقدسة ، وهذا الجانب التاريخي فيه جزء خاص بالفولكلور ، فهو يحتوي على تاريخ قومي وتاريخ شعبي وفيه جزء يعتبر وقائع سياسية وعسكرية حدثت فعلاً ، ثم الجانب الأخير وهو انعكاسات هذا على الدين وعلى السياسة وعلى الأدب في اللغة العبرية . وقد قمت بمعالجة هذه النواحي الثلاث في البحث بالقدر الذي أتاحته المراجع المتيسرة :

ومن هذا الفولكلور والتاريخ تكوّن التعصب اليهودي لمدينة القدس ، وهو التعصب الذي يعتبر صخرة من الصخور السياسية الصلبة التي تتحطم عليها أي قرارات تصدرها هيئة الأمم في عصرنا الحديث .

وأمام هذا السيل من الادعاءات الصهيونية الخاصة بالقدس ، يتلخص الرد

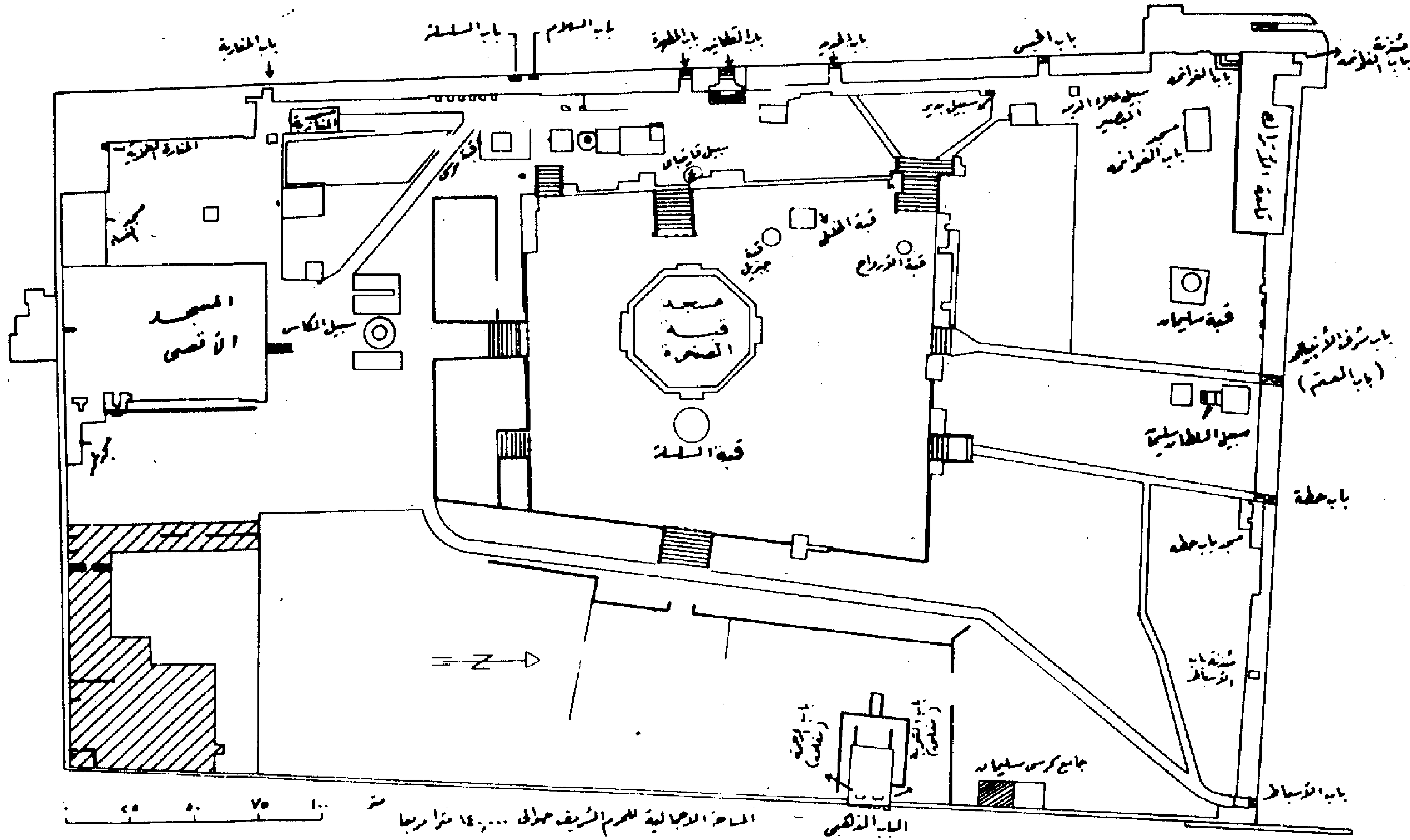
الإنساني العام في أن هذه المدينة ليست وقفًا على اليهود بحال من الأحوال ، فالمسيحيون يتجهون إليها في صلاتهم ويسافرون إليها حجاجًا وعددهم مليار في العالم ، والمسلمون عندهم من الوثائق التي لايرقي إليها الشك ما يبرهن على أنها أولى القبلتين وثالثة الحرمين ، وأن سكانها منذ الأزل لم يكونوا من اليهود وعدد المسلمين يناهز المليار أيضًا ، بينما يضع زعماء الصهيونية في وجه مليارين من البشر - الذين يقدسون هذه المدينة - خمسة عشر مليونًا من اليهود هم كل اليهود في العالم والذين لايقدسون شيئًا إلا الاستعمار والدولار .

ثم إن وقائع التاريخ تبين أن القدس تحت الحكم الإسلامي كانت مدينة مفتوحة للزوار من جميع الأجناس والأديان ، كما أن الرحال الأندلسي المسلم ابن جُبير الذي ركب البحر من أوروبا إلى الشرق في زمن صلاح الدين الأيوبي وفي عنفوان الحروب الصليبية يذكر أن نصف ركاب سفينته كانوا من المسيحيين والنصف الآخر من المسلمين ، كل منهما يتجه إلى الحج ، المسيحيون إلى القدس والمسلمون إلى مكة ، وكان صلاح الدين الذي كان يحارب في فلسطين يُؤَمِّن أثناء هذه الوقائع المهولة طريق الوصول إلى الأماكن المقدسة للحجاج المسيحيين القادمين من أوروبا ، كما أن الرحالة اليهودي بنيامين الططيلي يدخل القدس حاجًا وواقفًا بحائط المبكي والمدينة تحت الحكم الإسلامي فلا يشعر بأي ضغط أو تقييد أو تهديد .

ومن هنا نجد المسلمين في العصر الحديث يتساءلون في حسرة واندهاش ماذا جنت القدس الإسلامية حتى تخلع عن عرشها الذي رضي به المسلمون وأهل الذمة على السواء ، ولم تحجبه إلا هذه الحركة الصهيونية التي ابتُلي بها الوطن العربي .

تحت هذا الضوء نتبين أبعاد كلمة قالها وكررها مرارًا صاحب الجلالة المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز الذي يقول إننا نرحب بالسلام وعلامة هذا

لوحة رقم (١٠)



مخطط توضيحي للحرم الشريف يبين الأوضاع النسبية لمسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى كما يوضح المآذن والبوابات ومصادر المياه داخل سور الحرم الشريف . وهذا المخطط من عمل عبد الرحمن الرساس من الأردن بإشراف حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين نقلاً عن كتاب : The Nobel Sanctuary by Alistair Duncan.

السلام عـندي أن أستطـيع أن أقود سيارتـي من مكة لأصـلّي في قبة الـصخرة بالقدس دون أن يتعرض لي أحد .

بهذا التلـخيص المختصر يبين السيـاسي العربي الكبير أن الســلام ليس حبراً على ورق وإنما هو نتائج عملية وسلوك إنـساني إذا لم ينفذ فهو الخداع بعينه ، وما زالت المسألة حيث تـركها العاهل العربي الكبير ، فالمـسلم والمسيحي إذا لم يستطـيعا الوصول إلى القـدس بسهولة وابتهـاج وروحانية تامة فمـعنى ذلك أن الوحش الصهـيوني الشرس ما زال يهدد طريـقهما ، وقد فكر بعض الـبعيدين عن بؤرة المشكلة فـي التدويل ناسين أن كل مكان في العالـم طبّق فيه التدويل تضاعفت فيه المشاكل ، وليس أدل عـلى ذلك من رفض الملك فيصل رفضًا باتًا لمبدأ التدويل مع تأكيده دائمًا تمسكـه بعروبة القدس . ثم إن التدويل يكون حلاً إذا كان النظـام الماضي وهو هنا الـولاية الإسلامية قد أخـفق في القيام بـالمهمة وأداء الأمانة ، بينما المعروف أنه منذ أن فتح عمر بن الخطاب مدينة القدس في السنة الخامسة عشرة من الهجرة (٦٣٦ ميلادية) ، لم يحدث أن اشتكى واحد من أهل الذمة من الإدارة الإسلامية للمدينة المقدسة .

وهكذا يتـبين لنا أن العالم الإسلامـي ما يزال حتى اليوم مـدعواً إلى عدم التخـلي عن هذا المقـياس الديمقراطـي البسيـط الذي نادي به صاحـب الجلالة المغفور له المـلك فيصل بن عبد العزيـز ، وهو أن تظل المدينة مقدسـة مفتوحة للجميع دون قيد أو شرط في ظل سماحة الإسلام .

المصادر والمراجع

المصــادر والمراجــع

أولاً - المراجع العربية

أ - مراجع عربية قديمة :

(١) القرآن الكريم .

(٢) الكتاب المقدس (العهد القديم - العهد الجديد) : دار الكتاب المقدس ، القاهرة ١٩٦٩م .

(٣) الأسفار القانونية التي حذفها البروتستانت ، الإسكندرية ١٩٧٧م .

(٤) ابن الأثير : كتاب الكامل في التاريخ (١٢ جزءاً) بيروت ١٩٦٩م .

(٥) الحافظ شمس الدين الذهبي : كتاب دول الإسلام ، المجلد الثاني ، طبعة أولى ، ١٣٣٧ هـ .

(٦) ابن حزم الأندلسي : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، مكتبة ومطبعة صبيح ، القاهرة ١٩٦٤م .

(٧) جمال الدين أبو المحاسن الأتابكي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، الجزء السادس ، القاهرة .

(٨) زين الدين عمر بن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر ، الجزء الثاني ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٧٠م .

(٩) عماد الدين إسماعيل أبي الفداء : المختصر من أخبار البشر ، الجزء الثالث ، الطبعة الأولى ، القاهرة .

ب - مراجع عربية حديثة :

(١٠) أبو حديد، محمد فريد: صلاح الدين الأيوبي ، دار المعارف ١٩٦٠م .

(١١) أمين ، أحمد : ظهر الاسلام ، الجزء الثالث ، الطبعة الرابعة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٦م .

(١٢) العقاد ، عباس محمود : الله كتاب في نشأة العقيدة الالهية ، الطبعة السادسة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩م .

(١٣) العقاد ، عباس محمود : إبراهيم أبو الأنبياء ، دار الهلال ، القاهرة .

(١٤) العارف ، عارف باشا: تاريخ القدس ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥١م .

(١٥) إبراهيم ، د. نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم ، الجزء الثالث ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٦م .

(١٦) د. إبراهيم رزقانة ، د. محمد صفي الدين أبو العز : المجتمع العربي ، القاهرة ١٩٦٤م .

(١٧) النجار ، عبد الوهاب : قصص الأنبياء ، مطبعة العلوم ، القاهرة ١٩٣٢م .

(١٨) أولبريت ، وليم ف : آثار فلسطين ، ترجمة د. زكي اسكندر ، د. محمد عبد القادر محمد ، مطابع الأهرام ، القاهرة ١٩٧١م .

(١٩) أحمد العوامري بك ، محمد أحمد جاد المولى بك : مهذب رحلة ابن بطوطة ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٣٣م .

(٢٠) الحيني ، د. محمد جابر عبد العال : في العقائد والأديان ، الهيئة المصرية العامة ، القاهرة ١٩٧١م .

(٢١) الطويل ، د. السيد رزق : بنو إسرائيل في القرآن ، دار المعارف ١٩٨٠م .

(٢٢) القصاص ، د. محمد : الشعر العبري ، القاهرة ١٩٥٨-١٩٥٩م .

(٢٣) العسيلي ، د. كامل جميل : وثائق مقدسية تاريخية ، المجلد الأول ، عمان ١٩٨٣ .

(٢٤) بدوي ، د. عبد الرحمن : دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي ، دار الآداب ، بيروت ١٩٦٥م .

(٢٥) بالينثيا ، آنخل جونثالت : تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة د. حسين مؤنس ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٥م .

(٢٦) جلال ، د. ألفت : الأدب العبري القديم والوسيط ، مطبعة جامعة عين شمس ، ١٩٧٨م .

(٢٧) جيمس فريزر : الفولكلور في العهد القديم ، ترجمة د. نبيلة إبراهيم - جـ١ ، القاهرة ١٩٧٢م .

(٢٨) حسنين ، د. فؤاد : فلسطين العربية ، القاهرة ١٩٧٣م .

(٢٩) حسنين ، د. فؤاد : من الأدب العبري ، القاهرة ١٩٦٣م .

(٣٠) خمار ، قسطنطين : موسوعة فلسطين الجغرافية منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ١٩٦٩م .

(٣١) خليفة ، د. محمد : الحركة الصهيونية (مذكرات كلية الآداب - جامعة القاهرة ، ١٩٧٨م) .

(٣٢) رمضان ، د. عبد العظيم : الصراع بين العرب وأوروبا ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣م .

(٣٣) رنسيمان ، ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية (ثلاثة أجزاء) ، الطبعة الثانية - ترجمة الدكتور السيد الباز العريني ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٨١م .

(٣٤) راتب ، د. عائشة : العلاقات الدولية العربية ، القاهرة ١٩٧٠م .

(٣٥) رشيد ، د. فوزي : الشرائع العراقية القديمة ، بغداد ١٩٧٣م .

(٣٦) زكي ، د. عبد الرحمن : الفن الإسلامي ، دار المعارف - ١٩٨٤م .

(٣٧) زيادة ، د. نقولا : الرحالة العرب ، دار الهلال ، القاهرة ١٩٥٦م .

(٣٨) عبد الحميد ، د. محمد حرب : (ترجمة) مذكرات السلطان عبد الحميد ، دار الأنصار ، القاهرة ١٩٧٨م .

(٣٩) عبد البديع ، د. لطفي : الإسلام في إسبانيا ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨م .

(٤٠) عبد المجيد ، د. محمد بحر : اليهود في الأندلس ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٩٧٠م .

(٤١) عبد العليم ، د. مصطفى كمال : اليهود في مصر في عصري البطالمة والرومان ، القاهرة ١٩٦٨م .

(٤٢) غومس ، امبليو غَرْسِيه : الشعر الأندلسي ، ترجمة د. حسين مؤنس ، الطبعة الثالثة ، مكتبة النهضة ، القاهرة ١٩٦٩م .

(٤٣) فريد ، محمد (بك المحامي) : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق د. احسان حقي ، الطبعة الأولى ، (دار النفائس) ، بيروت ١٩٨١م .

(٤٤) سبينوزا ، باروخ : رسالة في اللاهوت والسياسة ، ترجمة د. حسن حفني ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧١م .

(٤٥) سلام ، د. شعبان محمد : الأثر العربي في الشعر العبري ، الجزء الأول في البحور والأوزان ، القاهرة ١٩٨١م .

(٤٦) ظاظا ، د. حسن : الساميون ولغاتهم ، مكتبة الدراسات اللغوية ، القاهرة ١٩٧١م .

(٤٧) ظاظا ، د. حسن : الفكر الديني الإسرائيلي ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧١م .

(٤٨) ظاظا ، د. حسن : إسرائيل ركيزة للاستعمار بين المسلمين ، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ١٩٧٣م .

(٤٩) ظاظا ، د. حسن : الشخصية الإسرائيلية ، مجلة عالم الفكر ، المجلد العاشر ، الكويت ١٩٨٠م .

(٥٠) موسكاتي ، سبتينو : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة د. السيد يعقوب بكر ، دار الكتاب العربي ، القاهرة .

(٥١) نصحي ، د. إبراهيم : تاريخ مصر في عصر البطالمة ، الطبعة الرابعة جزآن ، القاهرة ١٩٧٦م .

(٥٢) هنداوي ، د. إبراهيم موسى : الأثر العربي في الفكر اليهودي ، مكتبة الانجلو ، القاهرة ١٩٦٣م .

(٥٣) ولبر ، دونالد ، إيران ماضيها وحاضرها ، ترجمة د. عبد النعيم محمد حسنين ، القاهرة ١٩٥٨م .

(٥٤) ول ديورانت : قصة الحضارة ، الجزء الثاني ، الشرق الأدنى ، ترجمة محمد بدران ، القاهرة ١٩٧١م .

ثانيا - المراجع العبرية

(١) التلمود البابلي والتلمود الأورشليمي .

(٢) العهد القديم (التوراة - أسفار الأنبياء - كتب الحكمة) .

(٣) مشنايوت (المشنا) :

Philip Blackman, New York, 1977.

(٤) ابراهام قورمـان : زريـت وكـيتـوت بيهـودوت (التـيارات والطـوائف اليهودية) ، القدس ١٩٦٠م .

(٥) إسحاق بن صبي : ندحى يسرائيل (الضالون من بني إسرائيل) ، القدس ١٩٦٣م .

(٦) إسحاق بن صـبي : عيقري أمونـتام بنوسح قصـير (أسس عقيدتـهم في نسخة مختصرة) القدس ١٩٦٥م .

(٧) أورئيل رففورط : تولدوت يسرائيل بتقوفت هبيت هشيني (تاريخ اسرائيل في فترة البيت الثاني) القدس ١٩٦٧م .

(٨) إسرائيل بلكيند : هشومرونيم (السامريون) ، القدس ١٩٢٨م .

(٩) إسرائيل بلكيند : عسرت هشبطيم (القبائل العشر) القدس ١٩٢٨م .

(١٠) إشعيا برس : محقريم بيديعت هآرتس وطبوجرافيا مقرائيت (بحوث في الجغرافيا والطبوغرافيا التوراتية) القدس ١٩٦٠م .

(١١) بنيامين مـزار : كنعان ويسرائيل محـقريم هيسطوريم (كنـعان واسرائيل بحوث تاريخية) ، القدس ١٩٧٤م .

(١٢) جدلياهو ألون : تولدوت هيهوديم بارتس يسرائيل بتقوفت همشنا وتلمود يروشليمي (تاريـخ اليهود في أرض إسرائيل في عصري المشـنا والتلمود الأورشليمي) ، القدس ١٩٥٣م .

(١٣) حزقيال قـويفمان : تولدوت هـائمونا هيسرائـيليت ميمـي قدم عد سوف بيت هشـيني (تاريخ العقـيدة اليهودية في الـعصور القديمة وحتـى نهاية البيت الثاني) ، القدس ١٩٥٣م .

(١٤) حاييم شيرمان : هشيرا هعفريت بـسفراد ويفروبانس (الشعر العبري في إسبانيا وجنوب فرنسا) القدس ١٩٥٤م .

(١٥) زئيب فيلنائي : يهودا وشمرون (يهودا والسامرة) ، القدس ١٩٦٨م .

(١٦) ميخال أبي يونا : بيمي روما وبيزنطيون (تاريخ روما وبيزنطة) ، القدس ١٩٤٧م .

(١٧) صموئيل يبين : محقريم بتولدوت يسرائيل (بحوث في تاريخ إسرائيل) ، القدس ١٩٦٠م .

(١٨) شمعون دوفنوف : دبري هيميم لعام يسرائيل (تاريخ الشعب الإسرائيلي) ، القدس ١٩٤١م .

(١٩) يوحنان أهاروني : إرتس يسرائيل بتقوفت همقرا (أرض إسرائيل في عصر المقرا) ، القدس ١٩٦٢م .

(٢٠) يوحنان أهاروني : هتنحلوت شبطي يسرائيل بجليل هعليون (استيطان أسباط إسرائيل في الجليل الأعلى) ، القدس ١٩٦٠م .

(٢١) يوشع جوتمان : هسفروت هيهوديت هيلينسطيت (الكتب اليهودية والهيلينستية) ، القدس ١٩٥٨م .

(٢٢) يوشع جرينتس : براقيم بتولدوت ببيت شني (فصول من تاريخ البيت الثاني) القدس ١٩٦٩م .

بعض دوائر المعارف العبرية

(٢٣) أوتسار يسرائيل انسيكلوبديا :. مهدورا شليشيت (دائرة المعارف العبرية : الطبعة الثالثة) ، لندن ١٩٣٥م .

(٢٤) هانسيكلوبديا هعفريت كوليلت يهوديت (دائرة المعارف العبرية الشاملة اليهودية) ، القدس ١٩٦٩م .

ثالثاً - المخطوطات

(١) كتاب (تاريخ الســامريين) لأبي الفتح بن أبي الحسن الســامري الدنفي ، عام ١٣٥٢م .

(٢) بعض أوراق البردي باللغة الآرامية والعبرية . مخطوط رقم OR 9180 .

رابعا - المراجع الأجنبية

1. **Ackroyd, P.R.** Israel under babylon and Persia, Oxford, 1970.
2. **Albright, W.F.** From the Stone age to Christianity, Baltimore, 1940.
3. **Adler, E.** Jewish Travellers, London, 1930.
4. **Allegro, J.** The Dead Sea Scrolls, London, 1977.
5. **Alt, A.** Essays on old Testament History and Religion Translated by R.A. Wilson, New York, 1967.
6. **Baly, D.** Geographical Companion to the Bible, New York, 1963.
7. **Charles, R.H.** The Apocrypha and Pseudepgrapha of the Old Testament, Oxford, 1913.
8. **Coggins, R.J.** Samaritans and Jews, London, 1975.
9. **Cary, M.** A History of the Greek world from 323 to 146 B.C., London, 1965.
10. **Cowely, M.** Aramaic papyri of the Fifth Century B.C., Oxford, 1923.
11. **Duncan, A.** The Noble Sanctuary, portrait of a Holy place in Arab Jerusalem, Beirut, Second Edition, 1981.
12. **Delaporte, L.** Mesopotamia the Babylonian and Assyrian Civilization, translated by V. Gordon Childe, London, 1970.
13. **Driver, G.R.** Aramaic Documents of the Fifth Century B.C., Oxford, 1965.
14. **Edward, F. and Freedman, D.N.** The Biblical Archaeologist Reader 2, Vol. II, New York, 1964.

15. Edward, F. and Freedman, D.N. The Biblical Archaeologist Reader 3, Vol. III, New York, 1970.

16. Epstein, I. Babylonian Talmud, Translated into English with notes, under the Edidorship of Rabbi Dr. I. Epstein, London, 1935-1948.

17. Gaster, M. The Samaritans their History, Doctrines and Literature, London, 1923.

18. Gray, J. The Canaanites, London, 1964.

19. Greatz, H. Popular History of the Jews, New York, 1949.

20. Heaton, E.W. The Hebrew Kingdoms, Oxford, 1968.

21. Hindson, E. The Philistines, and Old Testament, New York, 1971.

22. Jastrow, M. The Civilization of Babylonia and Assyria, Philadelphia, 1915.

23. Johnson, A.R. The one and the many in the Israelite conception of God, Oxford, 1960.

24. Josephus, F. Antiquities of the Jews, Vols. II – III, Michigan, 1974.

25. Josephus, F. The wars of Jews, Vol. I, Michigan, 1974.

26. Johns, C.H.W. Assyrian Deeds and Documents, Vol. II, 1901.

27. Kracling, E.G. The Brooklyn Museum Aramaic Papyri, New Haven, 1953.

28. Kenyon, K. Archaeology in the Holy Land, New York, 1969.

29. Kenyon, K. Digging up Jerusalem, New York, 1974.

30. Kaufmann, Y. The Religion of Israel from its beginning to the Babylonian Exiles, New York, 1966.

31. **Lods, A.** Israel from its Beginnings to the Middle of the Eight Century, translated by S.H. Hooke, London, 1932.

32. **Lods, A.** The Prophets and the Rise of Judaism translated by S.H. Hooke, London, 1955.

33. **Macalister, R.A.** The Philistines, their History and Civilization, London, 1914.

34. **Macdonald, J.** The Samaritan chronicle No. II, London, 1969.

35. **Montgomery, J.A.** The Samaritans, New York, 1907.

36. **Olmstead, A.T.** History of Assyria, New York, 1923.

37. **Olmstead, A.T.** History of Palestine and Syria, New York, 1931.

38. **Ricciotti, G.** The History of Israel (2 Vols). Milwankee, 1955.

39. **Robinson, Th. H.** A History of Israel, Oxford, 1957.

40. **Rops, D.** Israel and Ancient World, London, 1960.

41. **Russell, D.S.** Between the Testaments, London, 1972.

42. **Rosenthal, E.** Judaism and Islam, London, 1961.

43. **Ringgren, H.** Israelite Religion, translated by David E. Green, New York, 1966.

44. **Schuss, H.** The Jewish Festivals, New York, 1978.

45. **Schurer, E.** A History of the Jewish People in the time of Jesus, New York, 1978.

46. **Schurer, E.** The literature of the Jewish People in the time of Jesus, New York, 1972.

47. **Smith, A.E.** The Legacy of Israel, Oxford, 1948.

48. **Smith, G.A.** The Historical Geography of the Holy Land, New York, 1966.

49. **Smith, W.R.** The Prophets of Israel, London, 1907.

50. **Smith, W.R.** The Religion of the Semites, New York, 1972.

51. **Techerikover, V.** Hellenistic Civilization and the Jews, New York, 1979.

52. **Wardle, W.L.** The History and Religion of Israel.

53. **Welch, A.C.** The Religion of Israel under the Kingdom, London, 1912.

54. **Wright, G.E. and Freedman, D.N.** The Biblical Archaeologist, Reader 1, Vol. 1, New York, 1961.

55. **Waxman, Meyer.** A History of Jewish Literature, New York, Second Edition, 1938.

56. **Atlas of Israel.** Cartography, Physical, Geography, Human, Economic Geography, History, Published by Survey of Israel, Ministry of Labour, Jerusalem, 1970.

57. **Encyclopedia Religion and Ethics.** New York, 1928.

58. **Encyclopedia Judaica.** Jerusalem, 1978.

59. **Interpreter's Dictionary of the Bible.** An Illustrated Encyclopedia in 4 Vols. New York, 1963.

60. **The Babylonian Talmud.** Translated into English, London, 1935–1948.

فهرس للصور والخرائط والمخططات

١ - خريطة لتضاريس فلسطين	٣٩
٢ - صورة للصخرة المقدسة داخل مسجد قبة الصخرة	٤١
٣ - صورة من فوق جبل سكوبوس توضح الأوضاع النسبية لمسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى	٤٣
٤ - صورة لمسجد قبة الصخرة من خلال أعمدة قبة الأرواح وإلى اليمين قبة الخليلي وإلى اليسار قبة جبريل الصغيرة المواجهة لقبة الصخرة	٤٥
٥ - خريطة توضح حملة ششنق الأول على فلسطين	٧٩
٦ - خريطة تبين أهم مدن فلسطين في القرن الثامن ق . م	٨٣
٧ - خريطة توضح التغريب الأشوري لمملكة إسرائيل ٧٢٢ ق . م . والسبي البابلي لمملكة يهوذا ٥٨٧ ق . م ومناطق النفي	٩٨
٨ - مخطط لمعبد سليمان (طبقا للوصف الوارد في العهد القديم)	١١٧
٩ - مخطط لمدينة السامرة قبل التدمير الآشوري لها وفي العصرين اليوناني والروماني	١٤٨
١٠ - مخطط لمعبد هيرودس الكبير (طبقًا لوصف يوسيفوس)	١٥٠
١١ - مخطط لمدينة القدس في بداية العصر الروماني (يوضح الأسوار والبوابات والأبراج)	١٥٢
١٢ - مخطط لمدينة القدس قبل تدميرها عام ٧٠ م على يد تيتوس يوضح أسوار المدينة الثلاث والقلاع والأبراج	١٥٥
١٣ - مخطط توضيحي للحرم الشريف يبين الأوضاع النسبية لمسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، كما يوضح المآذن والبوابات ومصادر المياه داخل سور الحرم	٢٢٤

من إصدارات السلسلة

١- أشهر الأوبرات (مترجماً) .... د. محمود الحفني
٢- إسحاق الموصلي .... د. محمود الحفني
٣- الموسيقى العربية .... د. محمود الحفني
٤- ياللي ع الترعة حود ع المالح .... رشا رفعت شاهين
٥- صور أدبية .... علي أدهم
٦- صور تاريخية .... علي أدهم
٧- العرب في إسبانيا (مترجماً) .... علي الجارم
٨- الأرض والمياه والإنسان .... جماعة تحوتي
٩- الوتر المشدود .... زغلول عبد الحليم عبد الله
١٠- وقائع استشهاد إسماعيل النوحي- ط ٢ .... سمير ندا
١١- حوارات المستقبل .... د. السيد أمين شلبي
١٢- فصول عن حقوق الطفل .... عبد التواب يوسف
١٣- محمد «ص» (مواقف من السيرة النبوية) .... فتحي الإبياري
١٤- شموس في سماء الوطن .... محمد الشافعي
١٥- تأملات في الأدب والفن .... د. صبري حافظ
١٦- توفيق الحكيم .. بين عودة الروح وعودة الوحي .... عبد الرحمن أبو عوف
١٧- شافع ونافع .... فتحي رضوان
١٨- مشهورون منسيون .... فتحي رضوان
١٩- فتحي غانم- الحياة والإبداع - ط ٢ .... حسين عيد
٢٠- البرديات العربية في مصر الإسلامية - ط ٢ .... د. سعيد مغاوري
٢١- قراءة في أحوال الوطن .... حمدي أبو كيلة

٢٢- حكايات المؤسسة .... جمال الغيطاني

٢٣- يوسف وهبي .. فنان الشعب .... محمد السيد عيد

٢٤- عصر سلاطين المماليك .... د. قاسم عبده قاسم

٢٥- عطر القناديل .... مجيد طوبيا

٢٦- حديث النفس - ج ١ .... فاروق خورشيد

٢٧- حديث النفس - ج ٢ .... فاروق خورشيد

٢٨- بوابات المستقبل .... جماعة تحوتي

٢٩- طريق الفتح الإسلامي .... حسن الرزاز

٣٠- اللهم اجعله خير .... لينين الرملي

٣١- الحكيم لا يمشي في الزفة .... د. أحمد عتمان

٣٢- دليل أعلام الموسيقى في مصر .... د. عواطف عبد الكريم

٣٣- حضن الجبل .... د. نعيم عطية

٣٤- ماهية الشعر عند حسن طلب .... سعيد توفيق

٣٥- المسرح الروسي بعد الانهيار .... د. أشرف الصباغ

٣٦- أثر الإسلام في مصر .... د. قاسم عبده قاسم

٣٧- أزمة الضمير الأوروبي .... بول هازار

٣٨- حارة اليهود .... محمد جبريل

٣٩- سعد الدين وهبه (أوراق سينمائية) .... الأمير أباظة

٤٠- الاسماعيلية أرض الفرسان .... محمد الشافعي

٤١- الثقافة المصرية في مطلع القرن الحادي والعشرين .... مؤتمر أدباء الأقاليم

٤٢- أدب الخيال العلمي في مصر .... مؤتمر أدباء الأقاليم

٤٣- دراسات في الحركة الأدبية في البحيرة .... مؤتمر أدباء الأقاليم

٤٤- معجم أدباء مصر في الأقاليم .... مؤتمر أدباء الأقاليم

٤٥- حوارات يوسف الشاروني .... يوسف الشاروني

٤٦- حوار مع هؤلاء .... عبد الرحمن أبو عوف
٤٧- تجديد الفكر المصرى عند قاسم أمين .... د. عزت قرنى
٤٨- أوراق لطيفة الزيات .... فوزية مهران
٤٩- عالم يتحول .. ووطن يستجيب .... جماعة تحوتى
٥٠- فتحي غانم .. قاصاً .... عفاف عبد المعطى
٥١- في بلادى الجميلة .... د. نعمات أحمد فؤاد
٥٢- حنين إلى الراحة .... مصطفى عبد الوهاب
٥٣- عصافير النيل .... إبراهيم أصلان
٥٤- عندما ضحكت بيسة .... فتحي سلامة
٥٥- محمد [(مواقف من السيرة النبوية الشريفة) .... فتحي الإبيارى
٥٦- النقل الجوى ومشكلة الألفية الثالثة ...... د. سراج الدين محمد محمد
٥٧- قمم ورموز على طوابع البريد .... محمود حسن الشافعي
٥٨- هوامش على دفتر التنوير .... د. جابر عصفور
٥٩- قضايا العمل الثقافى فى اقاليم مصر - ج١ .... مؤتمر أدباء الأقاليم
٦٠- قضايا العمل الثقافى فى اقاليم مصر - ج٢ .... مؤتمر أدباء الأقاليم
٦١ - سجل مؤتمر أدباء مصر فى الأقاليم .... مؤتمر أدباء الأقاليم
٦٢- معجم أدباء مصر فى الأقاليم ط٢ .... إشراف : فؤاد قنديل
٦٣- المكرمون .... مؤتمر أدباء الأقاليم
٦٤- قصائد .... أحمد اسماعيل

من الأعداد القادمة

- اللحن الأول .... ياسمين زهران
- شحات الغرام .... سيد فرغلى
- عمر من الوهم الجميل......... محمد مهران السيد
- ملفات الحداثة............... عبد العزيز موافى
- صوت لابروبيير .... د. أنور لوقا
- تأملات فى المدن الحجرية ... محمد ابراهيم أبو سنة
- أول الطريق .... صبيحة الشيخ داود
- على الكسار فى الماجستيك........... ماجد الكسار
- مختارات .... محمد البساطى

رقـم الإيـداع : ١٦٣٢٧ / ٢٠٠٠

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقا)

عُرفت القدس قديما باسم «يبوس» نسبةً إلى «اليبوسيين» وهم جماعة من العرب الذين نزحوا إليها من الجزيرة العربية، واتخذوا من زعميهم «ملكى صادق» ملكاً على يبوس، قبل أن يولد موسى - عليه السلام - بنحو خمسمائة عام، وقبل أن يصبح داوود ملكاً فى فلسطين بألف عام.

وهذا الكتاب يفند - نافياً - مزاعم إسرائيل الواهية، وأباطيلها الواهمة فى الحق التاريخى والدينى لمدينة «القدس» اعتماداً على براهين تاريخية وعلمية ساطعة لا تقبل المراجعة أو التشكيك.

كما يفضح الكتاب عمليات التزييف المتعمد للتاريخ ويميط اللثام عن تعامى الضمير والتضليل والمراوغات التى تقوم بها إسرائيل، وفى نفس الوقت يقدم قراءة واضحة للتطور الذى انتقلت منه «القدس» منذ فجر تاريخها حتى سنوات الاغتصاب والاحتلال، معيداً بذلك إلى «القدس» حقها الثابت فى انتمائها إلى العرب و أحقية العرب فى تملكها والسيادة عليها.

إن «القدس» ستعود كما كانت فى سابق عهدها «أور سالم» - أى مدينة السلام - وسوف ترف بأوراق الزيتون فى خضرة جديدة، وتضوع بعبق زهور الليمون فى انتفاضة تاريخية، تمحو رائحة الغزو الشيطانى، وتطهر تراب المدينة من رماد الاحتلال الباغى، وتعيد إليها قداسة زمن الأنبياء.



الثمن: جنيهان

الأمل للطباعة والنشر